وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 60 - January 2004

مجلة شهرية . العدد الستون . السنة الخامسة . يناير ٢٠٠٤ . الثمن عشرة جنيهات

عام سقوط الأقنعة / سلامة أحمد سلامة ◆ أبى طه حسين / مؤنس طه حسين

حروب الغرب الجديدة / كاثيا ديفينياخ ◆ قاعدة الهيمنة الأمريكية / جورج سوروس

أسئلة المحاكمة / أيمن الصياد ◆ مالك بن نبي / محمد الميلي ◆ من منا لا يذكر «أمينة» / هاشم النحاس

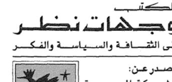


موالد الأقباط في مصر / كلوديا وينز

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد



فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد الستون
يناير ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- الطاهر أحمد مكى.. أستاذ الأدب المقارن وعضو مجمع اللغة العربية.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تشالمرز جونسون.. كاتب أمريكى وأستاذ متفرغ فى العلوم السياسية.
- جورج سوروس.. ملياردير أمريكى من أصل مجرى.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- رضوى عاشور.. روائية، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة عين شمس.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد العليم الأبيض .. الوزير المفوض الإعلامى لمصر فى واشنطن سابقًا.
- كاتيا ديفنباخ.. أستاذة مساعدة فى أكاديمية برلين للفنون.
- كلوديا وينز.. مصوِّرة فوتوغرافية مقيمة فى مصر.
- مارتن جاردنر.. كاتب أمريكى متخصص فى الثقافة العلمية.
- محمد الميلى.. المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- مينا بديع عبد الملك .. أستاذ الرياضيات بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.
- نبيل عبد المجيد صالح.. الأستاذ المتفرغ بالمركز القومى للبحوث.
- هاشم النحاس.. ناقد سينمائى.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى. محمد حاكم. سعد الدين شحاته. أحمد اللباد

لوحة الغلاف للفنان «حلمى التونى» (زيت على خشب ١١٠× ٨٥ سم)
من معرض «تحية إلى الفن القبطى»





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت : ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى . ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



عام سقوط الأقنعة



سلامة أحمد سلامة

■■ يصعب على المرء وهو يعيد النظر، إمعانًا وتدقيقًا، في أحداث عام منصرم، أن يعثر على وصف يختزل الحالة الذهنية لمشاهده ومعاركه المتعاقبة، بكل ما انطوت عليه من حروب وكوارث، وانتهاك للمُثُل والمبادئ، وإذلال للشعوب والدول، وسقوط للرموز والتماثيل، إلا أنه عام سقوط الأقنعة وانقشاع الضباب..

مع بدايات هذا العام أخذت تظهر معالم الصورة بجلاء.. صورة المشروع الأمريكي الإمبراطوري، الذي جرى الإعداد له بدقة وتخطيط تَميَّزا بكثير من الدهاء والقسوة والتفوق العسكري والتقني، التي حفظ التاريخ أمثلة منها، ابتداء من غزوات التتار، وفتوحات الإمبراطورية الرومانية، والحروب الاستعمارية، وانتهاء بحروب التوسع في القرن العشرين سعيًا وراء «المجال الحيوي» الذي يسمح للإمبراطورية النازية الصاعدة أن تتمدد فيه، لتفرض سيطرتها على مصادر الطاقة والثروات الطبيعية في أوروبا والعالم دون منازع، وكأن التاريخ يعيد نفسه.

وحتى أواخر عام ٢٠٠٢ لم تكن الأهداف الأمريكية قد انكشفت تمامًا. وظلت العواصم الأوروبية وبعض دول عربية تحاول مقتنعة بأنها لو نجحت في إغراء النظام العراقي بالتعاون مع فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة ليكشف لها عن مكامن أسلحة الدمار الشامل التي اتخذتها واشنطن ذريعة للتهديد بعملية عسكرية ضد العراق، لأمكن تجنب الحرب. ولكن القناع سقط من على وجه السياسة الأمريكية ونواياها المضمرة حين بدأت القوات الأمريكية تحتشد في منطقة الخليج، ضاربة عرض الحائط بالتقرير الذي قدمه العراق يحدد فيه مواقع السلاح العراقي ومخابئه، ودون اكتراث بالتقرير الذي قدمه هانز بليكس والبرادعي إلى مجلس الأمن يؤكدان فيه أن فرق التفتيش لم تعثر على سلاح الجريمة.

يتبين الآن، وبناء على شهادة روبن كوك وزير الخارجية البريطانية السابق، أن قرار الحرب على العراق كان قد اتخذ حتى قبل أن تذهب أمريكا إلى مجلس الأمن، وقبل موافقة حكومة بلير على المشاركة في هذه الحرب، وأن القرار كان نهائيًا ولا رجعة فيه، وهو ما أكده تصريح رامسفيلد وزير الدفاع في حينه بأن أمريكا مستعدة لخوض الحرب بمفردها إذا لزم الأمر.

ولم يكن هذا هو أول قناع يسقط، بل تلاه سقوط الأقنعة واحدًا بعد الآخر حين دخلت القوات الأمريكية العراق، وتشكلت قوة خاصة من خبراء وزارة الدفاع للبحث عن أسلحة الدمار الشامل، وعجزت هذه الفرقة التي استخدمت أفضل ما لديها من تقنيات عن العثور على أي أثر لأسلحة نووية أو كيماوية أو بيولوجية.. وحينئذ تحولت الأنظار إلى حجة جديدة، تحاول أن تجد رابطة ما بين النظام العراقي وتنظيم «القاعدة»، وأن تقول للعالم إن النظام العراقي كان مسئولاً عن احتضان عناصر الإرهاب ودعمها وتمويلها. ولكن هذه الحجة بدورها لم تثبت طويلاً. وبسرعة شديدة تحولت الحرب النفسية التي تشنها أمريكا لخداع الرأي العام الأمريكي والعالمي، إلى ادعاء مؤداه أن الهدف من الحرب هو إسقاط نظام ديكتاتوري طاغ، تعذَّب شعب العراق تحت وطأته ثلاثين عامًا.. وأن أمريكا بإزاحة هذا النظام سوف تفك أسر الشعب العراقي من قيوده، وتُحرره من نظام وحشي لا يعرف الرحمة، وتزرع له شجرة الديمقراطية والحرية، وتعيد له كرامته وحقوقه المهدورة، ليكون نموذجًا للديمقراطية في المنطقة العربية كلها.

كان من الضروري في إطار تحرك أمريكي ـ بريطاني واسع، بعد أن أعلنت أمريكا وقف العمليات العسكرية في العراق في مايو الماضي، إيذانًا بالنصر والقضاء على النظام العراقي وفلوله، أن تزيح الستار بحذر وفي خطوات محسوبة عن أكبر عملية تزييف وخداع لشعوب المنطقة، وبما يضمن في الوقت نفسه تهدئة الشكوك والتوترات التي بدأت تجتاح المواطن الأمريكي وتثير قلق السياسيين والعسكريين في العاصمة الأمريكية.. فمشروع الديمقراطية في العراق، كما أعلنت واشنطن، ليس غير خطوة أولى تتلوها خطوات لنشر الديمقراطية وإصلاح النظم السياسية والتعليمية والاقتصادية في المنطقة العربية.. وفي إطار مشروع أطلقت عليه مشروع الشراكة الأمريكية مع العالم العربي، جرت تحركات واتصالات واسعة، تراوحت بين التهديد والوعيد، وبين التلويح بسيف المعز وذهبه، وبين وعود بالمنح ووعود بالمنع، لحمل الأنظمة العربية على اتخاذ إجراءات داخلية لما تسميه تجفيف منابع الإرهاب والقضاء على «القاعدة»، التي ظن المحافظون الجدد أن الأصولية الإسلامية المتشددة التي تستند إليها أنظمة الحكم في عدد كبير من الدول العربية هي التي احتضنتها ومولتها. وحددت كتابات أمريكية عديدة «الوهابية» باعتبارها رأس الحربة التي يجب اقتلاعها من بعض النظم العربية وبالأخص في السعودية واليمن.

وربما لم تدرك أطراف عربية عديدة



حتى أواخر عام ٢٠٠٢ لم تكن الأهداف الأمريكية قد انكشفت تمامًا. وظلت العواصم الأوروبية وبعض دول عربية تحاول مقتنعة بأنها لو نجحت في إغراء النظام العراقي بالتعاون مع فرق التفتيش ليكشف لها عن مكامن أسلحة الدمار الشامل، لأمكن تجنب الحرب





أبعاد «الرؤية» الأمريكية لأهداف الحرب على العراق، إلا بعد أن انقشع دخان الحرب الإلكترونية غير التقليدية التى استخدمت فيها أسلحة حديثة محرمة دوليًا وجرى تدمير معظم البنية التحتية للعراق، وهلكت فيها أعداد كبيرة من العراقيين عسكريين ومدنيين لم يجر حصرها حتى الآن، وفى القلب من هذه الأهداف: السيطرة المباشرة على منابع النفط والتحكم فى إنتاجه واستهلاكه، تترتب عليها سيطرة أمريكية مطلقة فى العالم، تعزز المشروع الإمبراطورى الذى تحلم به إدارة بوش وأنصارها من اليمين المحافظ. وقبل ذلك وفى المقدمة منه إسقاط التهديد الاستراتيجى الذى كان يمثله نظام صدام لإسرائيل، والذى لم تكف تل أبيب عن التخويف منه والتحريض عليه باعتباره مصدر الخطر الرئيسى على إسرائيل وعلى النفوذ الأمريكى.

وفى حقيقة الأمر فإن إدارة بوش وهى تروج لإصلاح النظم السياسية وإلباسها ثوب الديمقراطية فى العالم العربى، لم تكن تسعى لإقامة ديمقراطية حقيقية تفقد سيطرتها على نظم الحكم فيها حين تنتقل السلطة إلى الشعب، فتصبح عرضة لرفض مطالبها وتعطيل مخططاتها كما فعلت تركيا، ولكنها كانت تستهدف القضاء على نفوذ التيارات الدينية المحافظة، وفتح المجتمعات العربية المغلقة أمام المؤثرات الثقافية والقيم الغربية الداعية إلى تحرير المرأة وإطلاق الحريات واحترام حقوق الإنسان على النمط الغربى. اعتقادًا منها بأن تيار بن لادن ونظام «القاعدة» هو الذى وقف فى وجه المصالح الأمريكية فى أفغانستان، وهو الذى يقاوم استمرار الوجود الأمريكى العسكرى فى السعودية ومنطقة الخليج، وهو فى النهاية المسئول عن تدبير العمليات الإرهابية التى ضربت السفارات الأمريكية فى شرق أفريقيا، ثم فى واشنطن ونيويورك بعد ذلك.

على أن إدراك واشنطن لحقيقة أن نجاحها فى إكمال مهمتها فى احتلال العراق، يتوقف إلى حد كبير على استعادة مصداقيتها فى العالم العربى، ولضمان حد أدنى من تعاون الدول المجاورة، حيث أخذت تنمو عبر حدودها مع العراق حركة تسلل للرجال والسلاح تغذى صفوف المقاومة العراقية وتنمى مشاعر الإحباط وخيبة الأمل من سوء معاملة قوات الاحتلال الأنجلو أمريكى للشعب العراقى وفشلها فى إعادة الأوضاع إلى طبيعتها.. سرعان ما دفعها إلى محاولة إعادة إحياء «خريطة الطريق» التى كان الرئيس بوش قد أعلنها قبل عامين باعتبارها الحل الأمثل لقيام دولة فلسطين إلى جانب الدولة الإسرائيلية.

وعلى مدى شهور الصيف. التى شهدت ضغوطًا أمريكية لاهثة لعزل عرفات، تساندها عمليات عسكرية إسرائيلية كثيفة. وجهت ضربات كاسحة مؤلمة «للمقاومة الفلسطينية»، صعدت المقاومة الفلسطينية إزاءها عملياتها الاستشهادية فى قلب إسرائيل، وقوبلت بعمليات اغتيال واعتقال واسعة النطاق لكوادر المقاومة الفلسطينية. وبينما كانت الدماء تخضب أرض فلسطين وتتجاوزها من الضفة إلى قطاع غزة حتى الحدود المصرية، جرت محاولة الاستغناء بـ«أبومازن» عن عرفات فى التفاوض مع شارون. ولم تصمد المحاولة أكثر من شهرين بذلت خلالها وساطات مصرية لإقناع الفصائل الفلسطينية بإعلان هدنة مؤقتة، بحجة إقناع إسرائيل برفع الحصار عن الضفة وبدء مفاوضات «الخريطة».. ولم تعبأ إسرائيل بالهدنة ولا بالخريطة، وبدا لشارون أنه قد وصل إلى الحد الذى يمكنه من أن يطلب استسلامًا فلسطينيًا كاملاً بتفكيك المنظمات، وتسليم قياداتها لإسرائيل، ونزع أسلحتها، ونفى عرفات أو قتله. وكانت المفاجأة التى أربكت شارون وهزت حسابات بوش الذى ساند السياسة الإسرائيلية فى السر وسكت عليها فى العلن، هى إلغاء الفصائل الفلسطينية للهدنة من جانب واحد واستئناف عملياتها الاستشهادية بأعنف مما كانت عليه، مما أدى إلى سقوط «أبو مازن».. والعودة مرة أخرى إلى طلب العون من عرفات، ولكن شريطة أن يكون بدون عرفات!

فى أثناء ذلك، ومع قدوم الخريف، واقتراب بدايات حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية، كانت أعداد الخسائر والإصابات فى صفوف قوات الاحتلال الأمريكية تتصاعد يومًا بعد يوم مع اشتداد هجمات المقاومة العراقية، واتساع نطاقها لتشمل مقر الأمم المتحدة ومبنى الصليب الأحمر وسفارة الأردن، ثم امتدت لتنال من القوات المتحالفة فى هجمات أوقعت ضحايا أسبانية وبولندية وإيطالية.. تأكد معها أن أقدام القوات الأمريكية أخذت تغوص فى الوحل، وتوشك أن تعيد مأساة فيتنام. وهو ما انعكس سريعًا على المزاج العام فى أمريكا، وأثار تساؤلات حول الدوافع الحقيقية للحرب فى العراق، ومدى كفاءة التقديرات العسكرية لرامسفيلد، وما إذا كان من الحكمة. حتى وإن صحت دوافع بوش فى محاربة الإرهاب وإسقاط النظام العراقى. أن تخوض أمريكا هذه الحرب منفردة وضد إرادة المجتمع الدولى والأمم المتحدة. وبالرغم من الأساليب الملتوية التى لجأت إليها إدارة بوش لحرمان الرأى العام الأمريكى من معرفة الحقائق، سواء فيما يتعلق بما يجرى فى العراق أو فى فلسطين، أو فى أجزاء أخرى من العالم، إلا أن بعضًا من بصيص الحقيقة أخذ يتسرب ليكشف عن الأعماق الدفينة للمخطط الذى وضعه التحالف المسيحى الصهيونى مع اليمين المحافظ، للاستيلاء على الحلم الأمريكى وإقامة الإمبراطورية الموعودة.

بعض أحداث التاريخ يتكفل الزمن بكشف أبعادها وفهم أسرارها وحل تعقيداتها، وبعضها تفصح عنه عبارات تأتى وليدة المواقف الصعبة واللحظات الحرجة.. ولهذا كانت ثورة الغضب وربما الغيظ التى اجتاحت العالم، حين وقف محاضير محمد رئيس وزراء ماليزيا الذاهب إلى الاعتزال، يعرى الحقيقة التى أغمض العالم عينه عنها وهى أن الأوروبيين قتلوا فى معسكرات الاعتقال ستة ملايين يهودى، ولكن اليهود اليوم هم الذين يحكمون العالم بالنيابة، ويحركون الدول الأخرى لخوض الحروب لحسابهم تحت غطاء محاربة الإرهاب طبعًا.. ولم تكن تصريحات محاضير محمد غير قراءة بالصوت العالى لحقيقة يتستر الجميع عليها. ومن ثم جاءت تصريحات الجنرال الأمريكى وليام بويكين. أحد كبار القادة العسكريين



لم تعبأ إسرائيل بالهدنة ولا بالخريطة، وبدا لشارون أنه قد وصل إلى الحد الذى يمكنه من أن يطلب استسلامًا فلسطينيًا كاملا بتفكيك المنظمات، وتسليم قياداتها لإسرائيل، ونزع أسلحتها، ونفى عرفات أو قتله



عـام سـقـوط الأقـنـعـة



. التى قال فيها: «إن المسلمين يعبدون الأوثان وأنهم يريدون تدميرنا لأننا مسيحيون»، لتعرى الوجه الآخر من الصورة على الضفة الأخرى من المحيط ولتنزع الحجاب عن أعمق أعماق المشاعر التى تحرك السياسات وترسمها.

وعلى الرغم من كل الجهود التى بُذلت لتصوير الصراع القائم على أنه صراع بين التقدم والتخلف، بين قوة عالمية تمثل حضارة الغرب بكل إنجازاتها وتسعى لفرض سيطرتها على منطقة استراتيجية من العالم، وبين حضارة إسلامية متزمتة آفلة ومهددة بالزوال، بين نزعات الهيمنة والعولمة والرأسمالية الجامحة وبين شعوب قابعة وراء أسوار التقاليد والنظم المتآكلة.. فإن البُعد الدينى فى هذا الصراع ظل يطفو على السطح بقوة طوال عام ٢٠٠٣. فلم تكد تنتهى الأسابيع الأخيرة من العام حتى كانت قضية المسلمين فى أوروبا تتفجر من جديد: كيف يمكن احتواؤهم وامتصاصهم فى المجتمعات الأوروبية؟ وكيف يمكن ابتداع إسلام أوروبى لا يثير حفيظة الأوروبيين؟ كيف يمكن طمس معالم الوجه واليد واللسان العربى الإسلامى فى إطار الحضارة الغربية؟

وتحت غطاء الحرب ضد الإرهاب، اختزلت الظاهرة الإسلامية كلها فى ضرورة تغيير النظم السياسية القائمة فى الدول العربية والإسلامية. ومن اللافت للنظر أن تتشابه شروط «الشراكة الأمريكية» التى طرحها بوش، مع شروط «الشراكة الأوروبية» التى يطرحها الاتحاد الأوروبى.. كلا الطرفين يطرح تصورات تقوم على ضرورة تغيير الأوضاع السياسية والثقافية والفكرية نحو الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتغيير المناهج التعليمية والدينية فى العالم العربى للقضاء على التطرف وهو ما تجعله أمريكا شرطًا من شروط التسوية للصراع العربى الإسرائيلى وحل القضية الفلسطينية.. بينما تجعله أوروبا أساسًا للتعاون الاقتصادى والسياسى وتنظيم الهجرة والعمالة المتدفقة من الشرق.

لم تنقض أحداث العام المنصرم دون أن تفجر فى العالم العربى دوامات من الجدل الساخن، تطفو على سطح تيارات تحتية عميقة تدعو إلى التغيير فى المجتمعات العربية.. هناك أنصار «النفس اللوامة» الذين يعتقدون أن العيب كامن فى الجمود الذى أصاب الفكر وعطّل التطور فأعجز شعوبنا عن اللحاق بالديمقراطية وبركب التقدم العالمى، ومن ثم فلا بأس من أن نستنجد بالآخر. الغرب. لكى يقيلنا من عثرتنا ويفك عنا قيود التخلف، ويدفع النظم الحاكمة دفعًا إلى ذلك أو يتركها تواجه وهدة السقوط.

وهناك «أنصار المؤامرة» الذين يرون أن الأطماع الأوروبية والأمريكية، هى السبب وراء ما تعانيه من تقهقر ونكوص. تغريها المؤامرات الصهيونية على ذلك إغراءً شديدًا للتمكين لوجود إسرائيل واستمرارها؛ فهى تشجع أنظمة حكم بالية متهرئة على الفساد ومقاومة التقدم نحو الديمقراطية والحرية.

وفيما يزداد الخلاف بين أنصار النفس اللوامة وأنصار المؤامرة، يزداد الحصار السياسى والاقتصادى والفكرى على الشعوب العربية وتفشل النظم الحاكمة والنخب السياسية والثقافية فى اكتشاف الطريق الصحيح. وإذا كان صحيحًا أن الولايات المتحدة الأمريكية تواجه مأزقًا صعبًا فى العراق لن يتهيأ لها الخروج منه بالسهولة التى تصورتها. وإذا كان صحيحًا أيضًا أن المقاومة الفلسطينية لم تستسلم ومازالت قادرة على الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطينى فى مواجهة قوة إسرائيل المدججة بالسلاح النووى.. فإن الشعوب العربية تواجه محنة تاريخية غير مسبوقة. تبدو أشبه بالفريسة التى أصيبت بالشلل والجمود أمام وحش يتقدم حثيثًا لالتهامها.

وهاهو الرئيس الأمريكى فى الأيام الأخيرة من العام يوقع قانونًا لمحاسبة سوريا يفرض عليها حزمة من العقوبات السياسية والاقتصادية لأنها لم تذعن لطلبات تبدو شبه مستحيلة، أشبه بطلب الذئب الذى يمنع الحمل من الشرب لأنه يعكر مجرى الماء. وفى الوقت نفسه يجرى الإعداد لمشروع قانون جديد لمحاسبة السعودية، حيث تتكرر فصول السيناريو الذى سبق مع سوريا بحجة دعم الإرهاب وتقديم مساعدات مالية لمؤسسات دولية تعتبرها أمريكا إرهابية، من بينها مؤسسات خيرية لمساعدة أرامل وأسر الشهداء فى الأراضى الفلسطينية.





على أن شمس عام ٢٠٠٣ المترع بأحداثه المأساوية القاصمة لا تكاد تؤذن بالمغيب حتى تقع هزتان هائلتان، الأولى: بسقوط صدام حسين واعتقاله بعد ثمانية أشهر من الهرب.. يخرجه جنود الفرقة الأمريكية الخاصة من جُبٍّ تحت الأرض مثل فأر يُعميه ضوء الشمس.. يسقط رمز آخر من الرموز الزائفة التى أعاقت الرؤية عن الشعب العراقى، ودمرت إمكاناته، وجلبت له وللأمة العربية الكارثة. وبين دموع الباكين على المصير المزرى لقيادة ضللت الشعب العراقى ثلاثين عامًا. واللعنات التى تشيعه من الملايين الذين تعرضوا لظلمه أو نقمته، يستعيد الرئيس الأمريكى أنفاسه آملاً فى أن تهيئ له ورقة اعتقال صدام فرصة إعادة انتخابه.

والثانية: بالإعلان الليبى المفاجئ عن التخلص من أى أسلحة محظورة، والرجوع إلى أحضان أمريكا الدافئة، بعد أن تابت القيادة الليبية وأنابت، واكتشفت أنها أمضت ثلاثين عامًا فى صراع لا جدوى منه مع الغرب، حيث لم يعد العرب فى نظر القيادة الليبية يساوون شيئًا.

ويفتح العالم صفحات العام الجديد على فصل جديد، وتساؤلات جديدة: هل تخمد جذوة المقاومة العراقية أم تزداد اشتعالاً؟ وهل تهتك محاكمة صدام العلنية. إن تمت. أسرار هذه الحقبة الغامضة المليئة بالألغاز: ١٢ عامًا كان صدام فيها حليف الغرب وخادمه وشرطيه فى الحرب ضد إيران، و١٢ عامًا تالية أراد أن يجنى ثمرة خدماته الجليلة للغرب ويعمل فيها لحسابه الخاص، فلم يفلح؟ وإلى أى مدى سوف ينجح النموذج الديمقراطى الذى سيسعى الغرب إلى فرضه بكل العزم والإصرار على المنطقة العربية؟ وهل تستطيع الأمة العربية أن تحسم خياراتها المصيرية بعد أن بانت معالم الطريق وانقشع الضباب وظهرت الأهداف واضحة جلية؟

هذه هى أسئلة عام قادم!! ■



كانت ثورة الغضب وربما الغيظ التى اجتاحت العالم، حين وقف محاضير محمد، يعرى الحقيقة التى أغمض العالم عينه عنها وهى أن الأوروبيين قتلوا فى معسكرات الاعتقال ستة ملايين يهودى، ولكن اليهود اليوم هم الذين يحكمون العالم بالنيابة، ويحركون الدول الأخرى لخوض الحروب لحسابهم



فقاعة الهيمنة الأمريكية

جورج سوروس



لا أحد ينكر أن هجمات سبتمبر ٢٠٠١ قد أحدثت تحولاً جوهرياً فى مسار التاريخ الإنسانى؛ إلا أن ذلك لن يعفينا من السؤال، ولن يعفينا من مساءلة أنفسنا عن السبب الحقيقى وراء العلاقة بين الحدث وبين التحول.. لن يعفينا من طرح السؤال التالى: كيف يكون لحدث واحد، حتى ولو أسفر هذا الحدث عن مقتل ٣٠٠٠ مدنى، كيف يكون له مثل هذه الآثار بعيدة المدى، التى لم تترك شيئاً إلا وطالته، سواء من قريب أو بعيد؟ وببساطة.. فإن إجابة هذا التساؤل لن نجدها فى الحدث نفسه، بقدر ما سنجدها فى كيفية تعامل الولايات المتحدة، تحت قيادة الرئيس جورج دبليو بوش، مع الحدث.

بالطبع، نحن نتفق جميعاً بأن الحدث، ذلك الهجوم الإرهابى، كان تاريخياً بكل معانى الكلمة. فالقيام بخطف طائرات، مليئة بالركاب، ثم استخدامها كقنابل انتحارية لا يعبر إلا عن فكرة جنونية مرعبة، تتسم بمنتهى الجرأة والوقاحة؛ وكان إنزالها على أرض الواقع أكثر إثارة ورعباً. إن تدمير البرجين التوأمين التابعين لمركز التجارة الدولى أحدث صدى معنوياً فى مختلف أنحاء العالم، بالإضافة إلى تمكن جميع البشر، ساكنى هذه البسيطة، من متابعة الحدث عبر شاشات التليفزيون، الأمر الذى أعطاه طابعاً تأثيرياً، مدغدغاً للمشاعر، لم يحصل عليه أى حدث إرهابى من قبل. بيت القصيد. إن هدف الإرهاب هو الترويع؛ وقد حققت هجمات ١١ سبتمبر هذا الهدف.

إلا أنه، ونقولها ثانية، لم يكن للحادى عشر من سبتمبر أن يغير مجرى التاريخ إلى هذا الحد، كما شهدنا جميعاً، بدون رد الفعل الذى استخدمه الرئيس بوش إزاء ما جرى فى ذلك اليوم. فقد أعلن الحرب على الإرهاب؛ وطبق تحت ذلك المسمى المزيف أجندة فى غاية التشدد والتطرف للسياسة الخارجية الأمريكية، واضعاً أسسها ومبادئها من قبل وقوع تراجيديا الحادى عشر. ويمكن تلخيص تلك المبادئ، كما يلى: أولاً، أن العلاقات الدولية هى علاقات القوة، وليس القانون؛ وثانياً، أن القوة باقية، والقانون يقنن ويشرع ما هو باق.



لا غبار ولا شك فى تربع الولايات المتحدة على كرسى الهيمنة، منذ انتهاء الحرب الباردة، ومن ثم، فهى فى موقع يسمح لها بفرض آرائها، مصالحها، وقيمها. ومن المفترض أن يستفيد العالم من تطبيق تلك القيم، لأن النموذج الأمريكى قد نجح فى إظهار هيمنته. وبما أن الإدارتين السابقتين، إدارة كلينتون وإدارة بوش الأب، قد فشلتا فى الاستفادة الكاملة من القوة الأمريكية المتاحة، فإنه يصير من اللازم والضرورى أن يتم تصحيح هذا الوضع؛ وأن تجد الولايات المتحدة طريقاً لتأكيد هيمنتها على العالم.

ويعتبر هذا النمط من السياسة الخارجية جزءاً من أيديولوجية متكاملة، يطلق عليها عادة اسم «التيار المحافظ الجديد»، إلا أننى أفضل إدراجه تحت مسمى «الداروينية الاجتماعية»، فى شكلها الخام. وقد استخدمت هنا كلمة «خام»، قاصداً التلميح إلى ذلك النظام الداروينى الذى يتجاهل دور التعاون والتحالف، فى دائرة البقاء للأقوى، واضعاً كل التركيز على التنافس والتصارع. فمن المنطلق الاقتصادى، يصير التنافس بين الشركات، وتأخذ الداروينية الاجتماعية شكل «السوق المتطرف»؛ ومن المنطلق السياسى، يصير التنافس بين الدول، فتأخذ الداروينية الاجتماعية، أو هى آخذة الآن، شكل الهيمنة الأمريكية.

ولا يخضع جميع أعضاء حكومة بوش إلى هذه الأيديولوجية، إلا أن المحافظين الجدد يشكلون جماعة ذات تأثير عالٍ فى داخل هذه الحكومة. فهم الذين نادوا، علانية، باحتلال العراق، فى بداية عام ١٩٩٨. وقد تولدت أفكارهم منذ الحرب الباردة، فترعرعت فى أجوائها، ثم باتت تتخذ طابعاً تفصيلياً، فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة. ولم يتمكن هؤلاء المحافظون الجدد من إنزال أيديولوجيتهم على أرض الواقع، قبل الحادى عشر من سبتمبر، لاعتبارين أساسيين: أولاً، أن الرئيس جورج بوش الابن لم يكن لديه التفويض الكافى (لقد صار رئيساً بفضل تصويت أحادى فى المحكمة العليا)، وثانياً، أن الولايات المتحدة لم يكن لديها عدو واضح الملامح، يمكنه تبرير الارتفاع الدراماتيكى فى الإنفاق العسكرى.

وقد قامت أحداث سبتمبر بإزاحة العائقين. فأعلن الرئيس بوش الحرب على الإرهاب، واصطف الجمهور الأمريكى وراء رئيسه. وبعدها، أكملت الإدارة الأمريكية طريقها، مستغلة الهجمة الإرهابية لمصالحها الشخصية. فعملت على تغذية مشاعر الخوف، وإلهابها فى داخل المجتمع الأمريكى، ليتم تعبئته وحشده بالكامل وراء الرئيس؛ كما عملت على استثمار حربها على الإرهاب، بهدف تطبيق أجندتها المهيمنة. هكذا كان يوم الحادى عشر من سبتمبر مغيراً لمجرى التاريخ.

وليس استغلال الحدث، فى سبيل تعزيز أجندة معينة، بأمر مستحق للتوبيخ. فمن أولويات الرئيس وواجباته، توفير القيادة؛ ثم إنه من الطبيعى جداً، بالنسبة للسياسيين، استغلال الأحداث أو التلاعب بها، بهدف تعزيز وترويج سياساتهم. كل هذا طبيعى ومتوقع؛ فالمشكلة الحقيقية لا تكمن هنا؛ بل تكمن فى طبيعة السياسات التى يقوم بوش بترويجها، وفى الوسيلة التى ينتهجها بوش لفرض تلك السياسات، سواء على الولايات المتحدة أو على العالم.. إنه يقودنا إلى منحنى فى غاية الخطورة.

إن أيديولوجية بوش الاستعلائية المهيمنة، تقف فى تضاد كامل مع مبادئ المجتمع المفتوح، الذى يعترف بالآراء المختلفة للبشر، مفترضاً بأن الحقيقة المطلقة ليست ملكاً لأى أحد منهم. إن هذه الأيديولوجية تفترض بأن قوتنا المتفوقة على الآخرين، تجعلنا أكثر علماً، وأكثر معرفة، ومن ثم أكثر امتلاكاً للحق. وكانت المقولة الأولى، التى أطلقتها استراتيجية الأمن القومى فى سبتمبر ٢٠٠٢ (وهو التصميم السنوى الذى يصممه الرئيس للكونجرس محدداً أهداف الدولة الأمنية) تقول التالى: «الصراعات العظيمة فى القرن العشرين، بين الحرية والشمولية، انتهت بالانتصار القاطع لصالح قوات الحرية. ولصالح نموذج أساسى واحد، يعتمد عليه فى تحقيق تقدم الأوطان ونجاحها: الحرية، الديمقراطية، والتجارة الحرة».

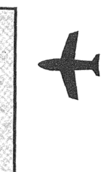
إلا أن هذه المقولة، تحمل فى طياتها افتراضات خاطئة؛ وذلك لسببين أساسيين: أولاً، أنه لا يوجد نموذج أوحد، يعتمد عليه فى تحقيق التقدم الوطنى. وثانياً، أن النموذج الأمريكى، الذى استطاع أن يبرهن على نجاحه، لا يمكن توافره بالنسبة للدول الأخرى: ذلك لسبب بسيط، وهو: أن نجاحنا اعتمد أصلاً على موقعنا المتميز والمهيمن على النظام الرأسمالى العالمى؛ ونحن لن نتنازل أبداً عن موقعنا هذا، ولن نمنحه لأحد مهما كان.

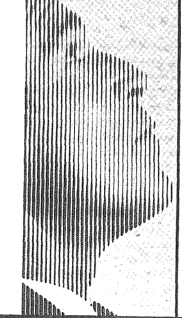


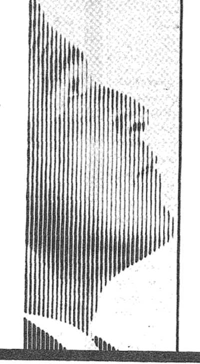
وقد تأسس مذهب بوش، الذى تم التلفظ به لأول مرة فى خطبة رئاسية ب «ويست بوينت» فى شهر يونيو ٢٠٠٢، والذى تم إدراجه من ضمن استراتيجية الأمن القومى فى غضون ثلاثة شهور، على محورين: أولاً، أن الولايات المتحدة ستفعل كل ما فى وسعها وطاقتها للحفاظ على هيمنتها العسكرية، غير المشكوك فيها لدى الجميع؛ وثانياً، أن الولايات المتحدة سوف تنتحل الحق فى ممارسة الضربات الوقائية. وقد تبنى المذهب مستويين من السيادة: سيادة الولايات المتحدة، والتى تأخذ أولويات وأسبقية على جميع الاتفاقيات والالتزامات الدولية؛ وسيادة الدول الأخرى، التى تخضع لإرادة الولايات المتحدة. وقد يذكرنا جورج أورويل بهذا، فيقول فى قصته المعروفة «مزرعة الحيوانات»: كل

ترجمة: شيرين حامد فهمى

بترتيب مع مجلة: The Atlantic Monthly







الحيوانات متساوية، ولكن بعض الحيوانات متساوية أكثر من غيرها.

ولنتأكد جميعًا، فإن مذهب بوش لا يُقال بهذه الصرامة، ولا يلفظ بهذه الشدة؛ وإنما هو مغلف ومغطى بازدواجية؛ تلك الازدواجية التى تعكس التناقض بين مفهوم إدارة بوش للحرية والديمقراطية، وبين المبادئ الحقيقية للديمقراطية والحرية. فصحيح أن الحديث حول «نشر الديمقراطية» حافل فى استراتيجيات الأمن القومى، إلا أن الرئيس بوش عندما يتحدث عن ضرورة بقاء الحرية، فإنه يقصد بذلك ضرورة بقاء الولايات المتحدة. ومن المفترض، فى المجتمع الحر المفتوح، أن يقر الناس لأنفسهم معانى الحرية والديمقراطية، حسب مفهومهم هم، وليس حسب المفهوم الأمريكى. وقد يتجلى التناقض، خاصة، فى حالة العراق.. «نحن جئنا كمحررين، جالبين معنا الحرية والديمقراطية»؛ إلا أن تلك الصورة التى يراها السواد الأعظم من الجمهور الأمريكى.

وإنه حقًا، لمن المضحك، أن تقع الحكومة، صاحبة أكثر المجتمعات نجاحًا وانفتاحًا فى العالم، فريسة فى أيدى أناس، يجهلون المبادئ الأولية للمجتمع المفتوح. فعلى الأراضى الأمريكية، قام المحامى الجنرال «جون أشكروفت» باستخدام (الحرب على الإرهاب) ليقلص ويحجم من الحقوق المدنية. وعلى الصعيد الخارجى، تحاول الولايات المتحدة فرض آرائها ومصالحها من خلال استخدام القوة العسكرية. وكان احتلال العراق هو التطبيق العملى الأول لمذهب بوش، إلا أنه أثبت العكس تمامًا..

لقد نشأت فجوة.. قل «صدع كبير» بين الولايات المتحدة وبين بقية العالم. وكان حجم الفجوة ملحوظًا للغاية، ومؤثرًا للغاية. وفى ١٢ سبتمبر ٢٠٠١، عقد اجتماع خاص لمجلس شمال الأطلنطى، الذى استحضر روح المادة الخامسة من ميثاق الحلف (الناتو). وهو أمر لم يحدث قبل ذلك فى تاريخ الحلف. داعيًا جميع الأعضاء للتعامل مع الهجوم الإرهابى على الولايات المتحدة، على كونه اعتداء على أراضيهم. وعلى أثر ذلك، قامت الأمم المتحدة بالتصديق، وبإيجاز، على المفهوم الأمريكى التأديبى ضد منظمة القاعدة فى أفغانستان. إلا أنه فى غضون أكثر من عام، لم تستطع الولايات المتحدة انتظار قرار الأمم المتحدة للتصديق على احتلال العراق. فأعلن جيرهارد شرودر اعتراضه ورفضه التعاون مع الولايات المتحدة، ليكون ذلك سببًا فى إعادة تنصيبه مرة ثانية لكرسى الرئاسة. وفى كوريا الجنوبية، تم انتخاب مرشح. لا يتمتع بأى شعبية. إلى الرئاسة، لمجرد أنه معروف «بوده المحدود جدًا» للولايات المتحدة؛ بل إن الكثير من الكوريين الجنوبيين يرون فى الولايات المتحدة خطرًا جسيمًا عليهم، وعلى أمنهم، أكثر مما يرونه فى كوريا الشمالية. ملخص القول، إن الغالبية العظمى فى العالم تعارض الحرب على العراق.

إن الحادى عشر من سبتمبر أحدث بترًا أو قطعًا. أو يمكن أن تسميه شرخًا. فى السياسة الخارجية الأمريكية. إن ما حدث من اختراقات للمعايير الأمريكية، والذى كان ينظر إليه بازدراء شديد فى الظروف العادية، صار مصدر قبول وترحيب، باعتباره مناسبًا للظروف الحالية. فغير الطبيعى، والراديكالى، والمتطرف.. كلها كلمات أعيد تفسيرها من جديد.. فصارت «طبيعية».

وإذا أردنا إضفاء مزيد من التوضيح على أهمية التحول، فاسمحوا لى أن أجلب إليكم مثلاً حيًا من حكم خبرتى بأسواق المال. إن أسواق البورصة تهيئ دائمًا الأجواء لعملية الطفرة. المتورمة، أو الفقاعة القابلة للانفجار فى أى لحظة. وكما نعلم، فإن الفقاعات لا تنضح على أثر نسمات الهواء الرقيقة، بل لديها أساس من الواقع ومن الحقيقة. ولكنها الحقيقة المشوهة عبر سوء الفهم. فتحت الظروف الطبيعية، يحدث إصلاح ذاتى لسوء الفهم؛ فتتجه الأسواق نحو بعض الشىء من الاتزان والتعادل.

وأحيانًا، يتم تغذية هذا الفهم المخلوط من قبل اتجاه سائد، على أرض الواقع، وذلك عندما نكون بصدد عملية نشوء الفقاعة وتشكلها. وعندما تصل الفجوة بين الحقيقة وبين التفسير الخاطئ لها إلى أوجها، وعندما تتسع الهوة بينهما لتصل إلى الحد الأقصى الذى لا يحتمل.. تنفجر الفقاعة.

وفى أثناء فترة التغذية الذاتية، يقبع المشاركون فى اللعبة، تحت سحر وفتنة التحيز المفرط. فتبدو الأحداث وكأنها تصادق وتؤكد على معتقداتهم، لتضيف مزيدًا من القوة إلى فهمهم المخلوط، وإلى إدراكاتهم المشوهة. وهذا من شأنه أن يوسع الفجوة، وأن يهيئ خشبة المسرح للحظة الحق. كما يهيئه لرجوع أخير عما قد سلف. وعندما تأتى لحظة الرجوع، فيكون الأمر عرضة. حينئذ، لظهور عواقب قاتلة وفتاكة. إن هذا المسار من الأحداث يبدو ذا خاصية أو ذا طبيعة غير مقنعة؛ إلا أنه بإمكاننا إجهاض عملية «الفقاعة القابلة للانفجار» فى أى مرحلة؛ ومن ثم تقليل أو منع العواقب العكسية برمتها. وكلما كانت عملية الإجهاض أسرع. كلما كان ذلك هو الأفضل والأحسن.

السعى وراء الهيمنة الأمريكية.. يمكن وصفه بالفقاعة. فالمكانة المهيمنة التى تحتلها الولايات المتحدة فى العالم تمثل عنصر الحقيقة، التى يتم تشويهها وتحريفها. أما الافتراض الذى يقول أن الولايات المتحدة ستكون فى وضع أفضل، إذا ما استخدمت مكانتها فى فرض قيمها ومصالحها على الناس كافة. فهو افتراض لا يمثل إلا سوء الفهم والإدراك، بل إن الأمر معكوس تمامًا؛ فالولايات المتحدة لم تستطع الوصول إلى ما هى عليه الآن، إلا من خلال عدم استغلالها لقوتها.



ولكن أين نحن من هذه العملية الفقاعية؟ إن الوضع المتدهور فى العراق.. ليس إلا لحظة متجلية للحقيقة أو لحظة متجلية للامتحان؛ فإذا تم التغلب عليها بنجاح، سيستمر الوضع على ما هو عليه، بل سيزداد سوءًا.

وبغض النظر عن التبريرات التى سقناها لخلع النظام الصدامى، إلا أنه لا يوجد شك واحد فى أن احتلالنا للعراق لم ينطلق إلا من دعاوى واهية. ومن حجج كاذبة. وسواء بقصد أو بغير قصد، وسواء بعلم أو بغير علم، فقد قام الرئيس بوش بخداع الجمهور الأمريكى، وبخداع الكونجرس الأمريكى، ماشيًا بنعله على آراء الحلفاء والأصدقاء. ولم يكن للصدع المتزايد بين توقعات الإدارة الأمريكية وبين الوضع الحقيقى للأمور أن يتسع أكثر من ذلك؛ ولم يكن من الممكن أن تزداد الهوة أكثر من ذلك. وإنه لمن الصعب حقًا، أن تجد. فى الأونة الأخيرة. عملية عسكرية مُنيت بهذا الفشل الذريع، كما مُنيت عمليتنا العسكرية فى



الأذكيـــاء

للإمـــام ابن الجـــوزى

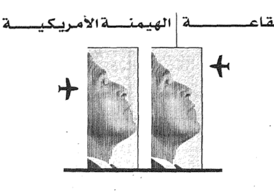
ذكر المؤرخون نسب الإمام ابن الجوزى فقالوا إنه يتصل بالخليفة أبى بكر رضى الله عنه وهو عبد الرحمن بن محمد ابن على بن عبيد الله بن حمادى وكنيته أبو الفرج ابن الجوزى. وقد ولد عام ٥١٠ هجرية ونشأ يتيمًا وتعلم ابن الجوزى على يد كبار العلماء فى عصره فمن شيوخه الحسين بن محمد البارع وعلى بن عبد الواحد الدينورى. وقد برع ابن الجوزى فى الوعظ والإرشاد منذ صغره وكان مجلسه من أكبر مجالس العلم، وأثنى عليه كثير من العلماء مثل العلامة ابن كثير وموفق الدين المقدسى.

ومن مؤلفاته. مناقب عمر بن الخطاب ومناقب عمر بن عبد العزيز وصيد الخاطر وأخبار النساءوأخبار الحمقى والمغفلين ومنهاج القاصدين وجامع الأسانيد والأحاديث الرائقة.

وكتاب الأذكياء يطوف من خلاله المؤلف فى عالم الأذكياء سواء أعمالهم أو أقوالهم أو قدرتهم على التخلص بسهولة من المشكلات التى تعترضهم بما أوتوا من نشاط عقلى وصفاء ذهنى عميق. وقد بين المؤلف أنه ألف هذا الكتاب للتعريف بأقدار هؤلاء الأذكياء وذكر أحوالهم وتلقيح ألباب السامعين إذا كان فيهم استعداد لنيل مرتبة الذكاء ثم تأديب المعجب برأيه إذا سمع أخبار من تعسّر عليه لحاقه.

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات وقد اعتمدنا على الطبعة التى أصدرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن مشروع مكتبة الأسرة لعام ٢٠٠٣ وقد حققها الأستاذ عادل عبد المنعم أبو العباس.





فقاعـــة الهيمنـــة الأمريكيـــة

العراق. فهاهم جنودنا.. وقد أجبروا على القيام بمهام رجال الشرطة، وهم فى ملابس المقاتلين، لتحصد رءوسهم يومًا بعد يوم. نحن لم نعرض، فقط، حياتهم للخطر، بل عرضنا أيضًا فعاليتهم القتالية.. ومعنوياتهم التى أتلفت ودمرت بفعل الحرب، فى وقت لم نعد فيه قادرين على التخطيط لقوتنا المستقبلية: خاصة أن مصادر التهديد باتت متواجدة، ليس فى مكان واحد، بل فى أكثر من مكان. فهاهى كوريا الشمالية، تدشن مشاريعها النووية على العلن: وهاهى إيران، تفعل نفس الأمر، ولكن فى الخفاء. وهاهى طالبان، تعيد جمع نفسها فى أفغانستان. وهاهو ثمن احتلال العراق، يحل علينا، ومعه ظلال الحرب الدائمة التى أثقلت كاهلنا الاقتصادى: وفى غمار كل ذلك، يظهر فشلنا فى مواجهة مشاكل كثيرة، قد تقيحت وتعفنت. سواء على المستوى المحلى أو العالمى. إننا إذا أردنا دليلاً دامغًا على أكذوبة الحلم الأمريكى للهيمنة، فلن نجد أدل من واقعة احتلالنا للعراق. أما إذا فشلنا فى الالتفات إلى هذا الدليل، وأخذه فى الاعتبار، فلن يكون هناك مفر من مواجهة مستقبل أكثر مرارة مما نواجهه الآن، لندفع فيه الثمن غاليًا: ولكن هذه المرة أغلى من أى مرة سابقة.

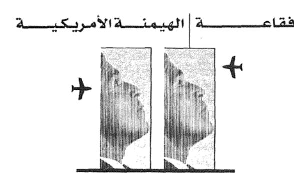
وفى أثناء كل هذا، يبدو أننا تعاملنا بخطأ واضح مع مسألة الحرب على الإرهاب: وذلك نتيجة لانشغالنا المفرط مع موضوع «الهيمنة». فكلمة «الحرب» هنا، وفى هذا الإطار، هى بالتأكيد تشبيه غير مناسب، فصحيح أن الإرهابيين يهددون أمننا القومى والشخصى: وصحيح أننا ملزمون بحماية أنفسنا من تلك التهديدات، وصحيح أن الكثير من الخطوات التى انتهجناها تعتبر لازمة وضرورية: وصحيح أنه لا يمكن أبدًا الافتراض بأننا قصرنا فى أداء مهامنا من أجل منع ضربات مستقبلية.. هذا كله صحيح.. إلا أن الحرب التى دشنها بوش ضد الإرهاب لم تفعل الكثير لإنهاء الإرهاب أو تحسين الوضع الأمنى الداخلى. بل على العكس تمامًا: فهذه الحرب تعرض أمتنا للخطر، وتضعنا. فى نهاية الأمر. فى حلقة مفرغة لتصاعد كان يمكننا التعامل مع الحادى عشر من سبتمبر، على كونه جريمة ضد الإنسانية، بدلاً من كونه حربًا عسكرية. فتعاملنا معه كجريمة، كان سيكون أكثر ملاءمة، وأكثر مناسبة. فالجرائم تحتاج إلى رجال الشرطة، لا إلى الحملات العسكرية. إن الحماية من الإرهاب تتطلب خطوات تحذيرية وقائية: كما تطلب وعيًا. وهمة عالية من قبل رجال المخابرات. وهى فى النهاية مهام تعتمد، أولاً وأخيراً، على تأييد الجماهير التى ينبثق منها الإرهابيون. فتخيل للحظة.. لو أن اليوم الحادى عشر من سبتمبر كان قد عومل على كونه جريمة.. تخيل السيناريو المترتب على ذلك. لو كان هذا اليوم اعتبر على أنه جريمة ضد الإنسانية، لما اضطررنا لاحتلال العراق، ولما اضطررنا لدفع جنودنا المسلحين دفعًا لأداء مهام رجال الشرطة، ليقعوا صرعى فى النهاية تحت طلقات العراقيين.



إن إعلان الحرب على الإرهاب، تتناسب أكثر مع مطامع بوش وأهدافه، لأنها تستعيد وتثير بدورها القوة العسكرية، إلا أن بوش كان مخطئًا بالتأكيد، حينما فكر فى ذلك، لأن الحملة العسكرية تتطلب هدفًا معينًا وواضحًا: ويفضل أن يكون دولة. وصحيح أن الحرب على الإرهاب، أقيمت فى البداية على الدول التى تؤوى الإرهابيين: إلا أن الإرهابيين الآن لا ينتمون إلى دولة، فهم ببساطة يصنفون على كونهم لاعبين غير دوليين، حتى ولو كانوا يمولون من قبل الدول.

إن الحرب على الإرهاب، التى تبنتها إدارة بوش، لن يكتب لها الانتصار، على جميع الأحوال، بل العكس هو الصحيح، فهى بإمكانها أن تجلب حالة دائمة من الحرب. فالإرهابيون لن ينتهوا أبداً: ولن يكفوا عن الاحتجاج ضد الهيمنة الأمريكية: ولن يكفوا عن تقديم الذرائع تحت اسم الهيمنة الأمريكية. وذلك التمسك بالهيمنة الأمريكية سيؤدى بدوره إلى الاستمرار فى تصاعد وتأجج المقاومة. بالإضافة إلى أن قيامنا بتحويل عملية اصطياد الإرهابيين إلى عملية قتلهم عسكريًا، سيؤدى بنا، حتمًا، إلى إيقاع الظلم على الأبرياء. وكلما زاد عدد الأبرياء المظلومين، كلما ازداد الشعور بالقهر والتذمر، وكلما أتيحت فرص أكبر، لبعض الأبرياء، للتحول إلى معسكر المجرمين.

لابد من وضع التهديد الإرهابى فى إطار الصحيح المضبوط. فالإرهاب ليس



جديداً: فقد كان ظاهرة واضحة جداً فى روسيا، فى القرن التاسع عشر: حيث كان له تأثيره الملحوظ على طبيعة النظام القيصرى، من ناحية تبرير الحكم الديكتاتورى، ومن ناحية تغذية وتنشيط مهام البوليس السرى. بل حتى عهد قريب جداً، دخلت دول أوروبية عديدة، إيطاليا وألمانيا وبريطانيا، فى مواجهات عنيفة مع عصابات إرهابية: استنفدت منها عشر سنوات أو أكثر، لاجتثاث تلك العصابات من جذورها. وبالرغم من ذلك، فلم تعش هذه الدول تحت أسطورة الإرهاب. نحن لا ننكر أن عملية اختطاف الطائرات من أجل استخدامها فى هجمات انتحارية.. نحن لا ننكر أن هذا أمر جديد علينا؛ مثلما لا ننكر أن إمكانية امتلاك الإرهابيين لأسلحة الدمار الشامل، أمر لم يرد علينا من قبل: إلا أنه ليس من الصواب السماح لهذه الأخطار بالسيطرة على وجودنا، وعلى حياتنا. إن تهويلها لن يزد حياتنا إلا سوءاً وضنكاً. فهل من المعقول، أن يستولى الذعر والخوف، بهذا الحد، على أقوى دولة فى العالم؟! إن وضع «الحرب على الإرهاب» فى قلب استراتيجيتنا القومية، هو التخلى بعينه عن مسئوليتنا كدولة قائدة للعالم. وفوق ذلك، فإن سماحنا للإرهاب بأن يكون شاغلنا الأكبر، سيجعلنا، فى النهاية، دمية أو لعبة فى أيدى الإرهابيين.. سيصيرون هم الذى يضعون أولوياتنا.

وقد نشر مجلس العلاقات الخارجية مؤخراً ثلاثة بدائل لاستراتيجية الأمن القومى. أما البديل الأول، فيدعو إلى تمكين الهيمنة الأمريكية من خلال مذهب بوش الذى يأمر بالممارسة العسكرية الوقائية؛ وهو بديل يؤيده المحافظون الجدد. وأما الثانى، فيسعى وراء الاستمرار فى السياسة السابقة للردع والاحتواء؛ وهو الذى يؤيده كولين باول وغيره من المعتدلين، سواء من الحزب الجمهورى أو الديمقراطى. وأما الأخير، فهو يدعو إلى قيادة الولايات المتحدة لجهود تعاونية من أجل تحسين أحوال العالم، من خلال الانصراف إلى الممارسات الاحتياطية والاحترازية. والبديل الأخير، لا تؤيده أى جماعة ذات أهمية؛ ولكنه البديل الذى أؤيده وأقف وراءه.

وقد أظهرت التجربة الخطورة المفرطة للبديل الأول؛ أما البديل الثانى، فأعتقد أنه لم يعد صالحاً للتطبيق. لقد فعل بوش من الأضرار والخسائر، لوضعنا فى العالم، ما لايمكن غفرانه بسهولة: الأمر الذى لن يسمح، بالتأكيد، بإعادة وضعنا كما كان عليه فى السابق. بالإضافة إلى أن السياسات، التى كانت تطبق قبل الحادى عشر من سبتمبر، كان من الواضح أنها غير كافية للتعامل مع مشاكل وتعقيدات العولمة. تلك المشاكل والأزمات التى تحتاج إلى ممارسات جماعية؛ وهنا تكون الولايات المتحدة، بوضعها المميز، هى القادرة على قيادة تلك الجهود الجماعية. لا يمكننا أن نطلق لأنفسنا عنان التصرف، كما يحلو لنا، مثل ما أظهر الموقف العراقى، ولكن فى نفس الوقت لا يمكن لأى تعاون دولى أن يتم بدون قيادة، أو على الأقل، مشاركة الولايات المتحدة.

بالرغم من أن العولمة قد نجحت فى تحويل العالم إلى قرية صغيرة، معتمدة على بعضها البعض، إلا أن العلاقات الدولية مازالت مرتكزة على سيادة الدول. فصحيح أن ما يحدث فى داخل الدول يمكن أن يكون له بالغ الأثر على بقية العالم، إلا أن مبدأ السيادة مازال يقف سداً مانعاً تجاه التدخل فى الشئون الداخلية للدولة. ولكن كيف لنا أن نتعامل، من هذا المنطلق، مع الدولة الباطشة، والأنظمة الفاسدة؟ كيف لنا أن نتخلص من صدام ومن أمثاله؟ هذه هى المشكلة الحقيقية التى تواجهنا اليوم.

أنا اقترح استبدال مذهب بوش الذى يدعو إلى الممارسة العسكرية الوقائية، بمذهب آخر يدعو إلى الممارسة الاحتياطية الاحترازية ذات الطبيعة الإيجابية والبنائية. ومن ثم، تكون الممارسة العسكرية هى آخر الخيارات المطروحة؛ وتكون المساعدات الخارجية الأكثرة وفرة، وقوانين التجارة الأكثر عدلاً، هى أول الخيارات. أما اشتغال الولايات المتحدة فى الوقت الحالى بالشئون الأمنية أكثر من أى شىء، فهذا أمر لا غبار عليه؛ إلا أنه يجب وضعه فى إطاره الصحيح، وهو إطار الأمن الجماعى. فلا انتشار الأسلحة النووية، ولا الإرهاب الدولى ينفعان فى هذا الإطار. باختصار، إن العالم ينظر إلينا، منتظراً منا القيادة، التى وفقنا فى منحها فى الماضى. ويكفينا العلم، بأن السبب الرئيسى وراء كراهية العالم لنا اليوم، هو أننا لسنا قادرين على توفير هذه القيادة اليوم. ■



الأذكياء

فضل العقل

عن أبى عباس أنه دخل على عائشة. فقال: يا أم المؤمنين! أرأيت الرجُلَ يقل قيامه ويكثر رقاده. وآخر يكثرُ قيامه. ويقل رقاده أيهما أحب إليك؟ قالت: سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى عنه فقال: «أحسنهما عقلاً». قلت: يا رسول الله أسألك عن عبادتهما. فقال: «يا عائشة إنما يسألان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل فى الدنيا والآخرة».

وعن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول شىء خلقه الله القلم. ثم خلق النون وهى الدواة. ثم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة. ثم خلق العقل وقال: وعزتى لأكملنَّك فيمن أحببت. ولأنقصنك ممن أبغضت».

وعن ابن عباس قال: لما خلق الله العقل قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل. قال وعزتى ما خلقت خلقًا قط أحسن منك. فبك أعطى. وبك آخذ. وبك أعاقب».

وقال وهب بن منبه (مؤرخ إسلامى توفى ١١٤ هجرية): إنى وجدت فى بعض ما أنزل الله على أنبيائه أن الشيطان لم يكابد شيئًا أشد عليه من مؤمن عاقل، وأنه يكابد مائة جاهل فيستجرهم حتى يركب رقابهم، فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيتصعب عليه حتى لا ينال منه شيئًا من حاجته.

وقال وهب: لإزالة الجبل صخرة صخرة، وحجرًا حجرًا أيسر على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل، لأنه إذا كان مؤمنًا عاقلاً، ذا بصيرة، فهو أثقل على الشيطان من الجبال. وأصعب من الحديد.



(فى أجهزة الحكومة علينا أن نتحرز من تأثير سطوة التحالف العسكرى الصناعى غير المشروعة، سواء سعينا أم لم نسع إليها «إن إمكانية التعاظم المشئوم لسلطة وضعت فى غير موضعها قائم وسوف يستمر. و ينبغى علينا ألا ندع عبء هذا التحالف يعرض مسيرة حرياتنا وديمقراطيتنا للخطر أبدًا. يجب ألا نقبل بأى شىء كأمرمسلم به).

دوايت أيزنهاور ١٩٦١

■ إن الهيمنة العسكرية الدائمة على العالم عملية مكلفة «فى سبتمبر الماضى، بعد إنفاق ٧٩ بليون دولار فى العراق وأفغانستان، طلب جورج دبليو بوش من الكونجرس ٨٧ بليون دولار إضافية من أجل إدامة المجهود لمدة سنتين أخريين. وفى خلال ساعات أقر البيت الأبيض بأن هذا الرقم هو تقدير أقل من المطلوب. وقد قال بول بريمر رئيس سلطة

وهكذا فإنه بالنسبة لشركات المقاولات الخاصة التى يتعاظم دورها فى تشكيل البنى التحتية لقواتنا المسلحة، فقد انهالت عليهم الفوائد من المصائب.

خلال حرب العراق الأولى فى ١٩٩١، كان واحد من كل مائة جندى أمريكى موظفًا من قبل شركة خاصة. فى حرب العراق الثانية اقتربت النسبة إلى واحد من كل عشرة وقد نشرت الواشنطن بوست تقريرا بأن ثلث نفقات حرب العراق الآخذة فى الزيادة سريعا تذهب إلى حسابات خاصة فى البنوك الأمريكية.

كانت الفكرة الأصلية من هذا التدفق للدولارات الفيدرالية هى توفير الأموال. ففى رؤية دونالد رامسفيلد، سوف تعكس خصخصة الجيش نفس انضباط السوق على الحرب نفسها فى ١٩٩٥ وقبل عودته إلى واشنطن بوقت طويل، قدم رامسفيلد إلى أمريكا (أفكارا من عالم المال حول تقليص دور الحكومات) وهى دراسة أوحت بها خبرته كرئيس موظفى البيت الأبيض ووزير للدفاع (فى إدارة جيرالد فورد) ورئيس



الاحتلال المؤقتة فى العراق إنه (من المستحيل تقريبا المبالغة) فى تكاليف إعادة إعمار تلك الأمة. ومن المحتمل أن يصل إجمالى النفقات العسكرية للسنة القادمة نصف تريليون دولار وهو أكثر مما أنفق فى ١٩٦٨ إبان ذروة حرب فيتنام.

ورغم اعتقاد الكثير من المتكهنين الحالمين فى الإدارة الأمريكية بأن حرب العراق لن تكون أكثر من نزهة، لكن بوش نفسه كان حذرًا على الدوام فى وصف رؤيته للالتزامات العسكرية الأمريكية. وكان قد أطلق على العراق وصف (الجبهة المركزية) فى (حرب مختلفة تشن فى جبهات عديدة فى أماكن كثيرة) وبهذا المعنى رفض أن يقدر متى قد تنتهى هذه الحرب الممتدة أو ما هو معيار النصر. لكنه أعلن بدلاً من ذلك أن المعركة ستكون (طويلة) وستتطلب (التضحيات) من الشعب الأمريكى. وباختصار ألزم البيت الأبيض الشعب الأمريكى بتمويل حرب أبدية مكلفة على جبهات عدة فى العراق وأفغانستان وبلدان أخرى سوف يعلن عنها فى حينها وحتى أولئك القلة من السياسيين الذين عارضوا غزو العراق يجادلون الآن بأننا يجب أن (نتم العمل) لقد أنجزنا الفعل ويجب أن نصرف المال الآن.

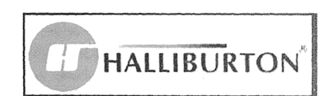
ترجمة: بثينة الناصرى
عن مجلة هاربرز الأمريكية

مجلس إدارة لشركتين أمريكيتين عملاقتين (جنرال انسترومينت كورب وجى دى سيرل) وقد كتب فى دراسته يقول (إن برامج الحكومة معزولة بشكل كبيرعن اهتزاز السوق ولهذا لايسمح لها بإمكانية الفشل. وأحيانا لاشىء أقل من خصخصة صريحة يمكن أن تعيد الانضباط).



والآن تتحقق رؤية رامسفيلد للحرب المخصخصة وتمتحن. واعتمادا على مدى استعداد الشعب الأمريكى للتضحية، فإن إمكانية المكاسب الخاصة فى صناعة الحرب فى الولايات المتحدة، يستحيل تقريبا، إذا استعرنا التعبير، المبالغة بها لقد كانت الحرب مثل منجم ذهب مثلا لهاليبرتون، شركة الطاقة، وبيكتل مقاول البناء رقم واحد فى الولايات المتحدة الأمريكية. وكان ديك تشينى رئيس مجلس إدارة بكتل من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٠ وكان وجورج شولتز رئيس بيكتل لمدة ثمانى سنوات قبل أن يصبح وزير الخارجية فى إدارة ريجان وفى مارس الماضى، منح فيلق المهندسين فى الجيش الأمريكى عقدا بمبلغ ٧ بلايين دولار لشركة كيوج وبراون وروت













وهى فرع من شركة هاليبرتون، لتوفير كافة احتياجات الجيش الأمريكى اللوجستية وأعمال الصيانة فى العراق. وفى نفس الوقت منحت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) لشركة بيكتل عقداً مبدئياً بمبلغ ٣٤٫٦ مليون دولار لإعادة بناء مرافق توليد الطاقة الكهربائية فى العراق ومحطات الكهرباء ومرافق الماء والصرف الصحى وكذلك المطارات وسوف تطالب بيكتل الحكومة الأمريكية بنفقات تصل إلى ٦٨٠ مليون دولار لمدة ثمانية أشهر وهذه العقود المفتوحة لم ترس بمناقصة تنافسية وإنما بصفقات من الأبواب الخلفية التى تديرها إدارة بوش. ولا تخضع لأية مراقبة.

وأياً كان ما تغير أو لم يتغير بعد ١١/ ٩ فهناك شىء واحد ظل واضحاً: لقد حلت صناعة الذخائر والتربح من الحرب محل صفقات الطاقة والاتصالات التى كان من روادها شركتا انرون وورلد كوم فى أواخر التسعينيات من القرن الماضى، باعتبارها أكثر الوسائل كفاءة بالنسبة

كان يسود الاعتقاد بموالاتها للعرش البريطانى والتى كانت تتكون عادة من مرتزقة السيخ والجورك. كلمة (sepoy) مستقاة ربما من الكلمة الأوردية التى تعنى (فارس) أو (جندى)) فى ١٨٥٧، فى زمن عصيان السيبوى - والتى يسميها الهنود (حرب الاستقلال الأولى) نشرت بريطانيا ٣٠٠ ألف جندى فى الهند، كان٩٦٪ منهم من السيبوى. وتبرهن حقيقة تمردهم على بريطانيا على إمكانية أن تتحول هذه المقاربة إلى فخ.



فى عام ١٨٥٧ عندما صنع البريطانيون أحد أوائل موديلات البندقية (اينفيلد) أشيع أن الرصاص منقوع بشحم مصنوع من الدهن الحيوانى المستخلص من الأبقار والخنازير. والأبقار كما هو معروف مقدسة عند الهندوس والخنازير محرمة على المسلمين، وكان أحد خصائص

وأنيطت مهمات المدفعية بالجنود البريطانيين. وبهذه التغييرات تخلى البريطانيون عن دورهم كتجار فى الهند وتحولوا إلى محتلين غير مرغوب بهم فى أرض معادية.

لقد جرب الأمريكيون استخدام جنود مرتزقة فى فيتنام عام ١٩٦٢، أرسلوا البيريهات الخضر إلى الهضبات الجنوبية لتدريب المونتاجنارد وهم سكان جبليون يختلفون عرقياً عن الفيتناميين، وحاولوا تنظيمهم فى مجموعات دفاع مدنية غير نظامية. ويمكن القول بشكل عام أن هؤلاء قد ساهموا مساهمة ضئيلة فى جهود الحرب وكانت مواقعهم عرضة لاجتياح الفيتكونج فى أى وقت يخدم ذلك أهدافهم.

وفى أفغانستان بين ١٩٧٩ و١٩٨٩ دعمت وكالة المخابرات المركزية جماعات المجاهدين (المناضلين من أجل الحرية) بأسلحة خفيفة تقدر بأكثر من ٢ بليون دولار بضمنها منصات صواريخ (ستنجر) المضادة للطيارات ودربتهم على كيفية

عملاء وكالة المخابرات المركزية إلى أفغانستان ومعهم ملايين الدولارات لرشوة ميليشيات أمراء الحرب لإشعال الحرب الأهلية من جديد بعد أن أخمدتها طالبان. مع وعود بدعم جوى فى حربهم الجديدة. وهكذا قام أمراء الحرب بمساعدة من الولايات المتحدة بالإطاحة بحكومة طالبان وسرعان ماعادوا إلى سابق عهدهم فى الاستغلال لقد أعلنت دعاية البنتاجون الانتصار الساحق للولايات المتحدة فى أفغانستان ولكن الحقيقة أن قادة طالبان والقاعدة مازالوا أحراراً وعادت البلاد أرضاً خصبة لتفريخ الإرهابيين. وكذلك لم تكد تمر سنة واحدة على تحرير أفغانستان، حتى ازداد إنتاج الأفيون الذى يسيطر عليه أمراء الحرب حلفاء أمريكا ثمانية أضعاف من ١٨٥ إلى ٣٤٠٠ طن. وهو نصر آخر للقطاع الخاص.

شكل آخر من أشكال تجنيد المرتزقة هو تجييش وتدريب الدول التابعة للولايات المتحدة والمعتمدة عليها ويمكن تشبيه الأمر بشركة ترجع إلى فروعها

الحرب
اعتصار الأرباح من خرائب العراق!

تشالمرز جونسون

للرأسماليين لاتخام انفسهم من المعلف العام. ولهذا فإن وصف هذه الشركات بكلمة (خاصة) هى محض أيديولوجية أن صناعة الذخائر فى الولايات المتحدة اليوم لاتعتبر استثمارات خاصة بقدر ما هى اشتراكية الدولة.

فعندما تتحول القضايا السياسية إلى قضايا شركات أعمال، يحدث التغير. فالمسئولية توضع فى غير موضعها والآثار تنتشر وتتوسع وهذه الإزاحة للمسئولية لها جذور فى ظاهرة أقدم بكثير حين كانت الإمبراطوريات تسعى إلى (استخدام المرتزقة) لفرض تنفيذ إرادتها السياسية. كان لدى البريطانيين الجورك والسيخ والهنود. ولدى الفرنسيين فيلقهم الأجنبى وكان لدى الهولنديين (الأمبونيون: سكان أمبونيا إحدى جزر مولوكا فى منطقة الأنديز الهولندية) والروس قوزاقهم، واليابانيين جيوشهم الدمى من منشوريا والصين وإندونيسيا وبورما أن استبدال جيوش دولة الاحتلال بوقود المدافع المحليين وتأليب جماعة عرقية أو دينية من السكان الأصليين ضد أخرى كان دائماً الوسيلة الأسهل والأرخص لإخضاع شعب ما و(سياسة السيبوى) كانت تتضمن تدريب القوات (المحلية) من أجل الخدمة فى فرق الجيش التى يقودها ضباط بريطانيون أو فى الفرق الهندية الإمبراطورية التى

ذخائر هذه البندقية هو الحاجة إلى قضم ورقة مطوية على أحد طرفى الرصاصة قبل استخدامها .وقد انتشرت الروايات بسرعة بين السيبوى بأن البريطانيين يحاولون تحقيرهم بإجبارهم على انتهاك محرماتهم الدينية. وهكذا عندما أمر أحد الضباط البريطانيين قواته بقضم الرصاصة أطلق أحد الجنود النار عليه، وسرعان ما انفجرت ثورة جابهها البريطانيون بوحشية لامثيل لها. كان السيبوى المقبوض عليهم يلفون بجلود الخنازير أو الأبقار المدبوغة ويطلقون من فوهات المدافع . ومثل ما فعلته الإمبراطورية الرومانية عند قمع ثورة الأسبارطيين، كانت جثث الجنود الهنود المشنوقين معلقة على جانبى الطريق من كانبور إلى الله أباد. ثم انهت إنجلترا سلطات شركة شرق الهند التى كانت قد وظفت السيبوى وضباطهم، و حكمت بريطانيا البلاد مباشرة لمدة تسعين سنة كمستعمرة من مستعمرات التاج. وقد ألغيت الفرق الهندية وضم جنودها إلى تشكيلات أوسع تشمل جنوداً إنجليز.

استخدامها ضد القوات السوفيتية التى كانت تحتل البلاد حينذاك. لم يكن الأمريكيون يهتمون بالمعتقدات الدينية أو الولاءات السياسية أو وجهات النظر تجاه الغرب لأولئك الذى يوظفونهم ويدربونهم ويسلحونهم. وما أن هزم السوفييت، حتى تركت أمريكا أفغانستان إلى مصيرها وانقلب المجاهدون ومعظمهم من الأصوليين الإسلاميين ضد الولايات المتحدة. كما ساهم نشر الآلاف من القوات العسكرية الأمريكية فى السعودية وهى إحدى القبلتين فى الإسلام وكذلك دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، فى زيادة حدة رفضهم لها. وكان رد فعل المحاربين المسلمين خلال التسعينيات بمهاجمة مركز التجارة العالمى فى نيويورك عام ١٩٩٣ والأبراج السكنية للقوات الأمريكية فى السعودية عام ١٩٩٦ وسفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا عام ١٩٩٨ والمدمرة البحرية (كول) فى ٢٠٠٠. وليس بعيداً أن تكون الهجمات الانتحارية فى ١١ سبتمبر نسخة معاصرة من تمرد السيبوى.

بعد ٩/١١ أرسلت الولايات المتحدة

لاستكمال احتياجات العمالة. فمنذ ١٩٩٣ بعد التمثيل بجثة الضابط الأمريكى راندى شوجارت واستعراضه فى شوارع مقديشو عاصمة الصومال مما أدى بالرئيس كلينتون بعد أربعة أيام إلى سحب قواتنا من تلك البلاد، والبنتاجون يحاول أن يتجنب الإصابات الأمريكية التى يمكن أن تغير رأى الشعب بخططها. إن موت الجنود الأجانب لايجذب انتباه وسائل الاعلام. وهكذا فإن النية تتجه إلى إعداد جنود أجانب للقيام بعمليات مشتركة تحت قيادتنا . وكما عبر عنها الرئيس بوش فى ١١ مارس ٢٠٠٢ بقوله (لن نرسل قوات أمريكية إلى كل معركة. ولكن أمريكا سوف تعمل بهمة على إعداد الأمم الأخرى للمعارك القادمة).

وعلى وجه الخصوص ومنذ انتهاء الحرب الباردة، طور الجيش الأمريكى علاقاته مع عدد ضخم من الحكومات وفرق الضباط فى ما كان يعرف بالعالم الثالث وبذل جهودا هائلة فى برامج تدريب (جيش لجيش) . وقد توصل زعماء الحزبين السياسيين خلال التسعينيات إلى أنه يمكن رعاية الكثير من أهداف السياسة الخارجية من خلال مثل هذه العلاقات بشكل أفضل مما تنجزه الروابط الاقتصادية والدبلوماسية. وأحد البرامج لتنفيذ مثل هذه

السياسات وهو برنامج وزارة الخارجية للتعليم والتدريب العسكرى الدولى الذى تضاعف أربعة أمثاله منذ ١٩٩٤ فى ١٩٩٠ كان البرنامج يقدم تعليما عسكريا إلى جيوش ٩٦ دولة.

فى ٢٠٠٢ ارتفع هذا الرقم الكبير إلى ١٣٣ دولة. وبما أن عدد الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة هو ١٨٩، فإن هذا يعنى أن البرنامج (يعلم) جيوش ٧٠٪ من أمم العالم.

إننا ندرب تقريبًا ١٠٠٠٠٠ جندى أجنبى كل عام - معظمهم ضباط يقومون بدورهم بنقل الأساليب الأمريكية إلى قواتهم. وفى عام ٢٠٠١ علم الجيش الأمريكى ١٥٠٣٠ ضابطا وجنديا فى أمريكا اللاتينية وحدها.

ويقوم البنتاجون بذلك إما باستقدام هؤلاء المتدربين إلى أحد معاهده التعليمية البالغ عددها ١٥٠ فى الولايات المتحدة وإما بإرسال مدربين عسكريين يكونون غالبًا من القوات الخاصة إلى الدول المعنية. وقد ضاعفت (الحرب على الإرهاب) هذه البرامج وفى حالات كثيرة كانت الذريعة التى حلت محل (الحرب على المخدرات) بدون وجود أى فرق ملحوظ بأساليب التدريب وتقول الولايات المتحدة إن مثل برامج التدريب هذه تشجع القيم الأمريكية ولكن هناك فوائد أخرى أيضًا. إن العلاقة القوية بين المدربين الأمريكيين والضباط والجنود الأجانب تفتح سوقًا داخل كواليس الحكومات للولايات المتحدة لبيع الأسلحة فإن وكالة التعاون الأمنى الدفاعى التى يرأسها ضابط برتبة فريق، وهى جزء لايتجزأ من وزارة الدفاع، مسئولة عن برنامج المبيعات العسكرية الخارجية، وهو أسلوب حكومتنا المفضل لبيع معدات الدفاع الأمريكية التى تشتريها من المصانع الأمريكية إلى الحكومات الأجنبية. وقد ارتفعت قيمة مبيعات السلاح الأمريكى (من حكومة إلى حكومة) بمقدار ١٠٪ فى ٢٠٠١ فأصبحت ١٣ر٣ بليون دولار. وبهذا يكون البنتاجون أكبر مصدر مفرد للسلاح فى العالم منذ ١٩٩١، وقد صدر من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠١ من الأسلحة ماقيمته ٥٧ر٨ بليون دولار وهو ثلاثة أضعاف ماتصدره المملكة المتحدة ثانى أكبر مصدر للأسلحة فى العالم.















إن تجنيد المرتزقة مفيد ومربح أحيانا ولكن الأموال الحقيقية تأتى من العقود الحكومية. وبالتأكيد يعتبر مقاولو الجيش أكثر شركات الأعمال ربحًا فى البلاد اليوم وأكبر شركات مقاولات الجيش هى شركة فينيل كوربوريشن من فيرفاكس فى ولاية فرجينيا التى حصلت فى ٢ يوليو على عقد بقيمة ٤٨ مليون دولار لتدريب جيش عراقى جديد، وشركة الموارد المهنية العسكرية (التى تعرف أكثر باختصار حروفها (MPRI) ومقرها فى الإسكندرية بولاية فرجينيا وتملكها شركة ل-٣ كوميونيكيشن، وشركة كيلوغ وبراون وروت وهى شركة من تكساس اشتهرت قبل اندماجها مع كيلوغ بالتدعيم المالى للرئيس الأسبق ليندون جونسون وهى اليوم فرع من شركة هاليبرتون، وشركة دينكورب من مدينة ريستون فى فرجينيا التى افتضحت أواخر التسعينيات باكتشاف أن بعض موظفيها فى البوسنة تورطوا فى الاسترقاق الجنسى لقاصرات ثم التجارة بهن من خلال بيعهن إلى دول أخرى فى أوروبا، وشركة تطبيقات العلوم الدولية من سان دييجو التى كان الخمسة الكبار فيها يقبضون فى عام ٢٠٠١ رواتب تتراوح بين ٨٢٥٠٠٠ دولار و٨ر١ مليون دولار وكل منهم لديه أسهم بقيمة ٥ر١ مليون دولار. وكذلك شركة بى دى إم الدولية فى فيرفاكس ولاية فرجينيا، وشركة أرمور هولدينجز من جاكسونفيل فى فلوريدا وشركة كيوبيك ابليكيشن فى واشنطن، ودى إف آى الدولية (وكانت تسمى سابقا ديفينس فوركاست) فى واشنطن، وإنترناشنال تشارتر بولاية أوريجون.

وهذه ليست مؤسسات صغيرة. فشركة دينكورب لديها ٢٣٠٠٠ موظف وكيوبيك ٤٥٠٠ وMPRI حوالى ٧٠٠ موظف مستديم إضافة إلى ١٠٠٠٠ عسكرى متقاعد على أهبة الاستعداد لتلبية المهمات متى دعت الحاجة.

وتقدر خبيرة شركات توظيف المرتزقة ديبورا أفانت من كلية اليوت للشئون الدولية فى جامعة واشنطن بأن عوائد الشركات العسكرية الخاصة والتى بلغت بمجملها ٦ر٥٥ بليون دولار فى ١٩٩٠ سوف ترتفع إلى ٢٠٢ بليون دولار عام ٢٠١٠ وهذا يجعلها الصناعة الأسرع نموا فى الولايات المتحدة . ولهذه الشركات اسم تجارى خاص بها هو (رابطة عمليات السلام الدولية) وهو اسم كان جورج اورويل(١) سيعتز به كثيراً.

أسس شركة فينيل كوربوريشن- وهى فرع من شركة أسلحة عملاقة هى نورثروب جرومان - ضابط أمريكى متقاعد ومنذ ١٩٧٥تعاقدت معها الحكومة لتدريب الحرس الوطنى السعودى، المتكون من ١٠٠٠٠٠ جندى لحماية الملكية ولمواجهة أى تهديد محتمل من القوات المسلحة النظامية. فى ١٢ مايو الماضى فجر إرهابيو القاعدة ثلاثة مجمعات سكنية عسكرية فى الرياض بالمملكة العربية السعودية مما أوقع أربعة وثلاثين قتيلا بضمنهم ثمانية أمريكيين. وكان أحد الأهداف الرئيسية هو المبنى الذى يشغله حوالى سبعين من موظفى شركة فينيل وقد قامت شركة فينيل على مدى السنوات بتعليم وإدارة وتوظيف وكتابة القواعد لخمسة أكاديميات عسكرية سعودية وسبعة ميادين للرمى ونظام رعاية صحية حكومى كما دربت وجهزت أربع فرق ميكانيكية سعودية وخمس فرق مدفعية . وبالمقابل فقد دفعت السعودية مئات الملايين من الدولارات لشركات الدفاع الرئيسية لتجهيز هذه القوات التى دخلت أرض المعركة فى حرب الخليج الأولى لفترة قصيرة حين استعادت مدينة الخفجى السعودية الواقعة على الحدود الكويتية من القوات العراقية.

وقد تعاقدت الحكومة الأمريكية مع شركة دينكورب لتقديم حماية شخصية لرئيس أفغانستان حامد قرضاى وسوف تتولى تدريب الجيش الأفغانى حالما يترك أصحاب البريهات الخضراء البلاد. كما دربت دينكورب الشرطة فى هايتى بعد التدخل العسكرى الأمريكى هناك فى ١٩٩٤. وهذا العام فازت بعقد سخى لإنشاء قوة شرطة عراقية وإقامة نظام قضائى وإدارة السجون. وهذا العقد الذى تقدر قيمته للسنة الأولى بمبلغ ٥٠ مليون دولار كان واحداً من سلسلة عقود استثناها البنتاجون من الاشتراطات الرسمية الاعتيادية بوجود منافسة كاملة ومفتوحة/ و تشمل عمليات دينكورب الأخرى إدارة القوة الجوية بكاملها التى تتكون من أسطول واحد من الطيارات والمروحيات الرئاسية وكذلك الرش الجوى لمحاصيل المخدرات فى كولومبيا.

وبحلول عام ٢٠٠٢ كانت الشركة على المرتبة الثالثة عشرة لأكبر مقاولى الجيش وتبلغ عوائدها السنوية ٣ر٢ بليون دولار، ٩٦٪ منها عن طريق العقود والمقاولات من الباطن مع حكومة الولايات المتحدة.



خلال أعوام التسعينيات بدأ البنتاجون يتعاقد مع الشركات الخاصة لتوفير كل خدمة يمكن تخيلها فى الجيش ماعدا إطلاق البنادق وإسقاط القنابل. ونتيجة لذلك انبثقت شركات كثيرة جديدة يحدوها الأمل فى الحصول على عقود بمبالغ كبيرة وأرباح مضمونة. وقد قامت هذه الشركات بأعمال الصيانة والأمن وبالتالى، فقد ولت أيام قيام الجندى بواجبات الحراسة أو تنظيف المراحيض إلى غير رجعة.

وأفضل مثال على هذا هو معسكر بوندستيل الفاخر فى البلقان الذى تديره شركة كيلوج وبراون وروت. وحدث أنه فور انتهاء حملة قصف يوغسلافيا فى يونيو ١٩٩٩ انتزعت الولايات المتحدة من الملاك ألف هكتار من الأرض الزراعية فى يوروسيفاك فى جنوب شرق كوسوفو قرب الحدود المقدونية وأقامت عليها فى أقل من أربعة شهور معسكر بوندستيل وهو أكبر وأغلى قاعدة منذ حرب فيتنام حيث بلغت تكاليف بنائها حوالى ٦ر٣٦ مليون دولار و تكاليف إدارتها ١٨٠ مليون دولار سنويا.

وتقوم شركة كيلوغ وبراون وروت بصيانة الثكنات و إعداد الطعام ومسح الأرض ونقل كل التجهيزات وتشغيل أنظمة الماء والصرف الصحى. يعمل

لديها حوالى ١٠٠٠ عسكرى أمريكى سابق وحوالى ٧٠٠٠ من الألبان سكان المنطقة. وتوفر الشركة ٦٠٠٠٠٠ جالون ماء كل يوم وكهرباء يكفى مدينة من ٢٥٠٠٠ نسمة وتغسل ١٢٠٠ حقيبة ملابس وتطبخ وتقدم ١٨٠٠٠ وجبة طعام كل يوم. وكان المعسكر مكتظا إلى درجة أن الشركة كانت تنظف المكاتب ٤ مرات باليوم والثكنات ثلاث مرات(٢) ويقول الجنود العاملون فى بوندستيل على سبيل الفكاهة إن الزى الذى يرتدونه ينقصه باج واحد يقول (برعاية براون وروت) وتقدم الشركة خدمات مماثلة فى القواعد بالكويت وتركيا وأوزبكستان.

ويبدو أن معسكر بوندستيل هو قاعدة لما سماه جيمس جالبريث أستاذ العلوم السياسية فى جامعة تكساس (مجمع البترول العسكرى) الذى يعتبر ديك تشينى الأب الروحى له، فقد كان وزير دفاع عندما بدأت شركة براون وروت تقديم خدماتها اللوجستية للجيش كانت تلك فكرته. وفى عام ١٩٩٢ دفع البنتاجون للشركة ٣ر٩ مليون دولار للقيام بدراسة جدوى سرية حول تجنيد مرتزقة من أجل تقليل اعتماد الجيش على القوات فى إنجاز المهام اللوجستية الأساسية ثم أضاف البنتاجون بعد ذلك ٥ ملايين دولار إلى العقد ثم اختبر الشركة ذاتها لتنفيذ خطتها التى اقترحتها. والعقد لوجستى صادر من فرقة المهندسين فى الجيش ومدته خمس سنوات للعمل إلى جانب القوات فى أماكن مثل زائير وهايتى والصومال وكوسوفو والبلقان والعربية السعودية بعد أن أصبح تشينى رئيس هاليبرتون فى ١٩٩٥ فازت براون وروت بعقود من الحكومة قيمتها ٢ر٣ بليون دولار وهى ضعف مبلغ ٢ر١ بليون دولار التى نالتها من عقود الحكومة فى السنوات الخمس التى سبقت مجىء تشينى فى أواخر التسعينيات أعادت هاليبرتون بناء حقول النفط المتضررة من الحرب مقابل ٨ر٢٣ مليون دولار، وهى الحقول التى كان وجود تشينى وزير الدفاع أثناء حرب الخليج الأولى، حاسما فى تدميرها!

وقد عين تشينى معه فى هاليبرتون العديد من رفاقه أيام البنتاجون منهم ديف جريبن رئيس الإدارة السابق الذى أصبح واحداً من الكبار فى هاليبرتون والأدميرال جو لوبيز وهو آمر سابق للأسطول السادس وشغل منصب نائب رئيس أقدم للعمليات الحكومية فى شركة كيلوج وبراون وروت. وخلال إشغال تشينى منصب رئيس هاليبرتون صعدت الشركة من الترتيب الثالث والسبعين على قائمة العقود الحكومية فى البنتاجون إلى المرتبة الثامنة عشرة مع زيادة فى عقودها الحكومية بمقدار ٩١٪ فى أثناء ذلك زاد عدد فروع هاليبرتون فى الملاذ الآمن من الضرائب فى الخارج من تسعة فروع إلى أربعة وأربعين. وبدلا من أن تدفع الشركة ضرائب قد تصل إلى ٣٠٢ مليون دولار كما حدث فى ١٩٩٨، إلى أن تسترجع قيمة خصومات فى الضرائب تبلغ ٨٥ مليون دولار فى ١٩٩٩، وقد استقال تشينى من الشركة فى ١٦ أغسطس ٢٠٠٠ ليشغل منصب نائب الرئيس ولكن ارتباطاته لم تنته هنا، فطبقا للبيت الأبيض كان إجمالى دخل تشينى المعدل لعام ٢٠٠٠ هو ٣٦٠٨٦٦٣٥ دولاراً وتشمل ٤٣٣٣٥٠٠ دولار بشكل علاوات وتعويضات من هاليبرتون وبطبيعة الحال أن بيان الإقرار المالى لديك تشينى لم يكن دخله الحقيقى ولكنه مجرد بيان صحفى من البيت الأبيض. وبصفته نائب الرئيس استمر تشينى يستلم دفعات حساب من هاليبرتون بزيادة ١٥٠٠٠٠ دولار سنوية بشكل تعويضات.

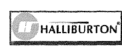


ربما يصعب علينا الآن أن نتذكر أنه فى عشية الحرب العالمية الثانية كان جيشنا النظامى مجرد ١٨٧٠٠٠ رجل الآن هناك ١٤٠٠٠٠٠ عسكرى لخدمات (حفظ السلام) التى تمولها ميزانية دفاع أكبر من بقية الميزانيات القومية الأخرى وتتشكل هذه الخدمات من رجال ونساء يعملون فى عوالم قواعد منعزلة ومكتفية ذاتياً ترتبط ببعضها البعض من جرينلاند إلى أستراليا. لقد جمع البنتاجون ربع مليون جندى ضد العراق فى حين أن هناك بضعة آلاف جندى ينهمكون فى مناوشات يومية فى أفغانستان، وما لا يحصى من أفراد البحرية يملأون سفنا قرب شواطىء كوريا الشمالية، وبضعة ألوف من المارينز فى جنوب الفلبين يساعدون القوات المحلية فى محاربة حركة انفصالية إسلامية تمتد جذورها إلى قرن من الزمان، وعدة مئات من (المستشارين) يتعاملون مع ما يمكن أن يكون يوماً ما شبيها بعصيان فيتنام، فى كولومبيا (وربما فى أماكن أخرى من منطقة الأنديز) لدينا وجود عسكرى فى ١٢٠ دولة من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة البالغ عددها ١٨٩ بضمنها قوات منتشرة على نطاق واسع فى خمس وعشرين دولة. لدينا معاهدات عسكرية أو ترتيبات أمنية ملزمة مع ست وثلاثين دولة على الأقل.

كل هذا يكلف أموالاً هائلة فى وقت تعانى فيه الولايات المتحدة من عجز فى الميزانية لقد كلفت حرب الخليج الاولى حوالى ٦١ بليون دولار دفع حلفاء أمريكا مثل السعودية والكويت والإمارات وألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية حوالى ٥٣ بليون دولار منها، أى ما يوازى ٨٠٪ من المبلغ الكلى تاركين للولايات المتحدة المساهمة بجزء ضئيل هو ٧ بلايين دولار. وقد دفعت اليابان وحدها مبلغ ١٣ بليون دولار ولكن هذا لن يتكرر مرة أخرى. فى الواقع يبدو أن العالم بأجمعه قد اتفق على أنه إذا أرادت القوة العظمى الوحيدة الآن، أن تتابع حروبها الوقائية فعليها أن تتدبر حالها. لقد كشف مكتب الميزانية التابع للكونجرس أن العجز الفيدرالى للعام القادم سيصل إلى ٤٨٠ بليون دولار، وهذا يعنى تضخماً بمبلغ ٤ر١ تريليون دولار خلال عشر سنوات، علاوة على دين حكومى موجود فعلا فى فبراير ٢٠٠٣ بمبلغ ٤ر٦ تريليون دولار.

بيزنس الحرب













إذن لايمكن القول إن قواتنا المسلحة منتشرة إلى أبعد من طاقتها فحسب وإنما نحن نغرق أيضا فى الديون من أجل تمويل هذا الانتشار، ومع هذا فالأموال تستمر فى التدفق. وطبقا لتوقعات البيت الأبيض وهى عادة منخفضة، تتوقع إدارة بوش إذا أعيد انتخابها أن تنفق مبلغ ٢ر٣ تريليون دولار على الدفاع فى فترتيها - وذلك حوالى نصف تريليون أكثر مما فعلته إدارة كلينتون فى فترتيها وبالمقارنة انفقت الولايات المتحدة مبلغ ٣ر١ تريليون دولار على الدفاع مابين الاعوام ١٩٤١ و ١٩٤٨ وبلغة الدولارات فإن (الحرب على الإرهاب) سوف تكلف أكثر مما كلفته الحرب العالمية الثانية.

ولكن ليس لهذا علاقة بالاستثمارات الخاصة أو أياً ما كان اسمها فبدون (اهتزاز السوق) لايبقى سوى الأرباح. إن شركة لوكهيد مارتن وهى أكبر صانع للذخائر لعبت دوراً مهماً خلف الكواليس فى حشد الدعم لحرب بوش على العراق. فى ٢٠٠٢ أصبح نائب الرئيس السابق بروس جاكسون رئيس مجلس إدارة منظمة لوبى (خاصة) باسم (لجنة تحرير العراق). تضم من الأعضاء جورج شولتز وجون ماكين. فى السنة المالية ٢٠٠٢ استلمت لوكهيد مارتن مبلغ ١٧ بليون دولار بشكل عقود من البنتاجون - وكانت قد حصلت على ٧ر١٤ بليون دولار عام ٢٠٠١ - وحوالى ٢ بليون دولار من الإدارة الهندسية فى الجيش لتصميم أسلحة ذرية. وفى السنة السابقة للحرب ارتفعت أرباح الشركة بنسبة ٣٦ بالمائة.

هذا هو المستقبل: حين تصبح الحرب أكثر الأعمال ربحاً، علينا أن نتوقع المزيد منها. ■

الهوامش

(*) تشالمرز جونسون مؤلف كتاب (رد الضربة blowback) كتابه القادم (أحزان إمبراطورية) يتوقع صدوره فى يناير عن دار متروبوليتان.

(١) جورج أورويل، الكاتب البريطانى مؤلف رواية (١٩٨٤) التى تتنبأ بعالم خيالى تسوده دولة واحدة تفرض فكراً واحداً وتراقب كل فرد فيها، ويرى فيها الكثيرون تشابها لما وصلت عليه الولايات المتحدة (وجهات نظر)

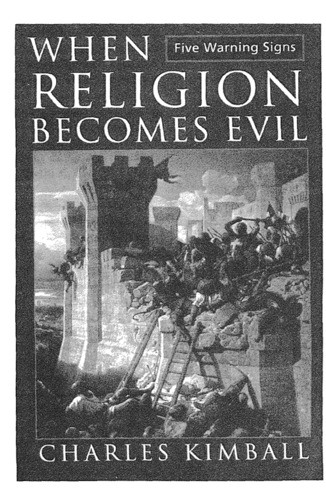
(٢) فى الواقع أن مسألة تنظيف الثكنات أكثر من مرة فى اليوم كانت مثالاً على احتيال الشركة فى المبالغة بالمبالغ المصروفة على الخدمات كما أثبته التحقيق الذى أجراه مكتب المحاسبة العامة، وهى هيئة رقابية للكونجرس فى عامى ١٩٩٧ و٢٠٠٠ حول تلاعب هذه الشركة فى عقود مع الجيش الأمريكى للعمليّات فى البلقان (وجهات نظر).

عبد العليم الأبيض

أيديولوجيا الدِّين



العلامات الخمس عندما تطل برأسها القبيح تكون نذيراً بحدوث المتاعب والاضطراب، وتكون جرساً يدق بأن الدين قد اعتراه التشويه والإفساد. إذ ثمة نزعات قوية نحو التشويه نشهدها فى كل الأديان الكبرى ولا تخلو ديانة منها



في بحث مطول نشرته مجلة «الأطلانتيك الشهرية» التى تصدر فى مدينة بوسطون الأمريكية، وهى من المجلات الثقافية المحترمة عن حالة المسيحية اليوم، يذهب فيليب جنكنز أستاذ الدراسات الدينية المرموق إلى أن المسيحية الآن فى مفترق الطرق، وأننا بصدد تطورات مذهبية داخل الدين المسيحى سوف يكون لها أثرها العميق والبعيد عن القرن الواحد والعشرين، وتذكرنا بحركة الإصلاح الدينى التى أطلقها مارتن لوثر عندما ذهب إلى الفاتيكان فى روما وقدم أطروحاته التسع والتسعين حول الإصلاح الدينى وهى الحركة التى غيرت تاريخ الكنيسة، بل وتاريخ الفكر فى العالم. إذ حررت حركة الإصلاح الدينى القيود التى تلجم الفكر البشرى الجامد الذى ساد العصور الوسطى.

ما يود أن يقوله البروفيسور جنكنز هو أنه حدث شرخ كبير داخل المسيحية لا ينتبه إليه الكثيرون. المسيحية اليوم تنمو نمواً متسارعاً وتغير شكلها فيما يشبه الطفرات! إذ ينتقل مركز الثقل فى الدين المسيحى من أوروبا وأمريكا الشمالية إلى أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، أى إلى الجنوب. لا من ناحية الثقل العددى فقط، بل، وهو الأخطر، من الناحية المذهبية. إننا نشهد حركة دينية كبرى كحركة مارتن لوثر، ولكن يمكن أن نصفها هذه المرة بأنها حركة إحياء دينى مضادة لحركة لوثر. إن ما يحدث الآن هو إحلال الدين محل الأيديولوجيا كقوة دافعة ومدمرة فى شئون البشر وسوف تحدث أثرها فيما يتعلق بمفاهيم الحرية السياسية وأيضاً فى نشوب الصراعات الدينية داخل المسيحية ذاتها وخارجها. إنها تأتى عكس ما ذهب إليه صامويل هنتنجتن فى كتابه صراع الحضارات فالصراع سوف يكون صراعاً بين أديان!

ولقد لاحظ بعض الكتاب والمفكرين العرب نفس الظاهرة فيما يتعلق بالإسلام، فنحن نشهد صراعاً فى الساحة الإسلامية بين إسلاميين وإسلاميين على نحو ما نشهد فى الجزائر والسعودية ومناطق أخرى كثيرة داخل العالم الإسلامى. ذلك يأتى بنا إلى الكتاب الذى نعرضه هنا تحت عنوان «عندما يصبح الدين شراً» لتشارلز كمبال، وهو أيضاً أستاذ دراسات دينية مقارنة وكاتب ذائع الصيت. وتقلد كمبال مناصب عديدة فى المنظمات المسيحية الأمريكية الليبرالية أو المعتدلة فقد كان مديراً لمكتب الشرق الأوسط فى منظمة مجلس الكنائس القومى فى الولايات المتحدة، وهى من المنظمات التى تؤمن بالسلام وتعميق الحوار بين الأديان. وللمجلس مواقف مشهودة فى تأييد السلام العادل فى الشرق الأوسط. أما كمبال ذاته فله مواقف ناصعة فى انتقاد السياسات الإسرائيلية الاستيطانية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة. وكذلك فى انتقاد التيار المسيحى المحافظ ومحاولات التشويه لدين عظيم هو الإسلام الذى توفر المؤلف على دراسته فى جامعة هارفارد.

When Religion becomes Evil
عندما يصبح الدين شرا
Charles Kimball
Harper San Francisco, 2002.



يتناول كتاب «عندما يصبح الدين شراً»، فى الأساس خمس علامات تحذيرية لتحول الدين عن غرضه فى الهداية والسلام إلى مقاصد شريرة مدمرة على أيدى المتطرفين من كل الأديان والمذاهب وعلى أيدى التحريفيين والانتقائيين. هذه العلامات الخمس عندما تطل برأسها القبيح تكون نذيراً بحدوث المتاعب والاضطراب، وتكون جرساً يدق بأن الدين قد اعتراه التشويه والإفساد. إذ ثمة نزعات قوية نحو التشويه نشهدها فى كل الأديان الكبرى ولا تخلو ديانة منها. ولكن علاج هذه الظاهرة موجود فى كل الأديان فى الإسلام كما فى المسيحية وهما الديانتان اللتان يركز عليهما المؤلف فى دراسته العميقة والموضوعية إلى أبعد حد يمكن أن تكون عليه الموضوعية. إذن، فما هى هذه العلامات؟ العلامة الأولى هى مزاعم امتلاك الحقيقة المطلقة، والعلامة الثانية هى الطاعة العمياء الجاهلة لمذهب أو زعيم دون تدبر ودون إعمال العقل، والعلامة الثالثة هى الزعم بأن هناك وقتاً ملائماً يحدد نهاية العالم أو الانطلاق لتحقيق أهداف أبعد ما تكون عن الدين. أما العلامة الرابعة فهى مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، ثم أخيراً إعلان الحرب المقدسة.

وكما سلف فإن دراسة كمبال تشمل جميع الأديان ولكن هناك تركيزاً أساسياً

... إلـــى تـــدمـــيـــره!!!

على المسيحية والإسلام.. أولاً: لأن اتباع الديانتين يشملون نصف العالم تقريباً، وثانياً: لأنهما يتميزان بعالمية الرسالة والاستعداد للتفاعل مع النظم السياسية على نحو أكبر من أى دين آخر. ويدخل الصراع الفلسطينى.الإسرائيلى فى هذا الاشتباك السياسى لكل من الإسلام والمسيحية واليهودية. ثم إن الإسلام والمسيحية يمتلكان نزعات تبشيرية قوية، تنجح هذه النزعات فى بعض الأحيان فى استبعاد الآخر.

إن نزعات الشر فيما بين المجتمعات الدينية تقدم علامات إنذار تأخذ شكل الأفعال والمواقف التى سرعان ما تتحول إلى سلوك مدمر يشوه الدين ويحوله عن مقصده فى السعى إلى الخير واحترام الغير.

إن الأديان قد تختلف فيما بينها فى الطقوس والشعائر إلا أنها جميعاً تسعى إلى الله والحياة الروحية ودعم علاقات الرحمة والعلاقات البناءة فيما بين البشر. والآن نتعرض للعلامات الخمس.

مزاعم احتكار الحقيقة المطلقة

لكى نتعرف على كيف يشوه الدين يتعين علينا أن نشرع فى فهم موقف الدين من الحقيقة. فى كل دين. يقول لنا المؤلف، تشكل دعاوى امتلاك الحقيقة الأساس الذى تقوم عليه هذه الأديان. ولا غبار على ذلك، ولكن عندما تتحول هذه الدعاوى إلى نظريات جامدة متحجرة ومتكلسة تحول دون التفاعل الإنسانى فهنا تسنح الفرصة لتشويه الدين. لقد أدت الاختلافات فى التفسير إلى انقسامات كثيرة فى الدين الإسلامى نعرفها جميعاً ولا يمارى فيها أحد. وكما هو الحال فى كل الأديان، فإن المسيحية التى بدأت فى بيئة متواضعة فى فلسطين منذ حوالى ألفى عام تحتضن الآن آلاف الطوائف حول العالم. وتظهر المشكلة عندما تصر طائفة على أن تفسيرها وحده هو الحقيقة وما عداه باطل وبهتان.

وعندما تتحور هذه الدعاوى إلى حقائق مطلقة فإنها تفتح الباب لدخول الشر وتشويه الدين. ومثل هذه التفسيرات غالباً ما تؤدى إلى العنف وتبريره.

الأمثلة على ذلك كثيرة. وهنا يسوق الأمثلة دعماً لما يذهب إليه نذكر بعضها فقط إذ أن القائمة طويلة. لقد قرأنا جميعاً حكاية مايكل جريفث الأصولى الأمريكى المسيحى الذى اغتال دكتور النساء دايفيد جن لممارسته الإجهاض القانونى عام ١٩٩٢. والأنكى من ذلك، أن رجل الدين بول هيل انبرى يدافع عن هذه الجريمة فى وسائل الإعلام. ثم قاده تعصبه الأعمى إلى قيام هيل نفسه باغتيال دكتور آخر. واتضح أن هيل ينتمى إلى منظمة أصولية متطرفة تدعى «جيش الله» وهذه الطائفة تبرر جرائمها بالاستشهاد بفقرات فى الإنجيل أخرجت عن سياقها ومقصدها.

على نفس المنوال يتشابه أسامة بن لادن زعيم منظمة «القاعدة» وجيرى فالويل زعيم منظمة «المسيحيون المولودون من جديد» وبات روبرتسون مؤسس منظمة «التحالف المسيحى» لقد فسر بن لادن تدمير مركز التجارة العالمى والبنتاجون بأنه علامة من الله على تأييد فعلته. ويبدو أن جيرى فالويل قد وافقه على ذلك، فقد ذكر فالويل أن هذا الحادث المريع هو أسلوب الله فى التعبير عن عدم رضائه عن ممارسة الإجهاض والوثنيين وأنصار المرأة واللواطيين والسحاقيات.



إن هذا التفسير الدينى يناقض قيم الإسلام فيما يتعلق بالحقيقة، فالإسلام يبدأ بوحدانية الله المطلقة، غير أن المسلمين يظهرون مرونة كبيرة فى سعيهم إلى معرفة كنه الله سبحانه وتعالى. فالبشر قاصرون كل القصور عن إدراك كل الحقيقة الإلهية. وفى هذا الجزء من الكتاب يوجه المؤلف نقداً شديداً إلى بعض زعماء الدين المسيحى من المتشددين الأصوليين، أو ما يطلق عليهم «اليمين المسيحى». وهم المقابل الموضوعى للمتطرفين الأصوليين من كل ملة. إن تطرف جيرى فالويل وبات روبرتسون وغيرهما كان وراء زعمهم بأن الله ليس هو الرب، أى God باللغة الإنجليزية. وهم يبنون أباطيلهم على فقرات من العهد الجديد من إنجيل يوحنا الذى يتحدث فيه الرسول يوحنا عن علاقة المسيح عليه السلام الفريدة بالرب. وهنا يقول المؤلف:

«إن النصوص المقدسة توفر مصدراً ثرياً للحكمة والهداية وسط تقلبات الحياة. ومثل النصوص المقدسة كمثل كل الأشياء القوية، إذ يمكن إساءة استخدامها من خلال نوع من تقديس الكل ومن خلال القراءة والتفسيرات المنتقاة.. والصحف والإذاعات اليومية تزخر بأمثلة من رجال الدين والسياسة يقتبسون القرآن أو الإنجيل دعما لسياساتهم.. كما أنها أداة سهلة وقوية الحجة للترويج لأجندة خاصة أو قضية. أو كما يقول شكسبير:

«إن بوسع الشيطان نفسه الاستعانة بالنص المقدس لتحقيق مآربه».

ومن ثم يذكرنا المؤلف. بأن الأعمال الانتحارية باسم الإسلام هى مثال لهذه الظاهرة. وقد رأينا ذلك إبان الحرب الأهلية فى لبنان كما شهدناه فى تدمير مركز التجارة العالمى. إذ أن دعاوى امتلاك الحقيقة المطلقة إنما يستخدم لاستنفار المتطوعين للمهمات الانتحارية من خلال وعدهم بدخول الجنة مباشرة.

الطاعة العمياء

الطاعة العمياء هى العلامة الثانية التى من خلالها يشوه ويفسد الدين، ويتحول إلى أداة قتل ومجازر. وللتدليل على ذلك يذكرنا المؤلف بقصة اليابانى أساهارا شوكو مؤسس وزعيم طائفة «أوم شيرنيكيو» الذى أطلق أتباعه لنشر غاز «السارين» شديد السمومية فى مترو أنفاق طوكيو وراح ضحية هذا الحادث ١٢ قتيلاً وإصابة أكثر من خمسة آلاف شخص.. وعندما تحركت الشرطة اليابانية وحققت فى الموضوع اكتشفت أن أعضاء هذه الطائفة يبلغون عشرة آلاف موزعين على ٢٥ مركزاً علاوة على ٣٠ ألفاً من الأتباع الروس. وكان جوهر هذه الطائفة حوالى ٢٠٠٠ مريد يطيعون زعيمهم طاعة عمياء. وعندما قبض على شوكو وجدت فى حوزته قضبان ذهبية وأسلحة كثيرة. كما كشف التحقيق عن جرائم أخرى عديدة ارتكبتها هذه الطائفة. والمغزى هو أن الطاعة العمياء تلغى التفكير فالحقيقة المطلقة لمريدى «أساهارا شوكو» هى تعاليمه ولا شىء غير ذلك.

المثال الآخر الرهيب الذى يسوقه المؤلف هو قصة جيم جونز الأمريكى مؤسس طائفة «معبد الشعب». دفع جيم جونز أتباعه فى المستعمرة التى أسسها فى غابات جيانا إلى تناول سم «السيانيد» فى عملية من أبشع عمليات الانتحار الجماعى. كان جيم جونز واسمه بالكامل هو جيمس وارن جونز من أتباع الكنيسة البنتاكوستاليه وهى كنيسة أصولية. وكانت دعوته تتسم بالمثالية الشديدة، فقد كان يدعو فى هذا الوقت من الخمسينيات إلى الاندماج العنصرى بين البيض والسود وإلى المساواة والعدالة الاجتماعية. ثم دشن قسيساً من جانب الكنيسة. ولأن دعوته كانت سابقة للأوان، فقد ثارت الكنيسة عليه وكان أن انشق وأسس «معبد الشعب». ووجه بحملة اضطهاد واسعة فى وسائل الإعلام فما كان منه إلا أن جمع مريديه وهاجر بهم إلى غابات جيانا. بعد ثلاثة أعوام فقط من ذهابه إلى جيانا ارتكبت هذه المذبحة الرهيبة. أقام جونز نظاماً صارماً يقوم على الطاعة العمياء. وانساق أتباعه كالنعاج إلى الانتحار الجماعى نساءً وأطفالاً وشيوخاً وشباباً.

يؤكد المؤلف أن الطاعة العمياء لأى مذهب هى نذير بالسوء وعلامة صريحة لتحول الدين عن مقصده. إن تحول الدين إلى شر يقل كثيراً فى وجود حرية التفكير الفردى وعندما يشجع على البحث النزيه. ويذكر لنا وصية الحكيم «بوذا» وهو على فراش الموت:

«لا تقبل قولاً لمجرد وجوده فى كتبنا، أو لأنه يتفق مع معتقداتنا، أو لأنه من أقوال معلمك. كونوا مصابيح لذواتكم.. من سيعتمد منكم الآن أو بعد مماتى على نفسه وينشد العون خارج نفسه، أولئك سيبلغون الذرارى».

تحديد الوقت المثالى

يقصد المؤلف بهذه العلامة من علامات نذير الشر، من يؤمنون بأن هناك وقتاً مثالياً للتعجيل بظهور ظاهرة دينية يعتقد معتنقوها أنه بحلولها سوف يحققون خلاصهم. ويسوق لنا عدة أمثلة، منها مثال بالغ الدلالة.

فى عام ١٩٨٤ واجه حراس فلسطينيون يحرسون المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة مجموعة من المتطرفين اليهود يحملون عدة حقائب من المتفجرات. أسفرت هذه المواجهة عن وأد مؤامرة شريرة كان يدبرها المتطرفون اليهود لنسف المسجدين الشريفين. وعندما قبض عليهم وبعد التحقيق معهم اكتشفت الشرطة الإسرائيلية مخابئ ضخمة للأسلحة نقشت عليها نقوش غريبة.

واتضح فيما بعد أن هناك مؤامرة سرية ضخمة تتضمن قيام طيار إسرائيلى بسرقة طائرة قاذفة لنسف قبة الصخرة. وعندما قُبض على الطيار اعترف بفعلته قائلاً:

«لقد كنت أفكر منذ أربع سنوات فى تطهير «جبل المعبد» أى الحرم الشريف من قبضة المسلمين».

يشير المؤلف إلى وجود جماعات يهودية متطرفة تدعمها جماعات مسيحية متطرفة تعمل على التعجيل بالحلول الثانى للمسيح عليه السلام. وترى هذه الجماعات أن حرب ١٩٦٧ كانت علامة إلهية. إذ انتصر فيها اليهود. أما المسيحيون الأصوليون الذين يدعمون إسرائيل بالأموال والرعاية المجانية فيرغبون بعودة شتات اليهود إلى فلسطين لأن ذلك بشرى بعودة المسيح.



بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الإسلام ويلاحظ أن هناك جماعات إسلامية كجماعة بن لادن والطالبان والجهاد ترى أن الوقت أصبح ملائماً لإقامة الدولة الإسلامية. وفى سبيل ذلك تبذل هذه الجماعات قصارى جهدها تحقيقاً لهذا الهدف من خلال تبرير قتل الأبرياء وتكفير النظم والمجتمعات استعداداً لإقامة دولتهم الإسلامية. ويعترف المؤلف أن غالبية المسلمين ترفض رؤية الإسلام الأصولى المتطرف.

ولا يعتقد الكاتب أن هناك مستقبلاً لهذه الجماعات فإن الدولة الإسلامية المثالية لا وجود لها فى التاريخ. فالتاريخ الإسلامى يكرر تاريخ الحضارات الكبرى. ولا يفوت الكاتب التنويه بدور إسرائيل والولايات المتحدة وفساد النظم السياسية فى العالم الإسلامى وانتهاك حقوق الإنسان من جانب حكام فاسدين غير منتخبين فى ظهور هذه الظاهرة. ولكن لا شىء يبرر هذه الأعمال الإجرامية التى تستخدم الدين وتشوهه.

إن الجماعات المتطرفة الإسلامية يقابلها جماعات متطرفة مسيحية ويهودية وهندوسية.. وثمة تشابه كبير بينهم.. فأتباع «التحالف المسيحى» بقيادة بات روبرتسون تعمل أيضاً على إقامة دولة تقوم على الإنجيل وفقاً لتفسيره.

انظر إليه يقول:

«فيما يتعلق بأنصار إعادة البناء (منظمة أصولية مسيحية) لا توجد أرض محايدة، ولا يوجد مجال للعمل خارج حكم الله!.. فإما أن يكون المرء ممارساً لسياسات إلهية أو أنه يشارك فى أنظمة تعادى الله والأسرة والمدرسة والكنيسة..».

الهدف يبرر الوسيلة

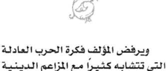
توضيحاً لما يعنيه بهذه العلامة يشير كمبال إلى حادث مداهمة الهندوس للمسلمين فى الهند فى التسعينيات الذى راح ضحيته ٦٠ مسلماً وجرح المئات. ولقد شاهدنا الهندوس وهم يحرقون الأسر المسلمة أحياء فى بيوتهم وسياراتهم. وهو حادث واحد من عشرات مثله. يقول المؤلف أن هذا السلوك من جانب الهندوس لا يمكن تبريره بأى حال من الأحوال. فهو يخالف كل المبادئ الأساسية التى تقوم عليها الديانة الهندوسية التى تقوم على تعدد الأعراق واللغات والأديان. إن الدين لا يقر ذلك ولابد من توافق الوسيلة مع الهدف. إن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة مبدأ مرفوض دينياً وأخلاقياً.

ولكن، يلاحظ كمبال أن مثل هذه الظاهرة متواترة بين أتباع الأديان الأخرى من المتطرفين. فنحن نعرف حكاية باروخ جولد شتين الذى أطلق رصاص رشاشه على جموع المصلين الفلسطينيين فى مسجد الخليل. ونحن نعرف أن جولد شتين أمريكى يهودى يحمل الجنسية المزدوجة لإسرائيل والولايات المتحدة وأنه ينتمى إلى أشرار المستوطنين اليهود فى الأراضى المحتلة. ونحن نعرف أن قبره بمدينة الخليل أصبح مزاراً للمتطرفين اليهود!

إعلان الحرية المقدسة

فى هذا الجزء من الكتاب يؤكد كمبال الحقيقة التى لا مراء فيها وهى أن أكثر من قُتلوا فى الحروب التاريخية إنما قُتلوا باسم الدين، ولكم من الجرائم ارتكبت ومازال ترتكب باسم الدين. فأسامة بن لادن الذى قتلت منظمته الآلاف فى نيويورك وضواحى واشنطن من الأبرياء إيماناً بأن ما فعله يندرج تحت خانة الحروب المقدسة. كما نرى جورج بوش يرد على بن لادن بإعلان الحرب على الإرهاب ويُقسم العالم إلى أشرار وأخيار. واستخدامه واستخدام وسائل الإعلام الأمريكية أو بعضها لرموز الحروب المقدسة فى تغطيتها لحادث ١١/ ٩ وبعده. لقد شاهدنا مجازر البوسنة والجزائر وأندونيسيا وكلها بطريقة أو بأخرى تُرتكب باسم الدين. وفى حالة رهيبة اقتربت الهند وباكستان من الحرب النووية.

لا يمارى كمبال فى أن بعض المواقف فى بعض الأوقات تستدعى عملاً مسلحاً، كما لا يخالجه أى شك فى أن ما ارتكبه أسامة بن لادن هو جريمة شنعاء. ومع وجود أسباب مشروعة للعمل المسلح الجماعى فيما بين الدول، فلا يجب أبداً أن يغلف هذا العمل بغلاف الدين. إن إعلان حرب مقدسة فى عالمنا الذى يعج بأسلحة الدمار الشامل هوعمل انتحارى.



ويرفض المؤلف فكرة الحرب العادلة التى تتشابه كثيراً مع المزاعم الدينية لناموس السلوك إبان الحروب وإن كان قوامها مراعاة مبادئ الرحمة وعدم إيذاء المدنيين وغير المتحاربين. فيرى أن كل الحروب التى تُرتكب باسم الدين إنما هى حروب سياسية فى المقام الأول. فقد ظلت المسيحية على مبدأها فى محاربة العنف والدعوة إلى السلام حتى مجىء الإمبراطور قسطنطين إذ فى معركة من معاركه التى فاز فيها زعم أنه قبل هذه المعركة بيوم واحد ظهر له فى المنام صليب أبيض نُقشت عليه هذه العبارة:

«بهذه العلامة سوف تفوز».

بعدها أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة الرومانية. وأصبح أى تهديد للدولة هو تهديد للكنيسة. وقد رأينا صدام حسين وجورج بوش الأب يستخدمان رموزاً دينية فى حرب العراق الأولى. وكلنا يعرف أهوال الحروب الصليبية حيث كان قواد الحرب الصليبيين يتفاخرون بأن:

«جنودنا كانت تقوم بغلى رءوس الوثنيين (المسلمين) فى أوانى الطهى، وكيف كان يشوى الأطفال على أسياخ لتلتهم بعد ذلك مشوية»!

ويعتبر النقاد أن كتاب كمبال هو من أفضل الكتب التى كتبت بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ إن لم تكن أفضلها. فقد أزاح الغشاوة التى غيمت على معظم الكتب التى كتبت حول التطرف الإسلامى وبرهن على أن مشكلة التطرف والإرهاب ليست مشكلة تخص الإسلام وحده، بل هى تخص المسيحية أيضاً واليهودية وسائر الأديان الأخرى. إن خطر التشويه الدينى هو خطر يحيط بنا جميعاً ويهددنا جميعاً.. وهو الخطر الذى يشكل هاجساً لدى الكاتب. لقد أبرز علامات الخطر وكيفية العلاج والتصحيح. وهو جهد لا يسعنا إلا أن نقدر له هذا الصنيع. ■



فى كل دين. يقول لنا المؤلف. تشكل دعاوى امتلاك الحقيقة الأساس الذى تقوم عليه هذه الأديان. ولا غبار على ذلك، ولكن عندما تتحول هذه الدعاوى إلى نظريات جامدة متحجرة ومتكلسة تحول دون التفاعل الإنسانى فهنا تسنح الفرصة لتشويه الدين





كاتيا ديفيناج

في سوق أزمير اشتريت نسخة مزورة من فيلم «صقر أسود يسقط Black Hawk Down» بدولار ونصف على قرص مدمج. القرص انتجه استوديو تقليد في مكان مجهول ليُعرض هنا في أحد أسواق ما بعد الفوردية(*) في تركيا، حيث تبيع بروليتاريا الرزق العشوائي أحدث ما تنتجه هوليوود، ووادي السيلكون، إلى جانب العديد من الماركات العالمية مثل نايكي وفيلا ودي كي إن واي. قطع قليلة تُباع بربح ضعيف، هو الفارق المباشر بين سعر البيع وسعر الشراء. استيراد وتصدير الأعمال الترفيهية الحربية تكشف عن مفاجأة حقيقية.

فيلم «صقر أسود يسقط» للمخرج ريدلي سكوت مصور بكاميرات محمولة من على جبهة ما يسمى بالحرب على الإرهاب. الفيلم مليء بالحركة البطيئة، والقطع السريع، والصور المهزوزة، والذي يمنحك انطباعاً بأنك في وسط الحرب. الفيلم صور في المغرب ومثل فيلم «جي. آي. جين Jane .I .G» شارك البنتاجون رسميًا في إنتاجه عن طريق تقديم مساعدات، هذه المرة على هيئة طائرة هليوكوبتر حقيقية.

في بداية الفيلم نرى فراغًا تلتمع فيه أشعة الشمس. في هذا الفراغ تذوي أجساد سوداء جائعة. خرائب حية. لاتزال تنبعث منها دخان معركة الأمس. حالة تلك الأجساد غير واضحة. هل هي على قيد الحياة؟ هل ماتت جوعًا؟ كل ما هو مؤكد أنها الآن لا شيء سوى أجساد. حياة مجردة، بدون لغة أو مجتمع. أجسادٌ على الحافة بين الحياة والموت. أشياء للحرب. مواضيع للرحمة الإنسانية. أجساد تنتظر إمدادات الطعام، تنتظر الرعاية الطبية. أجساد تقع تحت عين الفيلم المسيطرة كحشود جائعة على طريق الفرار، حشود حشود. على العكس من ذلك صورة المنقذين البيض بأيديهم النظيفة، ووجوههم التي تعكس الجهد المضني لمشاريع التنمية الدولية. لقد جاء فيلم المخرج البريطاني ريدلي سكوت متزامنًا مع الحادي عشر من سبتمبر كهدية لهوليوود، ليوضح لها دون أن يدري كيف تكون الحروب الحديثة، وكيف تصور العين المسيطرة حياة حشود اللاجئين العارية. حياتهم الرازحة تحت إمرة الصليب الأحمر الدولي Red Cross guaranteed Life، والتي هي أحد أقسى أشكال البقاء على قيد الحياة في ظل الرأسمالية الإمبريالية.

مخيم إغاثة اللاجئين المُدار من قبل الهيئات الإنسانية يتم فصله كليًا عن المجتمع الأصلي المحيط به، ذلك الفصل الحاد بين الإنساني والسياسي في المخيم يصوره الفيلم كحقل مثالي لإدارة البشر وسلبهم حقوقهم: العزل من أجل البقاء. هنا يسود منطق النجدة والطوارئ، فتنشأ منطقة لا يمكن التمييز فيها بين العنف والقانون. من يُجر إلى هذه المنطقة يتم نزعه عن مجتمعه. ربما يكون إنسان مخيمات الإغاثة غير سعيد، إلا أن عليه أن يكون شاكرًا مقابل بقائه على قيد الحياة. بل إن المصلحة النهائية يمكنها أن تنهي تلك الحياة، والتي يفترض أنها إبقاء على قيد الحياة، يمكنها أن تستبدلها بالموت.

اللاجئون، في هذا الفيلم الصوماليون المحتجزون في مخيم الإغاثة، هم أوضح أشكال الحجز الخارجي الذي تمارسه عليهم سلطة تهدف إلى إبقائهم معلقين بين الحياة والموت، منزوعين عن سياقاتهم، وذلك ليس لأن حقوق الإنسان لم تكتب لها الغلبة بعد في صراعها الطويل، ولكن لأنها نفسها تشكلت خلال عملية ظهور السلطة الحيوية، تلك العملية التي امتدت عبر مئات السنين ونشأت فيها السلطة الحيوية كعلم وطريقة إدارة.

ضبط وتأديب الفقراء:

السلطة الحيوية تاريخيًا تعمل على جسد الأفراد وعلى جسد المجتمع في آن.

ترجمة: هيثم الورداني

بترتيب مع مجلة: Jungle World الألمانية

فهى تقوم من ناحية بحصر تعريف الجسد على مجرد أسس عنصرية وجنسية، ومن ناحية أخرى تقوم بضبط وتأديب الفقراء والخوارج. أى أنها تخضع الجسد لسلسلة ممتدة من الحجوزات الداخلية والخارجية، لينتج عن ذلك نوع من الحياة العارية المنقسمة. مع الوقت تتكون أنظمة متراكمة من الضبط والممارسة الإدارية البوليسية وتكنولوجيا السيطرة. وهكذا تأخذ الأجساد بالتشبع بأساليب القمع المزدادة قوة والمسلطة عليها. السلطة الحيوية هى انعكاس البيولوجى فى السياسى، تنظيم مستمر للحياة فى سياق القيمة والمنفعة، أسر متزايد للحياة داخل ميكانزمات وحسابات السلطة.

ولا نرى من الصواب القول بما قاله انتونيو نيجرى ومايكل هاردت فى كتابهما «الإمبراطورية» عن مساواة تطور السلطة الحيوية بالعملية الرأسمالية. فبالرغم من تلاحق ظهورهما إلا أنهما يعبران عن عقليتين مختلفتين، بما يمكن تسميته توازى غير سببى. فكما أوضح فوكو استبقت تكنولوجيا السلطة الحيوية فى القرن الخامس عشر والسادس عشر العملية الرأسمالية بخلق أجساد مطواعة مفيدة وسهلة الحركة. بمعنى أن الضبط يأتى أولاً يتبعه الإنتاج. وقد هجس ماركس بشىء مشابه عند كتابته الفصل التاريخى المتعلق بالتراكم الابتدائى من كتابه رأس المال عام ١٨٦٧، ولأن السجال النظرى الخاص بالفارق بين السلطة الحيوية والمنطق الرأسمالى لم يكن معروفاً وقتها، فقد توقف الأمر عند هذه الجملة فى معرض حديثه عن طرد الفلاحين من أرضهم من قبل الإقطاعيين ثم تسكينهم فى المصانع الناشئة حديثاً كقوى عاملة: «التراكم السابق لتراكم الرأسمالية. أى التراكم الابتدائى (التراكم السابق. previous accumulation عند آدم سميث)، ليس هو محصلة الإنتاج الرأسمالى ولكنه نقطة انطلاقه».

إن خط التماس بين تكنولوجيا سياسية تعمل على الجسد رأساً وتقوم بإدارة الحياة، وبين عقلية تقوم على التقييم والتبادل المتساوى، هو خط غير ثابت، ينزاح باستمرار مغيراً مساره، وعلى هذا الخط الديناميكى تتجدد السلطة المعاصرة دوماً.

لم تتطور السلطة الحيوية بشكل خطى، إذ أن كل محاولة لخلق تعميم مكانى أو زمانى تغفل أمرين: أولاً أن عمليات السلطة الحيوية بقيت مركزة فى أوروبا حتى القرن التاسع عشر. فيما كانت المستعمرات ترزح تحت ثقل سياسة الاستغلال والموت. فقط بشكل ثانوى وعلى سبيل التمويه كان يتم تعليم بعض أفراد السكان المحليين وضبطهم. ولقد حلل تزفيتان تودوروف فى كتابه «فتح أمريكا» استعمار الأسبان لأمريكا الجنوبية كمجزرة مسيحية، وأوضح أن الإبادة الجماعية غير المباشرة للسكان المحليين من جراء «الموت الأبيض» (أى الأنفلونزا والجدرى والحصبة وغيرها من الأمراض التى لم يكن السكان المحليون يعرفونها ولم يستطيعوا إنتاج أجسام مضادة لها)، لم تقابل تلك الإبادة ببرنامج سياسى حيوى كما فعلت أوروبا بعد وباء الطاعون، فالأخيرة قامت بتقسيم مستمر للمكان، لتسهيل عمليات المراقبة والحجر الصحى. أما فى أمريكا الجنوبية فلم تتشكل سلطة حيوية تقدم أى مساعدة للشعب. ذلك الشعب الذى أرهق عملاً فى مناجم الذهب وبناء المدن ودفع الضرائب حتى هلك، فتم استبداله بالرقيق الأسود.



الأمر الثانى أن السلطة الحيوية هى عملية تراكم. التشبع بروح الانضباط وسحبها على جميع أنحاء الجسد الاجتماعى هو عملية تراكم طويلة للفصل والعزل والحياة فى ثكنات. تراكم للتدريب الدقيق على الربط والمحاذاة والجلوس المعتدل. تراكم لإيقاع الجرس والعصا الآمرة. تراكم تحرسه تقنيات المراقبة. طبقة تصطف فوق الأخرى وتتشبع بها. يجدر بالمرء ألا ينسى كم الجهد الذى بذل من أجل ضبط الأجساد زمنيًا وسلكها فى إيقاع منضبط. التعليمات التالية وردت فى وثائق أحد المصانع فى بدايات القرن الثامن عشر، وتعطى صورة للحالة التى أريد تغييرها عبر التعليم «المفيد» للجسد: «ممنوع منعًا باتًا التحدث مع الزملاء أثناء العمل، أو اللعب معهم بأى نوع من الألعاب. كذلك يمنع



منعًا باتًا تناول الطعام أو الشراب أو النوم أو حكى القصص».

إن تسريب الإنتاج من المصنع إلى المجتمع، المغادرة، نقل العيادة إلى تدريبات الرشاقة، هى كلها طبقة متأخرة من الحجز الداخلى الذى تقوم به السلطة الحيوية. حدثت بعد قرون من التراكم والتشبع بروح الانضباط، طبقة تأتى بعد أشكال الحجوزات الداخلية التقليدية والتى يتم فيها حجز وعزل الأجساد فى مراكز الانضباط، أو المصحات، أو السجون، أو المصانع لتدريبها ودمجها فى المجتمع.

فيلم «صقر أسود يسقط» القادم من تيار السينما التقليدية Mainstream يشير إلى أهمية مخيم الإغاثة فى سياق عملية التعقيم الاجتماعى التى تقوم بها السلطة الحيوية والرأسمالية. وذلك كمثال على النوع الثانى من تأثير السلطة الحيوية، أى الحجز الخارجى، والذى تقوم به سلطة على أجساد تقع خارجها، بهدف إبقائهم دائمًا مستبعدين خارجها. المخيم ليس مركز انضباط، إنه تقليد كولونيالى وفاشى فى آن، فعلى عكس مركز الانضباط لا يعزل المخيم الجسد من أجل جعله جسدًا مرنًا ومفيدًا للإنتاج. مخيم الإغاثة هو مكان يعزل فيه المرء ليتحفظ عليه فيه. إنه مكان السياسة الحيوية السلبية، حيث يجبر البشر فيه على البقاء بين الحياة والموت، بدون أن يوجد ما يمنع. وهذا هو المكون الفاشى فى تركيبة المخيم. تركهم للموت، حتى وإن كان ذلك بشكل غير مباشر، كترحيل اللاجئين غير النظاميين إلى بلادهم بالقوة برغم خطورة الأوضاع هناك، أو قطع إمدادات الغذاء عنهم بشكل مفاجئ.

لمــاذا نــحــارب؟

يدور هذا النص حول العلاقات المتباينة بين السلطة الحيوية والرأسمالية والحرب. عمليتا السلطة الحيوية والرأسمالية هما عمليتان ممتدتا الأثر تاريخيًا. لقد ظهرا تباعًا فى الفضاء الأوروبى، ثم عضد كلاهما الآخر وحفزه فى عملية طويلة قادت إلى الجمود المجنون للسلطة الحديثة، اختلاف أشكال الحروب يعتمد على الحركة التاريخية التى تأخذها العلاقة بين العمليتين. وفى رواية الخيال العلمى التى يعيش فيها عالمنا الآن تم تدشين فضاء كونى واسع ومتنوع، وفيه أصبحت كل الملفات الحيويسياسية والاقتصادية مفتوحة فى نفس الوقت. وعلى قمة السلطة الحديثة هذه تشكل نظام حكم قائم على السيطرة وشن الحروب البوليسية. نظام حكم يضمن بقاء المجتمع تحت هيراركية قابلة للتصعيد. يكاد المرء أن يشكر الإدارة الأمريكية على ورقة «استراتيجية الأمن القــومــى National Security Strategy» التى وضعت فى سبتمبر عام ٢٠٠٢، والتى تكشف بنص أيديولوجى واضح عن تراكم نظام الحرب والسيطرة البوليسى، ومنها: «هذه الإدارة قامت بأكبر تحديث وإصلاح منذ أن أنشأت إدارة ترومان مجلس الأمن القومى ووزارة الدفاع. إن خطتنا تقوم على إنشاء وزارة جديدة للأمن القومى ذات هيئة أركان حرب مستقلة، تكون مهمتها التنسيق بين المستويات المتعددة للحكومة وتنظيم العمل مع القطاعات العامة والخاصة، بالإضافة إلى مهمة تحديث مكتب العمليات الفيدرالية FBI خطتنا الإصلاحية تنبع من الدرس الذى تعلمناه جيدًا، لذلك فنحن نرى أن العمل وفق أحكام الطوارئ لا يقى بكفاءة فقط من خطر الإرهاب ولكنه فعال ضد مختلف المخاطر الاجتماعية. سوف يتم تطوير نظام الرعاية الصحية لا لكى تجابه فقط خطر الإرهاب البيولوجى، ولكن فى نفس الوقت لكى تحسن طرق مواجهة الحوادث الجماعية وحالة الإصابة على نطاق واسع. سوف يتم تكثيف مراقبة الحدود ليس فقط لوقف الإرهابيين، ولكن أيضًا لتسهيل سير المواصلات والبضائع على الحدود».

إن فيلم «صقر أسود يسقط» يروى قصة مهمة عادلة وفى نفس الوقت فاشلة. ففى عام ١٩٩٢ قامت الأمم المتحدة وبقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بحماية قوافل الإغاثة الذاهبة إلى الصومال. اتخذ جورج بوش الأب قرارًا بمواجهة الوحدات الصومالية عسكريًا عشية انتهاء حرب الخليج الثانية. وذلك فى إطار تصوره فى النظام العالمى الجديد، وفيه تعرف الدولة الساقطة Failed States على أنها خطر من المرتبة الأولى. وما بدا على أنه مهمة لذوى القبعات الزرقاء تحول إلى قتال بوليسى للقبض على زعيم مجلس الوحدة الصومالى محمد فارح عيديد.



لقطة بلقطة يعرض ريدلى سكوت كيف تنهض فكرة الحرب العادلة من قبرها فى العصور الوسطى، بعد أن كانت قد اختفت إثر تنظيم الحرب، وذلك عن طريق حصرها بين دول نظامية. فالصياغة المسيحية الأولى لفكرة الحرب العادلة جاءت فى القرن الخامس عبر كتابات أوجسطينوس المعنونة «عن دولة الله»، وفيها يدشن التحول المفاهيم من الأخلاق المسيحية المبكرة المعادية للعنف إلى أخلاق القبول بالحرب كأحد الاحتمالات. الحرب العادلة هى خطاب مزدوج القيمة، فمن ناحية هناك التبرير المسيحى الذى اكتسبته الحرب، ومن ناحية أخرى تم استرداد الشروط الرومانية الثلاثة المحددة للحرب العادلة: أن يكون هناك قائد معترف به، أن يكون هناك سبب عادل ثم أن يكون هناك هدف عادل. المعنى الحقيقى لهذا الخطاب سيأتى بعد ذلك وتحديدًا فى نهاية القرن الثالث عشر فقد قام القديس توما الأكوينى، باستخدام وتطبيق المحددات الرومانية، المثبطة للحرب أساسًا، إلى فضاء المسيحية، جاعلاً منها محفزات كافية. فقال إن طرد الكفار من الأراضى المقدسة، والانتقام من الظلم النازل بالمسيحيين سببان يصلحان لتبرير حرب عادلة، حرب اتخذت شكل الحملات الصليبية، ثم الاستعمار بعد ذلك، وأخيرًا الحروب الدينية.

لقد حل الدفاع عن الليبرالية والتنوير محل الدين كسبب. هذا الدفاع القائم على ضفتى الأطلنطى يغض البصر عن خطوط التماس الموجودة بين الضبط والرأسمالية والكولونيالية والإنسانية. المثال المنقطع النظير للاستعادة المدنية لفكرة الحرب العادلة هو المانيفستو المعنون «لأجل ماذا نحارب» الصادر فى فبراير ٢٠٠٢، وفيه أعرب ستون مثقفًا أمريكيًا عن دعمهم للحرب ضد الإرهاب. من بين الموقعين مؤلفون يمينيون أمثال فرانسيس فوكوياما وصامويل هنتنجتون، ولكن أيضًا معلقون ليبراليون أمثال أميتاى أتزيونى ومايكل فالتزر. هذا المانيفستو يعيد خطابًا قادمًا من القرن الخامس الميلادى إلى بقعة الضوء، حيث جعل من التسامح المسيحى سببًا رئيسيًا فى انهيار الإمبراطورية الرومانية، وعلى أثره قام أوجسطينوس بمحاولة دمج فكرة شن الحروب مع الأخلاق المسيحية. مانيفستو «لأجل ماذا نحارب؟». يعيد نفس الخطاب ولكن فى لغة إنسانية تجعل من الحياة العارية سببًا كافيًا للتدخل. ومنه: «المبرر الأخلاقى الرئيسى للحرب هو الدفاع عن الأبرياء. أوجسطينوس فى كتابه «عن دولة الله» يقدم صورة مثالية لفكرة الحرب العادلة، فهو يوضح أنه من الأفضل للمسيحيين كأفراد أن يتحملوا العنف على أن يقوموا به بأنفسهم، ولكن هل يعنى ذلك أن ينكر شخص أخلاقى يتحمل مسئولياته حق الأبرياء فى الدفاع عن أنفسهم؟ الإجابة لدى أوجسطينوس ولدى كل المؤمنين بالحرب العادلة هى لا. عندما تكون هناك دلائل كافية على أن خطرًا كبيرًا سوف يحيق بأشخاص أبرياء لا قبل لهم بالدفاع عن أنفسهم، هذا الخطر لا

> **فى نهاية القرن الثالث عشر قال القديس توما الأكوينى، إن طرد الكفار من الأراضى المقدسة، والانتقام من الظلم النازل بالمسيحيين سببان يصلحان لتبرير حرب عادلة، حرب اتخذت شكل الحملات الصليبية، ثم الاستعمار بعد ذلك**





يمكن وقفه سوى بالقوة، هنا تأمرنا مبادئنا الأخلاقية المحبة للآخر بشن الحرب».

مبادئنا وكراهيتكم:

الحرب العادلة تسطح العنف المسلح وتجعل منه أمراً مطلقاً. فمن ناحية تعرف الحرب على أنها مجرد حملة بوليسية على مجموعة من الأشقياء، ومن ناحية أخرى يتم تزويد الجنود بمهمة إنسانية كونية. وعلى هذا المنوال تقول سطور مقدمة فيلم «صقر أسود يسقط»: «الصومال ١٩٩٣. أعوام من الحرب بين الفصائل المتناحرة تسببت فى اندلاع مجاعة. ثلاثمائة ألف قتلوا. محمد فارح عيديد الرجل الأقوى بين أمراء الحرب يسيطر على العاصمة مقدشيو. الجوع سلاحه. والآن العالم يتحرك. عشرون ألف جندى مارينز أمريكى يوزعون المواد الغذائية ويعيدون النظام. عيديد ينتظر انسحاب المارينز، ثم يعلن الحرب على من تبقى من قوات حفظ السلام. فى نهاية أغسطس من نفس العام أرسلت قوات العمليات الخاصة الأمريكية: دلتا فورس، أرمى رينجرز، الوحدة ١٦٠ إلى هناك، مهمتها إسقاط محمد فارح عيديد واستعادة الأمن والنظام». لكن وكما يعرف الجميع الآن فقد باءت تلك المهمة بالفشل، فأسقطت طائرتا هليوكوبتر من نوع بلاك هوك أو الصقر الأسود، وقتل ثمانية عشر جندى أمريكى، مما اضطر الإدارة الأمريكية التالية وهى إدارة بيل كلينتون لإيقاف المهمة.

ما يثير الانتباه هنا هو النتيجة التى استخلصها ريدلى سكوت فى فيلمه. لقد قدم نقداً معكوساً للإنسانية العسكرية، إنه يريد حقاً أن يقول لنا إنه فى عالم ما بعد التحرر من الكولونيالية فإن الحروب الأهلية التى لا تنتهى والتى تؤدى به إلى الموت جوعاً، هى شأن الجنوب الخاص الذى لا يجب التدخل فيه. إنها نسخة ريدلى سكوت الخاصة مما يدعى بصراع الحضارات Clash of Civilisations، نسبية ثقافية رخيصة تقوم على أن للشمال قيمه وللجنوب معاركه. الشخصية الصومالية الوحيدة التى يعطيها سكوت صوتاً هى شخصية تاجر سلاح يرتدى سواراً ذهبياً ويوضح للجنرال الأمريكى المسئول ما يعنيه التحرر من الكولونيالية، إنه يعنى إن هذه بلدهم وهذه حربهم وهذا حقهم فيما يفعلون.

أمـــراء حــــرب بـنـظـارات ريـبـان:

تلك المعادلة «مبادئنا وكراهيتكم» وجدت أيضاً فى الصومال من يضحك عليها. ففى بداية العام ٢٠٠٢ انتشرت العديد من شرائط الفيديو المقلدة من الفيلم فى مقدشيو. وفى قاعات العرض السينمائى ينتظر الجمهور بفارغ الصبر المشهدين الرئيسيين فى الفيلم، ويبتهجون وهم يشاهدون إصابة طائرتى الهليوكوبتر بصاروخى ستينجر وارتطامهما بالأرض.

القصة التى يرويها فيلم «صقر أسود يسقط» هى قصة موضوعة خارج العلاقات التاريخية. الحرب فى الصومال تتحول إلى نوع جديد من القبائلية بأفراد مرتزقة يرتدون المموه ونظارات الريبان.

صورة أمير الحرب الجنوبى هى واحدة من أكثر الصور النمطية والكليشيهات التى يعج بها النقاش الحالى حول الحرب. أما أمراء الحرب الشماليون، أى شركات السلاح الدولية أمثال إم بى آر آى MBRI، والأنظمة الدفاعية المتحدة Defense System Limited، اكسيكيوتف أوتكومز Excutive Outcomes ، داينكروب Dyn Crop.. إلخ، والذين يستثمرون حروب الأرض من كرواتيا حتى كولومبيا لبيع أسلحتهم وأنظمة مراقبتهم، هؤلاء يبقون فى الظل ولا يطولهم النقاش. الحالة المثالية التى يمكن سوقها هنا هى حالة البروفيسور هيرفريد مينكلر Herfried Munkler الباحث السياسى فى جامعة هومبولد ببرلين، والمشغول منذ سنوات بدراسة تاريخ الحرب ونظرياتها. فبالرغم من أنه يأتى فى كتابه على ذكر شركة أكسكيوتف أوتكومز كشريك تجارى فى حروب ما بعد الكولونيالية الطرفية، إلا أن أفكاره تبدأ فى السطوع فقط عندما يأتى على ذكر أمراء الحرب الجنوبيين الجدد. سطوع يُطل منه انبهار خفى بالحرب والموت والسلطة، يشبه انبهار أرنست يونجر بالدم والحرب كمطهر فى روايته عاصفة الفولاذ Stahlgewetter فيصفهم مينكلر بأنهم: غير منضبطين، محدودون، أفسدهم المال والصيت، راب وريبان، ماكينة وحشية للقتل والاغتصاب بأبشع الطرق وأكثرها قرفاً، تماماً كفيلم «صقر أسود يسقط» الذى يصور فى أحد مشاهد ذروته المبكرة نفس الانبهار السلبى هذا، فبعد خمس دقائق من الفيلم نشاهد ميليشيات عيديد وهى تقتحم أحد مخيمات الصليب الأحمر، يطلقون الرصاص على اللاجئين الجائعين، الدم ينبجس بالحركة البطيئة من الأجساد المنحولة، ثم يستولون على المواد الغذائية ويرحلون بسيارتهم الجيب المفتوحة وهم يرتدون نظارات الريبان العاكسة ويتمنطقون بأحزمة الرصاص. لا يعنينا هنا محاولة التهوين من علاقات العنف فى تلك الحرب، ولكن ما يعنينا هو نقد غلالة العادى والتى تصور الجنود الآسيويين أو الأفريقيين أو اللاتينيين فى حروب ما بعد الكولونيالية كشياطين، خارجين عن كل القيم، وبشكل خاص وحشيين. أما أمراء الحرب الشماليين فهم مجرد آدميين سيئين بعض الشىء. الفكرة التى تقف خلف ذلك التمييز تبدو واضحة بشكل مثالى لدى مينكلر، الذى يتعلق الأمر لديه بتمجيد الشكل النظامى الأوروبى للحرب، فيقول: «إن خليط السلب والنهب والمذابح والعنف المنفلت والذى ميز حروب القرون الوسطى سيكون إرهاصاً بما سيصيب الأمريكيين والأوروبيين إذا لم ينجحوا فى إعادة تنصيب الدولة باعتبارها المحتكر الوحيد لاستخدام العنف، وذلك على الصعيد العالمى، حتى يضمنوا أن تكون الدول هى الجهة الوحيدة المسئولة عن قيام الحرب».

صـنـع فـى أوروبـا:

السردية التى يقترحها كارل شميت والتى استخدمها مينكلر فى تحليله تسير بالشكل التالى: إن تنظيم الحرب عن طريق وضعه فى يد الدولة وحدها والذى بدأ على الأكثر إبان حرب الأعوام الثلاثين ١٦٤٨ وحتى القرن التاسع عشر، ذلك التنظيم تسبب فى ترويض نسبى للعنف الحربى، واستمر حتى القرن التاسع عشر. فالحروب تقع بين دول مستقلة، جنود يقاتلون جنوداً آخرين، تنظمها مبادئ الفروسية وشرف الجندية، فلا تقع مذابح بين المدنيين ولا يُحط من إنسانية الأسرى، ويتم التعامل مع العدو على أنه خصم شريف.

لكن ما يتم نسيانه فى هذه الكتابة للتاريخ هى أن الأشكال البشعة للحرب غير النظامية كالمذابح والتعذيب التى اختفت من أوروبا قد تم تصديرها إلى المستعمرات، وساهمت بنجاح فائق فى تخريب تلك المجتمعات.

والسؤال الذى نود أن نطرحه هو ماذا يعنى ذلك الفصل الاجتماعى بين الداخل والخارج، والمصاحب لتنظيم الحرب؟ ترى أى نوع من السلطة هذا الذى تفتح فى القرن السابع عشر والذى يظهر كضبط للمجتمع من الداخل وحروب نظامية من الخارج، متزامناً فى نفس الوقت مع عملية رأسملة المجتمعات الأوروبية؟

إذا أراد المرء رسم قوس عبر أوروبا القرنين السادس عشر والسابع عشر، فسيلاحظ



إن الأشكال البشعة للحرب غير النظامية كالمذابح والتعذيب التى اختفت من أوروبا قد تم تصديرها إلى المستعمرات، وساهمت بنجاح فائق فى تخريب تلك المجتمعات



كيف تسير الحرب مع نشأة الدول القومية، وكيف يتم تصدير الأشكال غير النظامية للحرب كالمذابح وحرق الأراضى إلى المستعمرات. فمع تأسيس جيش نظامى وحجز الجنود فى معسكراتهم تم تنظيف جسد المجتمع من آثار الحرب اليومية المسلطة عليه، سواء كانت حرباً خاصة أو دينية. العلاقات الحربية التى كانت تسود المجتمعات فى العصور الوسطى اختفت وحل محلها الضبط والتأهيل. فى الخارج حرب، فى الداخل ضبط. هذا هو عنوان عملية رأسملة المجتمعات الحديثة. دعونا نحاول رسم سردية للجنود تحاول إظهار تلك العلاقات، سردية تتكون من ثلاث محطات:

عندما توقف حق حمل السلاح عن أن يكون حكراً على الأمير أو النبيل فقط، ظهر فى ألمانيا جيش عبيد الحقول، وفى إيطاليا مرتزقة الكوندوتيرى. وقد اعتبر كارل ماركس أنهم فى بيعهم لقوة عملهم الحربى صورة مبكرة لعمال اليومية. لكن قوة العمل تلك لم تكن منضبطة بعد. عبيد الحقول المحاربون لم يكونوا مستعدين لبذل أرواحهم فى القتال. والأسرى كان يتم عادة مبادلتهم لقاء المال. أما الغنيمة فكان مستخدمو هؤلاء المرتزقة، كالإقطاعيين والملاك وخلافهم، يشاركونهم فيها. نظام الإرتزاق أنشأ معه نظاماً اجتماعياً كاملاً فى العصور الوسيطة يختلف تماماً عن نظام الضبط والتأهيل الذى تلاه. فلقد كان المرتزقة يتحركون فى أعداد غفيرة، يرافقهم نساؤهم وأطفالهم، بالإضافة إلى كتيبة من الطباخين والخدم والعاهرات والمهرجين. ينزلون البلاد فيعيثون فيها فساداً، ويوقعون فيها الكثير من النهب والسلب والخراب. كتب ميكافيللى عن الكوندوتيرى: «الحاكم الذى يعتمد على المحاربين المرتزقة لا يقف أبداً على أرض راسخة. فالمرتزقة سفلة، محبون للسلطة، لا مبادئ لهم، خونة وغدارون، مستكبرون أمام الأصدقاء جبناء أمام الأعداء، لا يخافون الله ولا الحاكم. فى وقت السلم ينهبون الأراضى وينهبها فى وقت الحرب العدو. والسبب فى ذلك أنه لا دافع لهم إلى الحرب سوى الغنيمة التى يحصلون عليها، والتى لا تكفى لأن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة من أجلها. إنهم جنودك مادامت الحرب لم تقع، فإذا وقعت تراهم يتأخرون أو يفرون».

أما حروب القرن الثامن عشر التى اتخذت قرارها حكومات الأرستقراطية الأوروبية، فلم يشنها مرتزقة ولكن جنود نظاميون يحصلون على مرتب ثابت من الدولة. جنود جيدة التدريب تعيش فى معسكرات وترتدى الزى العسكرى. يعود الفضل فى تدريبهم وتسليحهم بعتاد متطور إلى دافعى الضرائب فى النظام الرأسمالى الوليد، بالإضافة بالطبع إلى ذهب العالم الجديد الذى نُهب، وبدونه لم تكن هناك وسيلة لدفع تلك التكاليف الباهظة. المعسكر أصبح بجانب الدير النموذج المثالى لمراكز الضبط والتأهيل. التدريب العسكرى للجنود هو الشكل المبكر للسلطة الحيوية الموجهة مباشرة نحو الجسد. كل يوم يتدرب الجنود على كل ملليمتر حركة، المارش، حمل السلاح، أداء التحية.. إلخ، ولكى يتفهم المرء القفزة التى قفزتها السلطة الحيوية فى ذلك الوقت عليه فقط أن يفكر لثوان فى الفارق بين مرتزقة عبيد الحقول وجند القيصر فريدريش الثانى المدربين، فهؤلاء الأخيرون لا يردون الماء للتزود إلا بصفوف محاذية ينظمها الخيالة حتى لا يقع التزاحم والفوضى.



فى المحطة الثالثة تقف الشركات الرأسمالية الخاصة، والتى قامت بإنشاء جهاز البوليس الخاص بها فى المستعمرات. فلقد كانت المستعمرات وحتى بداية القرن التاسع عشر تقع تحت سيطرة شركات خاصة لا دول. وقامت تلك الشركات بحربها ضد شعوب المستعمرات مسلطة عليهم أقصى أنواع الاستغلال والسيطرة والاستعباد. ونجد حتى الآن فى الحروب الطرفية صدى لذلك النوع من الحروب. وهكذا فقد احتفظت شركة الهند الشرقية الهولندية Oost-Indische Campagnie Vereenigde لنفسها باحتكار حمل السلاح وإطلاقه فى جاوا وحتى عام ١٨٠٠، وفى الهند قامت شركة الهند الشرقية East India Company بنفس الاحتكار حتى عام ١٨٥٦. أما فى جنوب أفريقيا فقد استمرت سلطة الشركات الرأسمالية حتى نهاية القرن التاسع عشر. وهكذا ففى الوقت الذى كانت فيه المستعمرات ترزح تحت المذابح والاستغلال وحروب الإبادة، كانت أوروبا وفى خط موازٍ تمر بعصر النهضة وتطور سلطتها الحيوية فتدخل مفهوم الحرب النظامية بين دولها، وتمارس الضبط والربط فى مصانعها وثكناتها فقط بعد بداية الإمبريالية بأربعمائة عام بدأت الدول المستعمرة كبريطانيا وهولندا وفرنسا والبرتغال بربط مستعمراتها بنظامها القانونى وجهازها البيروقراطى.

وقبل أن تكتمل هذه السردية أود أن أشير إلى التحول من حرب الحكومات إلى حرب الشعب ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فعندما دعى الفرنسيون إلى حمل السلاح فى عام ١٧٩٣ للدفاع عن جمهوريتهم الوليدة، اتخذ ذلك شكل حرب ثورية تحرك الحشود بكثافة: «منذ هذه اللحظة وحتى يتم طرد كل معتدٍ من أراضى الجمهورية، يعتبر كل فرنسى فرداً مطلوباً لخدمة الجيش. فالرجال سيحملون السلاح ويذهبون إلى القتال، والمتزوجون منهم سيحشون الأسلحة ويؤمنون الإمدادات، والنساء سيحكن الملابس والخيم ويمرضن المصابين، والأطفال سيجمعون الملابس القديمة ويجعلون منها أربطة وأحزمة، أما العجائز فعليهم التجمع فى الميادين الكبيرة لدعم المحاربين ورفع روحهم المعنوية وإظهار الكراهية للملك وتمنى وحدة الجمهورية». وهكذا حدث ما أعلنته حرب الاستقلال الأمريكية وهو عودة المواطنين إلى حيز الحرب. لقد استبدل عسكر الملكية النخبوى بحشود الجمهورية العريضة.

عند هذه النقطة تزداد السردية كثافة وتنوعاً، فتتجاوز تلك الأنواع جوار بعضها، حرب مرتزقة جوار حرب نظامية بين الدول، جوار حرب شركات استعمارية، جوار حرب ثورية، جوار حرب حشود. فالنازية وكذا مقاومتها قد استدعيتا كل أنواع الحرب تلك فى نفس الوقت. والآن وبعد نهاية حركة عدم الانحياز، ونهاية الحرب الباردة، وفشل الحركات التحررية، بعد انهيار الاشتراكية الواقعية، وبعد الحادى عشر من سبتمبر، يبدو أننا تاريخياً واقعون تحت سيطرة حكم استبدادى، يريد أن يوسع مناطق تدخله حتى تشمل العالم كله، مبرراً ذلك بخلطة تجمع أرباح شركات السلاح الخاصة بقوانين البوليس العرفية بحالة الحرب الدائمة هادئة الشعلة بالعدالة وحقوق الإنسان.

البوليس دائماً هناك:

المنظر الإيطالى جيورجى أجامبى Giorgio Agamben حاول مؤخراً استخدام كارل شميت لصياغة شكل شديد التجريد لحقيقة السلطة الحيوية الحديثة. فهو يبدأ بملاحظة كارل شميث أن الداخل فى الدول القومية يميل لأن يكون أرضية خصبة لنشأة البوليس. فيقول: «إن تحقق السلام الداخلى وانتهاء الحرب الأهلية التى اشتعلت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بين أطراف يؤمنون أن كلا منهم على حق، وانتشار الأمن والأمان فى كل مكان، كل ذلك قد تحقق لأن داخل الدول لم يعد فيه أى سياسة، لم يعد فيه سوى بوليس. وبدونه ماكان للدول الكلاسيكية الأوروبية أن تقوم».

مشروع أجامبى يسعى لإظهار العلاقة بين العنف وسن القوانين، ونقد السلطة الحيوية من منظور القانون وليس من منظور الانضباط كما فعل

الذين يستثمرون حروب الأرض من كرواتيا حتى كولومبيا لبيع أسلحتهم وأنظمة مراقبتهم، هؤلاء يبقون فى الظل ولا يطولهم النقاش

فوكو. القانون ونظرية السيادة عند فوكو هما عرضان للتزييف الذاتى الذى تقوم به السلطة وذلك لتضع هالة حول الذات المستسلمة من ناحية، وتسوغ وحدة السلطة، وتوجب احترام القوانين الملزمة من ناحية أخرى. على خلاف ذلك يهتم أجامبى بتلمس خيط السلطة الحيوية داخل القوانين نفسها، خيط يتكون عليه قانون البوليس، خيط شديد السلبية. هذا الخيط يوضح مالم يتحدث عنه فوكو كثيرا، ألا وهو بعد الموت الذى يسكن سلطة تتحدث باسم الحياة. بدلاً من الحجز الداخلى وراء أسوار المصحات والثكنات، يُنظر أجامبى لفهم جديد للعلاقة بين الداخل والخارج، حيث يتم تعريف الخارج بأنه مكان ينبغى تطويقه لمنعه من تشكيل أى تهديد، أو بمعنى آخر تكوين حجز خارجى يسوده قانون هو بالتعريف تعطيل لكل قانون، كما يحدث فى قاعدة جوانتانامو على سبيل المثال. منطلقًا من جملة كارل شميت «المسيطر هو من يملك حق إعلان قوانين الطوارئ»، يشير أجامبى إلى أشد الحقائق سواداً وفاشية والتى تعتور مجتمعات السلطة الحيوية الحديثة. إن إقرار الأحكام العرفية كحالة قانونية هو تناقض فى حد ذاته، حيث يسرى مفعول قانون هو فى الواقع تعطيل لكل قانون، ولهذا يرى أجامبى أن حالة الأحكام العرفية هى أوضح صور استبدال القانون بالعنف، والتى هى فى الواقع مهمة البوليس. فمن أجل الحفاظ على الأمن العام والدفاع ضد الأخطار المحيطة يحق للبوليس إصدار الأحكام العرفية وغيرها من الإجراءات الخاصة.

فوكو يفحص بعد البوليس بشكل تاريخى أركيولوجى. ففى دراسته عن الحكم يحلل على سبيل المثال دور وشكل المعرفة البوليسية فى جامعة جوتنجن فى القرن الثامن عشر، حيث تخرجت نخب البيروقراطية البروسية والنمساوية والروسية. هذه المعرفة البوليسية المستقاة من علم القانون، والتى يعتبرها فوكو النموذج الأساسى لاتحاد الحكم بالسلطة الحيوية، كانت تشمل على دراسة تعداد السكان، تحديد النسل، الرعاية الصحية والاجتماعية، تحديد الهجرة، التحكم فى وسائل الإنتاج، السيطرة على دورات المال وإصدار المستندات والحصول على القروض، باختصار دراسة كل ما من شأنه التشجيع على علاقات جيدة ومثمرة بين الأشخاص والبضائع.

أما تنظير أجامبى الخاص بمنطق قانون البوليس وحالات الطوارئ فيقع فوق مستوى أكثر تجريداً. حيث يبين كيف ينجح منطق البوليس ذلك فى أن يخلط بسهولة القانون بالعنف فى قلب المجتمع على الصعيد الداخلى أو الخارجى. أما أكثر تصوراته جنونًا فهى تلك التى تخص إرجاع التعددية التاريخية لعلاقات السلطة إلى بنية أساسية تقوم على المنع السياسى، أى سريان القوانين عن طريق تعطيلها. وما يغيب فى تحليل أجامبى كمنظر للسلطة الحيوية هو الاشتباك مع العلاقات المتزامنة لرأس المال. فإذا أضافها المرء على سبيل التجريب، استطاع المرء أن يخرج من ذلك بتصور عن الداخل الذى تشكله رأسمالية إمبريالية منسجمة، داخل تتحكم فيه قوانين البوليس والطوارئ التى أصبحت تشكل سلطة حيوية مسيطرة قادرة على إنتاج ميكانزمات متعددة تزيح دومًا الخط الفاصل بين الداخل والخارج فى قلب الحياة. هذا الخط الذى يحدد قبل كل شىء بسياسات عنصرية ضد المهاجرين وشن حروب بوليسية.



إن الحرب البوليسية هى ذلك النوع من الحروب الاستبدادية الذى يسكن الفضاء الداخلى للرأسمالية العالمية. الحرب البوليسية لا يمكن الانتصار فيها. البوليس دائمًا هناك. الحرب البوليسية لا تهدف إلى مجرد إسقاط منطقة جغرافية واحتلالها، ولكن إلى جعل منطقة جغرافية لينة مطواعة.

ولذلك لا توجد نهاية حقيقية لتلك الحرب. من هنا يأتى الاقتباس الذى يظهر فى أول فيلم «صقر أسود يسقط» مناسبًا تمامًا. الاقتباس من أفلاطون ويقول: «فقط الموتى هم من رأوا نهاية الحرب». إن الأمر يتعلق بتمرير بضائع ورؤوس أموال وخدمات ووسائل إنتاج عبر منطقة جغرافية معينة، بل وأيضًا ضمان سلامة عملية التمرير تلك. الأمر يتعلق بسرطنة الفضاء. الحروب التى لا تنتهى لابد أن تبقى جذوتها مشتعلة عن طريق إجراءات المراقبة والسيطرة. يستطيع المرء أن يراقب ذلك بجلاء منذ الحادى عشر من سبتمبر. فحتى قبل إطلاق عملية «الحرب الدائمة Enduring Freedom» قامت معظم الدول بتعديلات جذرية فى قوانينها لتسهيل وحراسة الحرب العنصرية على الإرهاب. إن البحث عن سبب أولى للحرب لا طائل من ورائه، فسواء أكان البترول أو الأمن أو محاربة الإرهاب، فإن الحرب البوليسية حرب معقدة يجدر متابعة مختلف خطوطها السياسية والأيديولوجية والمادية فى نفس الوقت.

حــــرب دائــمـــة:

نظام الحكم القادر على شن حرب استبدادية شاملة يجيب على الحروب الطرفية الصغيرة، التى تسبب هو نفسه فى إشعالها، بحربه الكبيرة. إن الصومال، تلك الدولة الزراعية الراقدة على امتداد القرن الأفريقى، هى واحد من أفضل الأماكن التى تمنحنا تصوراً حقيقياً لما بعد الكولونيالية: سلاح ينهمر عليها من الشرق والغرب فى مقابل حق استخدام قواعد عسكرية فى خليج عدن. جماعة قبلية صغيرة تتولى الحكم دون أى مشروع إنمائى، نظام حكم عسكرى منذ العام ١٩٦٩ قائم على تحريك المشاعر القبلية والوطنية مما أدى إلى اشتعال الحرب الأهلية. الصومال هى واحدة مما يسمى بالدول الساقطة Failed States التى أعلنت أمريكا احتفاظها بالحق فى التدخل العسكرى وشن حرب عليها وقتما تشاء، بالطبع من أجل حماية للأمن العالمى. وبالذات فى هذا البلد الساقط تواجه أمريكا فيتنام أخرى صغيرة.

فى بداية التسعينيات أصبحت الصومال حقل تجارب تختبر فيه الأمم المتحدة سياسة التدخل، وذلك تحت قيادة بطرس بطرس غالى. مهمة الأمم المتحدة التى تم بمقتضاها للمرة الأولى فرض السلام عن طريق الحرب فشلت فى الصومال، وأوقفت المهمة عام ١٩٩٥. إن ما يجمع حروباً استبدادية مختلفة مثل حرب الصومال وحرب يوغسلافيا وغيرها هو محاولة تغيير اقتصاد الحرب الأهلية إلى اقتصاد المحميات التابعة للنظام الكبير.

بعد شهر واحد من مهاجمة يوغسلافيا قرر حلف الناتو اعتماد استراتيجية جديدة تتيح له التدخل العسكرى فى كل مكان. كان ذلك فى أبريل ١٩٩٩ وفيها يتم بوضوح تعريف التدخل العسكرى بأنه تدخل عابر للحدود الجغرافية بطبيعته. وبهذا لم يعد الناتو حلفاً شمال أطلسى ولكن، وبشكل نهائى، كتيبة شرطة تتدخل فى أى مكان لحل أى صراع.

أما الأسباب المذكورة والتى تعد معكرة للسلام الأمريكى، الأوروبى، وبالتالى موجبة لتدخل تلك الكتيبة فهى نفسها الأزمات التى يتكشف عنها النظام الرأسمالى: نزاعات حول مناطق جغرافية، عدم احترام حقوق الإنسان، صراعات إثنية، حل دول بأكملها، حركة أعداد ضخمة من البشر دون السيطرة عليها، الإرهاب، الجريمة المنظمة، قطع إمدادات الإغاثة. هذا السيناريو يحيل إلى نظرية أجامبى، فنحن أمام فضاء داخلى بحجم العالم حيث تتحكم قوى البوليس الحصار دورياً حول أى بقعة خارجية جديدة، وذلك باسم الصراع ضد الآخر الشرير: تاجر المخدرات أو الإرهابى، أو الصراع من أجل الموارد والمصادر، أو الصراع من أجل العدالة وحقوق

عندما توقف حق حمل السلاح عن أن يكون حكراً على الأمير أو النبيل فقط، ظهر فى ألمانيا جيش عبيد الحقول، وفى إيطاليا مرتزقة الكوندوتيرى. وقد اعتبر كارل ماركس أنهم فى بيعهم لقوة عملهم الحربى صورة مبكرة لعمال اليومية





الأذكيــاء

فراسة معاوية وعمرو بن العاص

ومن المنقول عن معاوية بن أبى سفيان، أخبرنا المدائنى، عن ربيعة بن ناجد قال: قيل لمعاوية: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما وثقت بأحد قط.

وبلغنا أن رجلاً جاء إلى صاحب معاوية فقال له: قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك، ثم قال له: ما أعرف هذا، ثم قال: ائذن له، فدخل، فقال له: أى الإخوة أنت؟ فقال: ابن آدم وحواء. فقال يا غلام: أعطه درهمًا. فقال: تعطى أخاك لأبيك وأمك درهمًا. فقال: لو أعطيت كل أخ لى من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا.

ومن المنقول عن عمرو بن العاص: أنه لما فتح قيسارية سار حتى نزل على غزة، فبعث إليه علجها (قائدهم من العجم)، أن أرسل إلى رجلاً من أصحابك أكلمه، ففكر عمرو، فقال: ما لهذا العلج أحد غيرى؟ فقام حتى دخل على العلج فكلمه، فسمع كلامًا لم يسمع مثله قط، فقال له العلج: حدثنى هل من أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن هوانى عندهم إذ بعثونى إليك، فلا يدرون ما تصنع بى. قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه. فمر برجل من النصارى من غسّان فعرفه، فقال يا عمرو: قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج، فرجع، قال له الملك: ما ردك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتنى فلم أجد ذلك ليسع بنى عمى، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية. قال: أعجل بهم، وبعث إلى البواب خل سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن قال: لا عدت لمثلها أبدًا. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج فقال له: أنت هو؟ قال: على ما كان من غدرك.



الإنسان. فضاء داخلى تحكمه استراتيجية ترسى القوانين وفى نفس الوقت تعطلها، مما يعنى فى الواقع انفجار سياسة الأحكام العرفية.



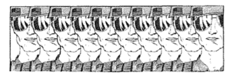
لقد قرر حلف الناتو فى اجتماعه عام ٢٠٠٢ فى مدينة براغ تأسيس قوى عسكرية سريعة التحرك وفائقة التجهيز، تدعى قوى الردع Nato Response Force وبذلك تضم الإدارة الأمريكية حلف الناتو بجانب الاتحاد الأوروبى والتحالف الدولى ضد الإرهاب. قوة ردع الناتو هى قوة منافسة لقوة التدخل الأوروبية المزعمة. كلاهما سيستخدم المقر الأساسى لحلف الناتو، وكلاهما سيتشكل بنفس الحصص من كل دولة. قوة ردع الناتو سيكون باستطاعتها خلال مدة تتراوح بين أسبوع وثلاثين يومًا التدخل فى أى مكان فى العام، وهى مدة زمنية أقصر من المدة التى يحتاجها البرلمان الألمانى لاستصدار قرار إرسال قوات على سبيل المثال. قوة الردع تتكون من ٢١ ألف جندى وستصبح بدءًا من أكتوبر ٢٠٠٤ قابلة للإنزال. وفى المقابل يخطط الاتحاد الأوروبى إلى تدشين قوته عام ٢٠٠٣ قوامها ٦٠٠٠٠ جندى، بمقدورهم خلال ستة أيام وفى محيط ٤٠٠٠ كيلومتر من بروكسل التدخل فورًا. حصة ألمانيا فى تلك القوى هى ١٨٠٠٠ جندى وهى تعادل ثلث قوة التدخل البوليسية تلك، والتى يقع أحد مقرات قيادتها فى مدينة بوتسدام.

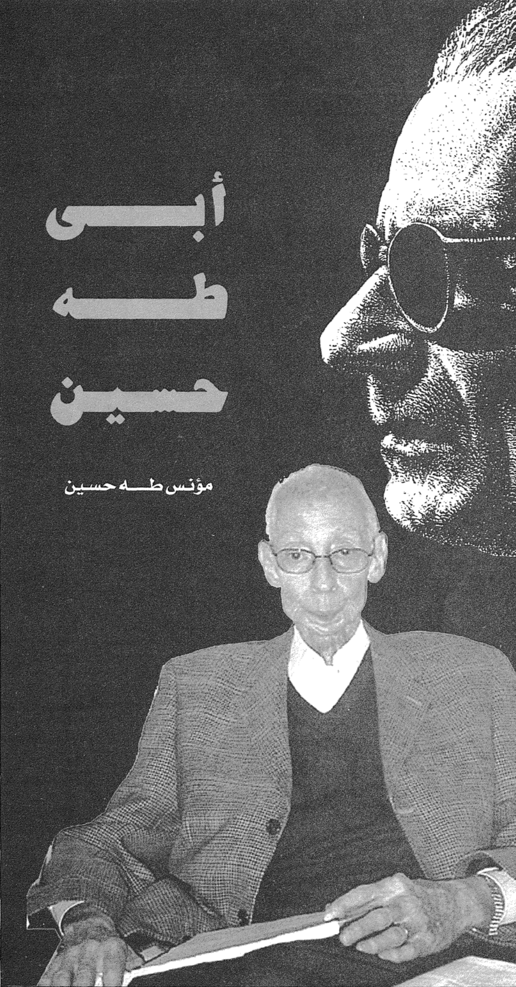
إن ضربات الحادى عشر من سبتمبر عجلت بتكوين نظام حكم قائم على السيطرة وشن حروب بوليسية. وهكذا تعتبر استراتيجية الأمن القوى للإدارة الأمريكية الجديدة الحرب الوقائية أمرًا مشروعًا فى حربها ضد الإرهاب. الوقاية هى وظيفة البوليس، هى لب السلطة الحيوية حيث يتم وضع ترتيب للأشياء والبضائع والآدميين، أو بمعنى آخر ضمان توازن قوى منتج. ورقة الاستراتيجية الجديدة هى تحفة فى استخدام منطق البوليس. على كل صفحة من صفحات هذه الاستراتيجية يتم التأكيد على العلاقة المشتركة بين الرأسمالية والحرية والأمن. وهى تربط وتطور فكرة الحرب على الدول المارقة إلى الحرب ضد التنظيمات الإرهابية غير المرتبطة بدول. والمفصلة التى تستند عليها هى إنتاج أسلحة دمار شامل من قبل الدول المارقة ثم بيعها للتنظيمات الإرهابية. تقول تلك الورقة: «سوف نقوم بمحاربة التنظيمات الإرهابية بكل الوسائل القومية والعالمية المتاحة، وسوف نشن عليهم حربًا مستمرة حتى نمحقهم وندمر خلاياهم. أهدافنا الرئيسية هى أى جماعة تعمل فى نطاق دولى، وأى دولة تقوم بمد يد المساعدة للإرهاب، وأى محاولة للحصول على أسلحة دمار شامل من أجل أهداف إرهابية، سوف نقوم بحماية الشعب الأمريكى والمصالح الأمريكية فى الداخل والخارج، وذلك عن طريق اكتشاف الخطر مسبقًا ثم تدميره قبل أن يصل إلى حدودنا. ولن نتردد عن استخدام ضربات استباقية لحمايتنا إذا استدعى الأمر ذلك».

وفى ديسمبر ٢٠٠٢ ناقش الكونجرس الأمريكى الموافقة على استخدام أسلحة نووية فى الحرب ضد الدول المارقة إذا ما استخدمت تلك الدول أسلحة دمار شامل ضد أمريكا أو أحد حلفائها. حتى أن دونالد رامسفيلد قام عمليًا بتغيير مبادئ استخدام السلاح النووى وذلك بطلبه صناعة ما يسمى بقنابل نووية صغيرة أو Mini Atom Bomb. ■

هــامــش:

(*) الفوردية نسبة إلى هنرى فورد، وتشير أساسًا إلى طريقة تقنين العمل عن طريق استخدام السير المتحرك، وتقسيم المصنع إلى هيراركية عمال ومهندسين، ومحاولة ضبط وتنظيم خطوات الإنتاج بمعادلات رياضية كما كان الحال فى مصانع فورد الضخمة لإنتاج السيارات. ما بعد الفوردية هى توصيف لظروف العمل فى السبعينيات، حيث تختلف بشكل جذرى عن الفوردية فى محاولتها لدمج العمال فى مؤسساتهم، ودفعهم للمساهمة الإيجابية فى تحسين إنتاجية العمل، واستخدام وسائل التحكم الأوتوماتيكية، بالإضافة إلى مرونة نقل رأس المال والاستثمار فى المناطق رخيصة العمالة كدول جنوب شرق آسيا.





أبى طه حسين

مؤنس طه حسين

الصورة الفوتوغرافية من «الحياة» اللندنية

■■ حينما نشرت الصحف نبأ وفاة الدكتور مؤنس طه حسين نجل عميد الأدب العربى طه حسين فى ٢٧ نوفمبر الماضى بباريس فوجئ القراء بأن الابن البكر للدكتور طه حسين بلغ عند وفاته هذا العمر المديد ٨٢ عامًا ومبعث ذلك أن أخبار مؤنس غابت تمامًا عن الإعلام منذ سنوات طويلة وظل فى الذاكرة المصرية والعربية ذلك الشاب ابن طه حسين الذى كان يقدم له النصائح باعتباره ممثلاً للجيل الجديد.

وما بين تلك السنوات البعيدة (عقد الستينيات حينما اختار مؤنس طه حسين الإقامة فى فرنسا والعمل فى اليونسكو) وتاريخ الوفاة جرت فى النهر مياه كثيرة، فقد توفى عميد الأدب العربى عام ١٩٧٣ وانقطعت أخبار مؤنس عن مصر والعالم العربى وعاش فى فرنسا كأحد أبنائها يكتب ويؤلف باللغة الفرنسية ويترقى فى الوظائف فى قسم الترجمة باليونسكو ولم يكن يزور مصر إلا لمامًا وكان آخرها فى بداية التسعينيات حينما توفيت والدته.

كان مؤنس طه حسين أمينًا مع نفسه فهو قد تشرّب الثقافة الفرنسية (قال فى حديثه الأخير وربما الوحيد لصحيفة عربية هى «الحياة» نشرته بعد وفاته بأيام أنه كان يتحدث فى بيت أسرته بالفرنسية منذ الطفولة)، كما أنه درس باللغة الفرنسية وتثقف بها أيضًا فقد حصل على شهادة الليسانس من جامعة القاهرة فى اللغة الفرنسية وحصل فى باريس من دار المعلمين العليا على شهادة «الأجريجسيون» فى اللغة والآداب الفرنسية ثم عاد إلى القاهرة ليعمل أستاذًا للأدب واللغة الفرنسية بجامعة القاهرة بعد أن حصل على الدكتوراة فى الأدب المقارن عن تأثير الآداب الإسلامية فى الأدب الفرنسى من باريس أيضًا. كل ذلك جعله يختار الفرنسية حديثًا وتأليفًا بل يختار فرنسا ليتعلم فيها ولا يعنيه كثيرًا أن يواصل مسيرة والده الرائدة فى مصر والعالم العربى، ربما لإدراكه بأن حظه فى امتلاك ناصية الفرنسية أقوى كثيرًا من العربية وربما لإدراكه أن ما حققه والده العظيم لا يمكن له أن يتساوى معه أو حتى يطاوله.

ثم إن مؤنس نفسه لم يكن دائمًا يقتنع برأى أبيه عميد الأدب، مفضلاً الحقيقة التى يؤمن هو بها ويدافع عنها، على مجاملة أحد آخر حتى لو كان أباه، كما حدث عندما كان طه حسين يختصم سعد زغلول، فى الوقت الذى كان فيه «مؤنس» وأخته «أمينة» يهتفان باسم سعد زغلول، ولم يغضب طه حسين محترمًا رأى ابنه وابنته، أو كما يتذكر مؤنس «حاضرنا ونحن فى تلك السن الصغيرة عن حرب الرأى، قال لنا: إن كل فرد حر فى أن يعتنق وأن يدعو إلى الرأى الذى يراه بشرط

كان أبى يملى كتبه وقد كان يرفض دائماً أن يعيد قراءتها، أقصد أن تعاد قراءة التجارب (المطبعية) على مسمعه، وكان يعهد بذلك إلى من يرى فيه الكفاية، وفى اعتقادى أنه لم يراجع قط سطراً واحداً بنفسه، فالدفق الأول فى كتابته كان الأخير دائماً



واحد وهو أن يكون قد فهم حقيقة وهضم هذا الرأى، وبشرط ألا يكون قد اعتنقه تقليداً ومسايرة بغير فهم» ولاشك أن طه حسين قد احترم اختيارات ابنه، كما أنه احترم ميوله إلى اللغة الفرنسية وفى نفس الوقت قرر أن يستثمرها ليربطه بتاريخه وحضارته فاقترح عليه أن يكون موضوع دراسته للدكتوراة عن تأثير الآداب الإسلامية فى الأدب الفرنسى.

ولعل طه حسين قد أسدى إلى ابنه مؤنس، النصيحة لدراسة اللغة العربية ولكنه شأن كل الفتيان والشباب تمرد على نصيحة أبيه واختار طريقه الذى اقتنع به، تماماً كما أسدى النصيحة لأحفاده من خلال والديهم. حدثتنى حفيدته سوسن الزيات قبل سفرها واستقرارها بباريس وأسرتها بجوار خالها مؤنس فقالت: «إن طه حسين رغم ثقافته الفرنسية، كان متشيعاً لأمته العربية ولغتها العربية وتراثها العربى، على سبيل المثال: أذكر أننا بعد عودتنا من الخارج دار حوار أمام جدى وجدتى، كان رأى زوجته سوزان أن نستكمل تعليمنا فى مصر فى مدارس فرنسية، بينما كان رأى الأسرة أن نستكمل التعليم فى مدارس إنجليزية خاصة أنها قريبة من البيت، أما جدى طه حسين فقد كان من رأيه الذى قاله متوجهاً إلى ابنته أمينة التى هى فى نفس الوقت والدتى: «ياشيخة أدخليهم مدارس عربية». وتؤكد حفيدته الأخرى «منى الزيات». هاجرت هى الأخرى وأسرتها إلى أمريكا . فى حوار لى أيضًا معها: «رغم أن جدتى سوزان لم تكن تتكلم اللغة العربية كثيرًا، فإننى فوجئت بها تحاول الحديث مع جدى طه حسين باللغة العربية رغم تمكنه من الحديث بالفرنسية إليها، وهى لم تكن تتحدث العربية مخافة أن تخطئ أمام الناس».

لقد حاول عميد الأدب العربى ألا تبعد المسافة بين ابنه وبين اللغة العربية ولذلك اختاره لترجمة مسرحية «روميو وجولييت» لوليام شكسبير ضمن مشروع قامت به الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية وكان يترأسها الدكتور طه حسين. ونشرت دار المعارف هذه الترجمة عام ١٩٦٠.

لكن كما سبق القول فإن مؤنس كان قد اختار مصيره وعالمه وتحول إلى فضاء اللغة الفرنسية فكتب مؤلفاته بهذه اللغة وكذلك مذكراته التى كشف عنها خلال حديثه للحياة والتى أعلنت وزارة الثقافة المصرية أنها بصدد ترجمتها إلى اللغة العربية.

وهذه محاولة للاقتراب من عالم مؤنس طه حسين من خلال نشر شهادتين نادرتين له عن والده ورسالة من عميد الأدب العربى إلى نجله. ■

إبراهيم عبد العزيز

■ لم يقض طه حسين فى «الرامتان» إلا السنوات الست عشرة الأخيرة من حياته الطويلة (فقد توفى فى الرابعة والثمانين من العمر). ولم يكن أبى من أصحاب الشعور القوى بالملكية، وإنما كان أقرب إلى البدو الرحل يهوى تغيير مسكنه (فقد كان علينا فيما أذكر أن ننتقل من مسكن إلى آخر ما يقرب من اثنتى عشرة مرة فيما بين العشرينيات والخمسينيات) إلا أن أبى أراد عند اقتراب الشيخوخة أن يستقر فى نهاية المطاف، شأنه شأن السفينة التى تتجه «بعد طول إبحار» نحو الميناء الذى ترسو عليه، ولم يكن لطه حسين أى ثروة يعتد بها، فهو لم يكن قط من الأغنياء. فكان أن اقتنى قطعة متواضعة من الأرض غير بعيدة عن طريق الأهرامات. وتولت والدتى رسم خطة الفيللا بمعونة مهندس معمارى يونانى من أصدقاء العائلة. كما تولت بنفسها رسم خطة الحديقة وغرس الأشجار فيها وزرع الزهور.

وكانت هذه الحديقة على درجة كبيرة من الأهمية فقد كان طه حسين ينفق فيها جزءاً كبيراً من وقته طالما كان بصحة جيدة، وكثيراً ما كان يجلس هنالك ليستمع إلى سكرتيره إذ يقرأ عليه الرسائل والصحف والمجلات فضلاً عن كتب الأدب القديم. ولم يكن يحول بينه وبين ذلك إلا المرض أو برد الشتاء. أما إذا أراد أن يكتب، فإنه كان يفضل الجلوس فى مكتبه الذى ينفتح على الحديقة مباشرة عن طريق فناء صغير من الطوب الأحمر، وفى هذه الحديقة التى حظيت دائماً برعاية زوجه وحبها، كان طه حسين يولى انتباهه لأشياء عديدة: يصغى فيحسن الإصغاء لما يُقرأ عليه، ولكنه فى الوقت نفسه يستغل مواهبه الفذة التى كأنما عوض بها عن كفاف بصره، فيصيخ سمعه المرهف إلى نوعين من الموسيقى أحبهما أيما حب. فقد كان يأتيه صرير الهمس الشاكس تبثه أشجار «الكازوارينا» المصطفة بمحاذاة الأسوار إذ تهزها رياح الصحراء الغربية. كما كان يصله قرب الغروب ومع هبوط الشفق صياح الكروان يشق السماء، وهو الصياح الذى أجاد وصفه فى روايته «دعاء الكروان»، صياح ذلك الطائر المهاجر الذى يُسمع ولا يُرى.. ويحضرنى بهذه المناسبة قوله ذات يوم وهو الذى كان يكره أن يشير إلى آفته (لأنه استطاع أن يتغلب عليها على نحو مثير للإعجاب) قال: «وهكذا ترى أنه لا فارق بينى وبينك فأنت تسمع غناء الكروان ولكنك مثلى تعجز عن رؤيته».

وكان أبى يحرص على أن يوضع مقعده المصنوع من القصب بالقرب من شجرة «سرو» لها مكانة فى نفسه، فقد رجا والدتى منذ انتقالها إلى «رامتان» أن تعمل على غرسها فى وسط النخيل، وذلك أن هذه الشجرة. كما قال. لا تنمو فى مصر بكثرة، وإن كانت أحد الرموز الدالة على البحر المتوسط، وكلنا نعلم كم كان البحر المتوسط عزيزًا على نفسه، بوصفه بحراً وبوصفه مهد الحضارات القديمة. وكان كثير الذكر لليونان وروما وإيطاليا وإسبانيا، كلما كان يطيب له أن يذكر بأنه ناضل طيلة حياته لكى يكون لبلاده بدورها نصيب فى البحر المتوسط.

وكان يحدث أحيانًا وهو يستمع إلى مؤلف من قدامى الشعراء أو علماء اللغة أو فقهاء الإسلام أن يداعب بيد حالمة الأوراق الحادة العطرة التى تتدلى من الشجرة الهيفاء.

وكان المكتب بطبيعة الحال أعجب غرفة . أو لنقل أعجب مكان . فى «الرامتان»، وذلك رغم بساطته، فهو حجرة فسيحة مربعة تنفتح على الحديقة كما قلت عن طريق بهو من حجر، عرشه نبات متسلق، وكان ينثر فيه زهوره البنفسجية على مدار العام، وكان أثاث الغرفة بسيطًا لا تكلف فيه، فثمة منضدة لا تنتمى إلى طراز بعينه، ومقعدان وأريكة، وموقد ضخم من النحاس الأحمر. وكان مكتب طه أشبه بالمكتبة الصغيرة فقد امتدت على ثلاثة من جدرانها الأربعة رفوف من الخشب الداكن المصقول، عليها ما يقرب من ستة آلاف مجلد جمعها الكاتب فى مختلف فترات حياته، ومن بينها كثير من المؤلفات ذات القيمة الفريدة. ولم يكن فى الغرفة من زينة سوى تمثال نصفى للعميد من صنع النحات المصرى عبد القادر رزق، وصورة (بالباستيل والفحم) من عمل فنان نمساوى.



وفى تلك الغرفة كان أبى مع تقدم العمر به يقضى معظم وقته، يتفكر ويقرأ أو يملى ويستقبل أصدقاءه، وفى ذلك المكان تحدث عدة مرات إلى الإذاعة والتليفزيون المصرى. وهنالك كثير من الوثائق المصورة التى تخلد ذكرى حضوره المضىء فى تلك الغرفة التى خلت من الزينة ولكنها امتلأت بجو خاص فريد.

إلا أن الصور والأفلام القصيرة التى صورت فى هذه الغرفة لا يمكنها أن تنقل إلى المشاهد سر السحر العجيب لتلك الغرفة التى كانت ملاذًا للفكر، ولا تلك القوة الجذابة الخلابة، وأعز بذلك صوت أبى، فقد كان صوته هذا يملأ المكتب بموسيقى فريدة، سواء أكان يملى كتابًا أو مقالة، يجيب عن أسئلته لصحفى أو يسجل حديثًا للبث الإذاعى أو يتجاذب أطراف الحديث مع زائر أو صديق أو قريب أو تلميذ سابق أو أحد المعجبين. ومن المعروف أن هذا الصوت قد أسهم فى ذيوع شهرته، فإذا حاضر فى المدرجات الجامعية خلب صوته الألباب بحيث يصدق عليه ما يقال عن «تعلق الإنسان بشفاه محدثه».

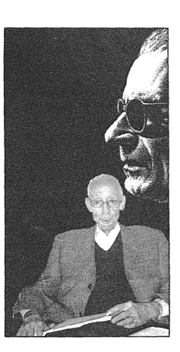
وكان أبى يدرك تمامًا حسن صوته، ولم يكن يفوته أن يزهو به رغم تواضعه، إذ يبدو أننى ورثت عنه هذا الصوت، وحدث ذات يوم أن قال لى أحد من الناس بمحضر من أبى أن صوتى جميل، فما كان من هذا إلا أن رد بشىء من المكر: «هذا صحيح، ولكن صوته ليس جميلاً جمال صوتى»!

ولذلك فإنى أرجو أن يفكر المسئولون فى تزويد متحف «الرامتان» ببرنامج سمعى بصرى يتيح للزوار أن يروا ويسمعوا طه حسين فى مكتبه. فبذلك يعود إلى الغرفة رنين أصداء العقل والنفس اللذين طالما أوتيهما، وتنبعث الأنغام العذبة التى أضفاها صاحب المكتب على اللغة العربية، فقد كان أعرف الناس بمواردها التى لا تنفد.

لم يتعلم أبى الموسيقى قط، ولكنه كان صاحب أذن مرهفة. كان شديد الحساسية بالنسبة لإيقاعات الشعر العربى القديم ورنينه، كما كان يتمتع باستعداد طبيعى لفهم الأصوات، وكان قادراً على تذوق الموسيقيين الغربيين ولا سيما موزار، تماماً كما كان يقدر الأغانى المصرية كأغنيات أم كلثوم على سبيل المثال.

ولقد كان يهوى الاستماع إلى تلاوة القرآن (فقد كان فى غرفة نومه بالطابق الأول من «الرامتان» مذياع صغير يتيح له الاستماع إلى القرآن يوميًا) وكان حبه ذلك راجعاً بطبيعة الحال إلى عظمة الكتاب الكريم، ولكنه كان يرجع أيضًا إلى جمال موسيقى الآيات إذ يتلوها أو يصدح بها أحد كبار المقرئين.

ومن المناسب بطبيعة الحال أن يحتوى هذا



المعرض الصغير المخصص لذكرى طه حسين على النياشين والأوسمة التى تلقاها (وهى كثيرة العدد وجاءته من أنحاء العالم المختلفة. وإن لم يغتر بها لأنه كان يعلم جيداً أن قيمة الرجل لا تقاس بعدد الأوسمة التى يتقلدها حتى ولو كانت من الذهب) والأنسب من ذلك أن يحتوى المعرض على الترجمات العديدة التى وضعت لمؤلفاته الرئيسية. وخاصة رواياته. بلغات جد مختلفة. ويكفى هنا أن نتذكر أن كتاب «الأيام» قد ترجم ونشر بعشرين لغة تقريبًا، وأن أعماله الأساسية قد ترجمت ونشرت باليابانية!

ولا يقل عن ذلك أهمية أن تعرض الدراسات العلمية والبحوث الجامعية التى وضعت عن طه حسين بالعربية وبغيرها من اللغات مثل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية. فإذا لم يتيسر ذلك فلتعرض على الأقل قائمة بهذه الكتابات. ويبدو لى أن من شأن هذه الدراسات الجامعية والمقالات والأحاديث التى ألقيت فى مؤتمرات وندوات دولية أن تقدم فكرة دقيقة ووافية عن اتساع نفوذ طه حسين المفكر وطه حسين المربى على صعيد العالم.

وأخيراً يا حبذا لو تضمن المتحف واجهة زجاجية تعرض كل درجات الدكتوراة الفخرية التى تلقاها طه حسين من جامعات شرقية وغربية، وذلك مع الشهادات مصحوبة بالصور الفوتوغرافية التى التقطت فى تلك المناسبات.

صحيح أن أبى كما قلت من قبل لم

حـــــوار

احترم ميوله إلى اللغة الفرنسية وفى نفس الوقت قرر أن يستثمرها ليربطه بتاريخه وحضارته فاقترح عليه أن يكون موضوع دراسته للدكتوراه عن تأثير الآداب الإسلامية فى الأدب الفرنسى

■ أجرى الصحفى والكاتب الفرنسى المهتم بالثقافة العربية والإسلامية فيليب فاردنال حواراً مع الدكتور مؤنس طه حسين عن والده بمناسبة مئويته نشرها فى مجلة «Arabies» وقد ترجم منجى الشملى الأستاذ الجامعى التونسى هذا الحوار ونشره فى كتاب بعنوان «طه حسين فى مرآة العصر» وصدر عن المجمع التونسى للعلوم والآداب والفنون ٢٠٠٢.. وفيما يلى نص الحوار:

س: لقد عرف الجمهور الفرنسى طه حسين من خلال كتابيه «الأيام» و«أديب» كيف كان ينظر إلى الجانب الروائى من مؤلفاته؟

ج: كان التأليف الروائى بالنسبة إليه ترويحًا عن النفس، ولحظة استراحة فى غمرة الإبداع، ولكن أعتقد أنه أدرك بعد ذلك أن هذا القسم «الروائى» من أعماله هو الذى سيبقى، أو على الأصح هو الذى سيكون أطول بقاء.

من المعلوم أن أبى كان يملى كتبه وقد كان يرفض دائمًا أن يعيد قراءتها، أقصد أن تعاد قراءة التجارب (المطبعية) على مسمعه، وكان يعهد بذلك إلى من يرى فيه الكفاية، وفى اعتقادى أنه لم يراجع قط سطرًا واحداً بنفسه، فالدفق الأول فى كتابته كان الأخير دائمًا.

ولكن نصوصه تؤكد. بما هى عليه من إعداد جيد. أنه كان قد فكر طويلاً ومليا قبل إملائها. كان يحمل الكتاب فى صدره. إنه المخاض الصادق، وكان كل من فى البيت يدرك ذلك، فإذا الرجل مريد الوجه، ذاهل عن كل شىء، غائب عمن حوله. وكانت أمى تخاطبه قائلة: «الظاهر من أمرك يا طه أنك الآن على أهبة إملاء كتاب جديد».

س: إن استحالة تسجيل التقييدات، واستحالة الكتابة الفعلية على الورق واستحالة القراءة، تجعل مهمته أشد عسراً بصفته كاتبًا، وقد تضطره إلى الاستعانة بغيره. كيف كانت علاقاته بالآخرين؟

ج: كان من المأمول أن يصبح أبى مجرد قارئ للقرآن. ولكن سرعان ما أظهر ذكاء فائقًا، وخصالاً ممتازة. وكذا استطاع أن يفلت من مصيره. ولكن العبقرية وحدها لا تكفى. لقد أعانوه. أعانه أولاً أخوه الشيخ أحمد الذى كان رفيقه فى الأزهر. كان يقرأ له نصوصًا، فيحفظها أبى عن ظهر قلب وقد استمع لها مرة واحدة، ثم أعانته فى مدينة «مونبلييه»، وبعدها فى مدينة «باريس» تلك المرأة التى كانت فى بداية أمرها تقرأ له ، ثم صارت خطيبته فزوجته. ما كانت أمى تحسن اللغة العربية. كانت تستطيع أن تقرأ له نصوصًا بالفرنسية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية واليونانية واللاتينية.. فكانت لديه بمثابة السكرتيرة التى لا تفارقه ساعة. وقد استعان بعد ذلك بسكرتير مصرى يقرأ له باللغة العربية. الحق أنه استعان بأكثر من واحد، ولكنه قليلاً ما كان يرضى عنهم لأنهم غالبًا ما كانوا يقعون فى أخطاء لغوية، كان أبى رجلاً سمحًا متواضعًا، وكان إلى ذلك معجبًا بنفسه ذا كبرياء، كان يزعم أنه وحيد زمانه فى إتقان اللغة العربية!، ولا يضاهيه فى ذلك أعضاء المجمع اللغوى فى القاهرة أو فى دمشق!، فهم. فى نظره. ليسوا على تمام الإتقان للغة العربية.

س: كيف يضبط منزلته بين أدباء عصر؟

ج: لم يكن أصلاً يضبط لنفسه منزلة ما بين أدباء عصره. كان يعد نفسه نسيج وحده، ليس خيراً منهم، ولكنه فرد لا ند له، إنه على حدة، تمامًا على حدة. لم يكن راضيًا أصلاً عن الروايات القليلة التى كانت ظهرت فى مصر فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. وكان يعتقد أنه منشئ الرواية فى الأدب العربى. أما الكتاب الشبان الذين جاءوا بعد ذلك فهو الذى أحاط جلهم بالرعاية والتأييد.

س: كيف كان طه حسين يرى تطور مصر الثقافى؟

ج: كان يعتقد أنه بالإمكان تمامًا الحفاظ على الطابع الخاص والذاتية الثقافية، مع الاستفادة من ثقافات أجنبية كثيرة خاصة منها الثقافات الغربية. إن هذا الأمر عنده بديهى. وكان يعلن فى بساطة قائلاً: «إن مصر عربية فى جوهرها ولكنها متوسطية كذلك»، ولهذا السبب كان يولى دراسة اللغات

يكن يعلق كبير أهمية على ما تلقى من أوسمة ودرجات فخرية، إلا أنه كان شديد الاهتمام بما يلقى من تقدير وتكريم من نظرائه من كبار الجامعيين ومشاهير العلماء ومدراء الجامعات ورؤساء المجامع العلمية، وأذكر هنا أن شيئًا لم يسعده قدر سعادته بالدكتوراة الفخرية التى حصل عليها من جامعة «أكسفورد»، وهو أمر مفهوم تمامًا لدى الكثير الذى يمكن أن أقول عن هذا المسكن الذى يراد له الآن أن يكون أثرًا تاريخيًا. فقد عشت فيه سنوات عديدة إلى جانب أبى قبل أن أرحل إلى الخارج بصفة نهائية. غير أنى أشعر بشىء من الحرج كلما طلب إلى أن أتحدث أو أكتب عن أبى. وذلك أننى لا أستطيع أن أتحدث عن الرجل فى حياته العامة، أو الكاتب والأستاذ والجامعى والوزير، وذلك لسبب بسيط وهو أن أناسًا غيرى ممن هم أكثر كفاءة قد تناولوا الموضوع وأوفوه حقه، كما لا أستطيع. أو أننى لا أريد. أن أتحدث عن الرجل فى حياته الخاصة، لأننى أعتقد أن هذا الجانب من حياته لا يعنى أحدًا. وهكذا أجدنى قد بدأت أشعر بالندم بعد أن حررت هذه الصفحات.

ولك إذن يا زائر المكان الذى توفى فيه طه حسين أن تتذكره، أو إذا شئت. أن تدعوه وأنت تستعرض هذه الآثار فى ذلك البيت المتواضع الذى كان مسكنه.(*) ■

(*) عن «نهر العميد الفياض» لنخبة من مثقفى مصر. مطبوعات صندوق التنمية الثقافية ١٩٩٦.



عناية فائقة، لا يقصد اللغة الفرنسية فحسب، بل لغات كثيرة أخرى منها الإنجليزية طبعًا، والإيطالية كذلك والإسبانية، وغيرها.

أقبل أبى على درس اللغة اليونانية واللاتينية لأنه كان يرى أن ذلك أساس تكوين ثقافى ضرورى، أما من وجهة الحضارة المتوسطية التى كان شديد الإيمان بها فإن تعلم اللغات عنده كسب حاسم. وعلى الرغم من أن دعوة طه حسين إلى هذا المسلك لم تلق تأييدًا مطلقًا فإنه وفق على كل حال، فى إنشاء شعبة للدراسات الكلاسيكية بجامعة القاهرة، تدرس فيها اللاتينية واليونانية.

س: كيف كانت طباعه وكيف كانت طريقته فى إدراك الوجود؟

ج: كان أبى مغرقًا فى التشاؤم، وإدراك ذلك سهل يسير، وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام عاهة العمى. لقد وجد العون على تخطى هذه المحنة، ومع ذلك كانت تنتابه أطوار من القنوط وصفها فى كتاب «الأيام»، لقد حدثته نفسه بالانتحار أحيانًا، وكانت تنتابه سورات يأس لا قبل لأحد بأن يكون له فيها عونًا، لا ولا حتى زوجته كانت قادرة على ذلك مع ما أوتيت من رفق وحنان.

كان ينظر إلى الأشياء دائمًا نظرة سلبية. هذا من غريب الأمور ولا سيما ونحن نعلم أنه رجل على غاية النشاط. لقد أنجز أشياء كثيرة فى حياته.. لقد بنى فى الحقيقة جزءًا من مصر الحديثة. ■



كان من المأمول أن يصبح أبى مجرد قارئ للقرآن. ولكن سرعان ما أظهر ذكاء فائقًا، وخصالا ممتازة. وكذا استطاع أن يفلت من مصيره

ها أنت يا بنى تهجر وطنك!

■■ أتذكر يوم كنا نعبث فى (مدينة «جرانمير»، وكنت أحدثك بحديث أنكرته لغرابته وإغراقه فى الخيال، فأبيت أن تصدقه أو تطمئن إليه، وألححت عليك فى ذلك، فلم يزدك الإلحاح إلا إغراقًا فى الإنكار، وخاصمتك حينئذ وأعلنت إليك أننى لن أداعبك بعد اليوم، ولن أتحدث إليك إلا جادًا، وأنت صلب الرأى كأبيك، لا تذعن للوعيد ولا يخيفك النذير، فأعرضت عنى وأعرضت عنك، وقضينا فى ذلك يومًا وبعض يوم لم أقل لك شيئًا ولم تقل لى شيئًا، ولكن أختك أقبلت فأنبأت أمها بأنك ضيق بإعراضى عنك لا تنشط للعب لأنى لا أداعبك ولا أدعوك باسمك الذى كنا نحب لك أن ندعوك به، فتوسطت حينئذ أمك فأصلحت بيننا وأعادت إلى ثغرك الابتسام وأعادتك إلى ما كنت تحب من لعب ومرح.

سل أمك يا بنى فستنبئك بأنى لم أكن أقل منك شقاء بهذا الإعراض، وبأنى كنت أشكو إليها بينما كنت تشكو أنت إلى أختك. أتذكر هذه القصة. إنها تصور ما بينك وبينى من حب قد علمك أن تقبل منى ما كنت أتحدث به إليك بما فيه من خيال وما فيه من أصالة.

أتذكر يوم ذهبنا إلى «فونتبلو» لنزور القصر، وكنت قد اصطحبت دبك هذا «دمية على شكل دب»، فلما بلغنا المحطة تقدمت إليك أمك فى أن تدعه مع ما كان معنا من متاع حتى لا نشق عليك ولا يصرفك عن جمال القصر وما فيه، فأذعنت كرهًا ولكنك أظهرت تجلدًا واحتمالاً لهذا الفراق حتى إذا مضينا وبعدنا عن المحطة أجهشت بالبكاء وأغرقت فيه فلما سألناك عما يبكيك أجبت (أن الدب لن يرى القصر) فعدنا أدراجنا، وزار الدب معك هذا الأثر العظيم.

ها أنت قد أضجعته فى سريرك وأحطته بما يسع قلبك الصغير القوى من حب وحنان، ثم أقبلت علينا تشاركنا فيما نحن فيه من عمل وحديث. أنت راض عن هذه الرحلة، مغتبط بما لقيت فيها من خير وقد نسيت ما احتملت فيها من مشقة.. سينسيك الصبى أحداث الطفولة، وينسيك الشباب أحداث الصبا، وسيلهيك جد الحياة عن عبث الشباب.

«ها أنت يا بنى تهجر وطنك ومدينتك ودارك وتعبر البحر فى سنك هذه الصغيرة تطلب العلم وحيدًا فى باريس، فدعنى أهدى إليك هذا الحديث (عن أيام طلب الوالد العلم فى الأزهر) لعلك ترتاح إليه بين حين وحين إذا أجهدك درسك.. هناك ترى لونًا لم تعرفه من ألوان الحياة فى مصر، وتذكر شخصًا طالما ارتاح إلى قربك منه، وطالما وجد فى جدك وهزلك لذة لا تعدلها لذة، ومتاعًا لا يعدله متاع.

لقد تعودت ألا ترانى إلا باسمًا لك ولكنك ستنمو وترى أن ابتسام الآباء لأبنائهم الصغار كثيرًا ما يخفى اكتئابًا وحزنًا.. وستعلم أن ما كنت أمنحك من الابتسام والرضى، وما كنت آتى معك من ضروب اللعب والدعابة لم يكن خالصًا كابتسامتك ورضاك، ولا صفوا كلعبك ودعابتك، وإنما كان يخفى من ورائه حزنًا واكتئابًا ما كان لك أن تراهما صبيًا، وما ينبغى أن تجهلهما رجلاً، وما أسعد الأب حين يثق بأن ابنه يحبه محزونًا مظلم النفس كما يحبه مسرورًا مشرق الفؤاد. ■(*)

طه حسين

(*) شهادة طه حسين نقلاً عن زوج ابنته الدكتور محمد حسن الزيات

صبـــــرا وشـــــاتيلا

رضـــوى عـــاشـــور

[١] ■■ فى مقدمة كتابها «صبرا وشاتيلا: أيلول ١٩٨٢» تحكى بيان نويهض الحوت، أستاذة التاريخ فى الجامعة اللبنانية، عن واقعة اقتحام الجنود الإسرائيليين لبيتها فى بيروت ظهر يوم السبت ١٨ سبتمبر ١٩٨٢، فتّش الجنود الأربعة البيت، وسألوا عن زوجها (شفيق الحوت مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت). استمر التفتيش نصف ساعة، ثم، وهم يغادرون، التفت إليها قائدهم، سألها بشىء من الغطرسة: «هل تشهدين أننا كنا متحضرين معك؟».

تزامنت واقعة التفتيش التى انتهت بالسؤال: «هل تشهدين أننا كنا متحضرين معك؟» مع نهاية ٤٣ ساعة أشرف فيها الإسرائيليون على واحدة من أبشع مجازر القرن العشرين، راح ضحيتها ما لا يقل عن ٣٥٠٠ شخص، تفنن قاتلوهم فى مختلف أشكال الذبح والتعذيب. لم تجب بيان على سؤال الضابط الإسرائيلى، وربما لم تفكر لحظتها أن إجابة ما مفصلة وموثقة ستتشكل بين يديها على مدى عشرين عاما تواصل فيها البحث فى وقائع المجزرة، تستمع لشهادات الأهالى، وتبحث فى الوثائق، وتنقب وتدقق وتحصى فى محاولة لإحاطة أكثر شمولاً بما حدث فى تلك الأيام الثلاثة فى صبرا وشاتيلا.

يقع الكتاب فى ٨٠٢ صفحة من القطع الكبير تقدم معرفة موثقة بالمذبحة عبر شهادات الناجين من الموت وأهالى الضحايا والمفقودين، وعبر الدراسة الميدانية، والتنقيب فى كافة التقارير واللوائح والكتابات التى تناولت الموضوع.

سجلت الباحثة ١٤٠ مقابلة فى الفترة بين ١٠ نوفمبر ١٩٨٢ إلى ٢ مارس ٢٠٠١، منها ١١٩ مقابلة مسجلة فى العامين التاليين مباشرة على الحدث، ومقابلة واحدة مسجلة عام ١٩٨٦، وتسع عشرة مقابلة فى الفترة من ١٩٩٨ إلى ٢٠٠١، أما الدراسة الميدانية فتعتمد على ٤٣٠ استمارة وزعت على أهل الضحايا و١٠٠ استمارة وزعت على أهل المفقودين والمخطوفين. وتضم الوثائق سجلات ولوائح بأسماء الضحايا والمفقودين والمخطوفين من مصادر مختلفة، ومخطوطات غير منشورة ليوميات الغزو الإسرائيلى للبنان، فضلاً عن التقارير الرسمية والصحفية

صبرا وشاتيلا: أيلول ١٩٨٢
بيان نويهض الحوت
بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٣

اللوحة للفنان أحمد فؤاد سليم من المعرض الذى أقامه عام ١٩٩٦ فى ذكرى المذبحة



والتلفزيونية، والمقالات والكتب التى تناولت الموضوع.

يؤرخ كتاب بيان نويهض الحوت المجزرة، وتاريخ المجازر، كما تؤكد الدراسة فى كتابها، يختلف عن التأريخ لأى حدث آخر لأسباب متعددة، أبرزها «أن المجازر عمليات تتصف عادة بالسرية إلا فى النادر والقليل منها» (ص ٦)، فهى غالبا بلا وثائق ولا مستندات. كانت حدود المشروع فى بدايته محاولة لتوثيق شهادات أهالى صبرا وشاتيلا عن المجزرة، والحفاظ عليها، ولم يكن ذلك بالأمر الهين، إذ فرضت الظروف السياسية فى لبنان فى السنوات التالية مباشرة قيودا قاسية: «فالمنطقة المنكوبة كانت مراقبة باستمرار، وكان مجرد ذكر كلمة مجزرة، بعد انتهاء موسم الإعلام الأجنبى فى الأيام الصعبة الأولى قد بات من المحرمات» (ص ١٤). كان على الباحثة إجراء المقابلات بعيداً عن أعين المخبرين، وكان عليها تدبير نقل الأشرطة على نسخ ثانية، ثم الحفاظ عليها بتمويهها وتأمينها فى بيوت الأصدقاء. كذلك كان تفريغ الأشرطة بكتابة ما ورد فيها على الآلة الكاتبة محفوفاً بالمخاطر مما دفع إلى نسخها بخط اليد.

ولم تكن مرحلة التاريخ الشفهى سوى المرحلة الأولى، إذ أعقبتها مرحلة الدراسة الميدانية بهدف جمع أسماء الضحايا، وكل ما يمكن جمعه من معلومات عنهم، ولقد بدأت الباحثة فى ربيع ١٩٨٤ بتوزيع الاستمارات على أهالى الضحايا، ثم ترجمة مآسيهم إلى أرقام ونسب مئوية: عدد القتلى من الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين والمصريين، ونسبة كل من مجموع الضحايا: نسبة الأطفال، نسبة الإناث والذكور، المراحل العمرية... إلخ.



وهناك بطبيعة الحال الجهد المتصل والموازى للمرحلتين المشار إليهما أعلاه، وهو إلمام الباحثة بما يتصل بموضوعها من تحقيقات وتقارير رسمية وأهلية، وما نشر عنه فى الكتب والصحف والمجلات، وما التقطه المصورون من صور، وأفلام وثائقية... إلخ.

[٢] فى الفصل الأول من الكتاب تضع الباحثة المجزرة فى سياقها العام: ١٩٤٨ وما ترتب عليها من الشتات الفلسطينى ووضع اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان، وفى سياقها الأخص: الغزو الإسرائيلى للبنان فى صيف ١٩٨٢.

تتناول بيان نويهض واقع المخيمات حيث كان اللاجئون يمنعون من بناء البيوت «حتى دق المسامير كان ممنوعاً أيضاً، كما قال أبو القاسم. فإذا دق أحدهم مسمارا جره المكتب الثانى (جهاز الاستخبارات اللبنانى) للتحقيق. ولو تساءل أحد: لماذا؟ فالجواب جاهز. يجب أن يكون سقف البيت من التوتياء أو ألواح الزينكو (الصفيح)، وذلك لأن السقف المصبوب يعنى

١٩٨٢.. تاريخ المذبحة



بقاء واستمراراً لا يتوافقان مع حياة اللجوء، والتى ما هى إلا مرحلة مؤقتة حتى العودة إلى فلسطين» (ص ٤٦).

ويصف أبو على، مخيم شاتيلا عام ١٩٥٩، وهى سنة قدومه إلى المخيم: «شاتيلا كانت عبارة عن خيم، معمر لها من الداخل ٦ أو ٧ مداميك (صفوف مرصوصة من الحجارة أو الطوب) ومسقوفة فوق بألواح خشب عليها حجار. نص سكان شاتيلا اللى مش قادر يحط حجار جوات الخيمة كان يحط ألواح زينكو أو تنك. يعنى كان هناك تنك مغلف بقماش متقلو بحجار. ولكن لما كان يقوى الهوا ويشتد كانت الخيمة تتنفخ وتصير مثل البلون. وتصير الناس تركض. اللى بعدهم حاطين عمود للخيمة يمسكوا العمود، واللى كانوا متجاوزين قصة الخيمة، يصيروا يتقلوا على السقف بخشب أو يطلعوا يقعدوا على السقف. كان رب البيت يتحمل البيت بصدره حتى ما يطير السقف.

وما كانت العملية أسهل مع سقوف الزينكو، لأنو لما كان ييجى الهوا الصعب كان ياخد معه ألواح الزينكو مهما يكون عليها متقلات، وكانت شغلة. يا ما ناس تجروحت وهى لاحقة ألواح الزينكو الطايرة فى الهوا». (شهادة أبو قاسم للمؤلفة فى ٢٨ أبريل ١٩٨٣، ص ٤٦).

وبقيت إقامة السقف ممنوعة «حتى جاء عهد منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان فأصبح الممنوع مسموحا». (ص٤٨)



أما حرش ثابت وهو المتاخم للمخيم من جهة الجنوب، وأول المناطق التى طالتها المجزرة فلم يكن مسكوناً حتى عام ١٩٧٣، إذ كان البناء فيه ممنوعاً، ثم تحول لاحقاً إلى مأوى للعائلات الفلسطينية واللبنانية الفقيرة.

لقد طالت المجزرة الأحياء الشعبية فى منطقة شاتيلا، لم يدخل المهاجمون قلب المخيم بل الأحياء المتاخمة له: بئر حسن، وحى المقداد وحى فرحات بمنطقة الحرش، والأحياء المقابلة: حى عرسال، والحى الغربى، والدوخى، وشارع شاتيلا الرئيسى، والقسم الجنوبى من منطقة صبرا، وكلها مناطق شعبية سكنها فلسطينيون ولبنانيون وسوريون ومصريون وجنسيات أخرى أيضا منها عمال من بنجلادش والهند وباكستان.

فى أغسطس ١٩٨٢، غادرت المقاومة الفلسطينية لبنان، بعد توقيع الاتفاقية مع المبعوث الأمريكى فيليب حبيب، وبعد أن أكدت القيادة أن لديها ضمانات بحماية المخيمات والمدنيين الفلسطينيين. تلقى كل المقاتلين الذين لم يكونوا من اللاجئين إلى لبنان منذ عام ١٩٤٨ أمرا بالمغادرة، أما من كانوا من لاجئى ١٩٤٨ فقد خيروا بين البقاء والمغادرة. وسلمت المقاومة سلاحها ومخازن الذخيرة إلى الأحزاب الوطنية اللبنانية. ولجأ الشباب إلى دفن سلاحهم الفردى فى مخابئ بعيدة عن المخيم، واضطر البعض لما يمثله هذا السلاح من تهديد لأصحابه ولأهالى المنطقة التى يعيشون فيها، إلى التخلص منه (حتى بتركه فى المزابل).

فى أثناء القصف المتواصل على بيروت كان أهالى منطقة شاتيلا قد غادروها إلى الحمراء والروشة ومناطق أخرى من بيروت، ولم يعودوا إلى بيوتهم إلا بعد توقيع الاتفاقيات وخروج المقاتلين. كانت المنطقة ما زالت بلا ماء ولا كهرباء، وكان من عاد من الأهالى (حوالى ٦٠٪ أو ٧٠٪ منهم) منهمكين فى إصلاح بيوتهم التى أصابها القصف.

حين حاصر الإسرائيليون صبرا وشاتيلا والأحياء المتاخمة لهما يومى الأربعاء والخميس ١٤و ١٥ سبتمبر شهدت المنطقة قصفاً إسرائيلياً عنيفاً، وكان المخيم بلا قيادة، وبلا مقاومين، وبلا سلاح، وبلا ماء ولا كهرباء. ولذلك قرر «وجهاء» المخيم، (الأكبر سناً أو مكانة)، إرسال وفد للقوات الإسرائيلية لإعلامهم أن المخيم خال من السلاح والمقاتلين. تحرك الوفد فى الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر الخميس (اختلف الرواة على عدد الوفد، ربما، وهذا ترجيح الكاتبة، لأن الوفد فى بدايته لم يكن هو نفسه فى نهايته)، ولكن يبدو أن من وصلوا كانوا أربعة أشخاص: واحد منهم دون الأربعين، والثلاثة الآخرون فوق الستين. لم يعد أى منهم، قتلوا جميعا. كذلك اتجه وفد من النساء والأطفال من مستشفى عكا، يرافقهم رجلان، يحملون أعلاماً بيضاء، فبادرهم الإسرائيليون بإطلاق النار، واحتجزوا النساء والأطفال لمدة ساعة ثم أمروهم بالعودة ركضاً إلى بيوتهن فى المخيم، أما الرجلان فاختفيا إلى الأبد (وهما أب وابنه يعملان فى محطة الوقود المقابلة للمستشفى).

استمرت المجزرة طوال ٤٣ ساعة متصلة من السادسة مساء الخميس إلى الواحدة ظهر الأحد، فى منطقة يطوقها الجيش الإسرائيلى ويسيطر عليها ويتابع ما يجرى فيها، ويمنع الأهالى من محاولة الهروب منها، ويؤمن لمنفذيها ما يحتاجونه: القصف الشديد الذى دفع الأهالى إلى الملاجئ (سيتم ذبحهم فى الملاجئ)، القذائف الضوئية التى ستتوالى طوال ليلة الخميس فتحول ظلام المخيم إلى ضوء ساطع (قذيفتان مضيئتان كل دقيقتين من مدفعية ٨١ مم، طوال الليل)، المعلبات والأطعمة والمشروبات التى يتناولها منفذو المذبحة (يتفق العديد من الشهود على رؤية المعلبات والزجاجات الفارغة التى تحمل كتابة باللغة العبرية). كما سيوفر الإسرائيليون الجرافات التى ستهدم البيوت أو تلقى بالجثث فى مقابر جماعية.

أما منفذو المذبحة فبضعة مئات من الميليشيات: أساسا من ميليشيات «حزب الكتائب»، و«سعد حداد»، و«حراس الأرز»، وبعض «النمور الأحرار»، وقد شاركهم، بشهادة الشهود، إسرائيليون يرتدون زى الكتائب، كانوا يحجمون عن الكلام، وإن سمع البعض فى لحظات معينة اللغة العبرية.

استخدمت الميليشيات الرصاص والسكاكين والبلطات والقنابل فى قتل الأهالى. تم قتلهم داخل بيوتهم، وفى الملاجئ والأزقة والطريق العام. هدموا البيوت على الأحياء أو الجرحى أو المقتولين، مثلوا بالأحياء، ومثلوا بالجثث (قطعوا الرءوس والأيدى والأرجل، وشقوا البطون)، اغتصبوا نساء، مزقوا أطفالا، دفنوا أحياء فى حفر وقبروهم بالرمال، وخطفوا مئات الشباب تم نقلهم إلى أماكن غير معلومة (لم يظهر منهم أحد بعد ذلك أبدا). ذلك فضلا عن سرقة ما فى البيوت أو فى جيوب الأهالى، والشتائم البذيئة والإهانات. وقبل المغادرة تم تفخيخ العديد من الجثث بقنابل وألغام.



امتدت المجزرة فى يومها الأول من غروب يوم الخميس حتى منتصف الليل، وامتد اليوم الثانى، يوم الجمعة، وهو أطول أيام المجزرة أربعاً وعشرين ساعة كاملة، أما اليوم الثالث، الأحد، وهو اليوم الأخير فقد امتد نحو ثلاث عشرة ساعة من الثانية عشرة ليلا حتى الواحدة ظهرا.

ولما كانت المنطقة بلا مقاتلين ولا قيادة، فلم تتجاوز عمليات التصدى مقاومة محدودة فى أربعة مواقع قام بها أربع مجموعات صغيرة لا يعلم كل منها بوجود الأخرى. ووفقا للشهادات «يمكن تقدير مجموع الذين قاموا بعمليات التصدى ضد القوات الإسرائيلية المحاصرة يوم الخميس، فى المحاور الأربعة، بنحو ستين شابا وخمس فتيات، لم يكن بينهم من المقاتلين المدربين سوى عدد محدود جدا، أما الأكثرية فكانت من الشبان المتحمسين الذين تفوق حماستهم قدرتهم القتالية الفعلية». (ص١٢٠)

وكان هؤلاء الشباب وهم يتصدون بشكل تلقائى، لا يعلمون بدخول المليشيات اللبنانية ولا بمهاجمتها البيوت وذبح الأهالى. مقاتل واحد، (تشير له الباحثة باسم «إبراهيم») اتجه بعد ظهر الخميس إلى المنطقة بهدف الاستطلاع، وعلم أن القوات المهاجمة قوات لبنانية، واشتبك معها، ولما كادت ذخيرته تنفد «أخذ إبراهيم ينتقل من ملجأ إلى آخر داعيا الناس إلى الخروج بهدوء فى اتجاه الشمال». (ص ١٧٣)، وأمن فعلا خروج عدد كبير من الناس.



استمرت المجزرة طوال ٤٣ ساعة متصلة من السادسة مساء الخميس إلى الواحدة ظهر الأحد، فى منطقة يطوقها الجيش الإسرائيلى ويسيطر عليها ويتابع ما يجرى فيها، ويمنع الأهالى من محاولة الهروب منها، ويؤمن لمنفذيها ما يحتاجونه





وقائع المجزرة من أقوال الشهود

في الليلة الأولى دخلت الميليشيات المسلحة إلى الأحياء المتاخمة لمخيم شاتيلا (أحياء فرحات والمقداد والحرش وعرسال وبئر حسن). تم اقتحام البيوت، والقضاء على نزلاء المخابئ. قُتل العشرات في ملجأ أبو ياسر، وهو سوري قتل في المجزرة كما قتل كل أفراد عائلته، وأغلب من احتمى في ملجئه من الأهالي.

يوم الخميس ذاك، امتلأ ملجأ أبو ياسر وهو ملجأ صغير نسبيا وخاص بأبي ياسر، بالأهل وبالجيران وجيران الجيران، احتماءً من القصف الإسرائيلي.

وصلت الميليشيات إلى باب الملجأ الصغير وصاحت في كل من فيه أن يخرج فورا. طُلب من الرجال الوقوف إلى جانب الجدار المقابل للملجأ، واقتيد البعض إلى جراج أبو جمال القريب من شارع شاتيلا الرئيسي، وأمروا النساء والأطفال بالسير في الطريق العام لأنهم سيأخذونهم إلى مستشفى عكا. بعد أن ابتعدت النساء، تم إطلاق الرصاص على الرجال الواقفين بجوار الحائط، أما من اقتادوهم إلى جراج أبو كمال ومحطة الوقود فقد تم قتلهم أيضا على الطريق، أو في الجراج أو عند محطة الوقود.

تعلق بيان نويهض: «جدار الموت القريب من ملجأ أبو ياسر لم يكن جدار الموت الأوحد في مجزرة صبرا وشاتيلا، ولكنه ربما كان الأول في سلسلة عمليات متشابهة امتدت طوال ثلاثة أيام.

وينقل أحد الشهود ما حكاه له مصطفى هبرات الذي أطلق عليه النار على حائط من حوائط الموت:

«صفّوا الرجال كلهم على الحيط، وبلحظات كان الرصاص يلعلع، ووقعت مرتُه (وهي جزائرية) وأولاده الثلاثة أمام باب المنزل جثثًا هامدة قبل ما كانوا المجرمين تلفتوا للرجال. هو قال أنو حالا شعر إنهم راحوا. بساعتها عرف من صراخ بنته الصغيرة، عرف إنهم ماتوا.. فراح بدو يهجم على المسلحين قدامو بلا وعي. قوّصوه. وضلوا يقوّصوا. وهو ضل نايم بالأرض. وهنّي (هم) افتكروا أنّو مات» (شهادة أسعد م. ص ١٦٥).

لم يمت مصطفى، ظل مصابا وبين جثث القتلى إلى أن تمكن من الهرب. وحكى حكايته.

تعلق بيان نويهض: «كان التصوير والمصورون والصحافة والصحافيون من الأمور الممنوعة حتى يوم السبت إلى ما بعد خروج القتلة. ولكن... من قال أن عدسة آلة التصوير أكثر صدقا من عين الإنسان» (ص ٢٠٠). سيحكي الناجون من المجزرة في هذا الكتاب تفصيلا عما شاهدوه بعيونهم.

«وإن أمكن القول أن ليلة الخميس كانت ليلة القضاء على نزلاء الملاجئ، لأمكن القول إن يوم الجمعة كان يوم اقتحام مستشفى عكا» (ص١٩٩).

في هذا اليوم الثاني سيتم اقتحام مستشفى عكا.

قبل الاقتحام فقدت المستشفى اثنين من العاملين فيها، أولهما عرابي وهو مصري يعمل موظفا في قسم الأشعة. خرج عرابي من المستشفى لسبب أو آخر، وما كاد يخرج ويمر من جانب محطة الوقود المجاورة حتى أردوه قتيلا، وفي نفس الوقت خرجت عاملة مصرية بالمستشفى لتشتري علبة دخان للطبيب فأصابتها رصاصة وسقطت عند باب المستشفى.

اقتحم المسلحون المستشفى في الساعة الحادية عشرة، «كان المقتحمون متوترين وينظرون يمنة ويسرة بحثا عن«مخربين».



أما في أثناء وجودهم في المستشفى في ذلك النهار، فقد كان لديهم الوقت الكافي ليتعاملوا مع كل الموجودين في المستشفى، أطباء وعاملين ومرضى، معاملة متفاوتة وفقا للجنسية أحيانا، ووفقا للمزاج في أحيان أخرى: وهي محاولة تراوحت بين المعاملة بالحسنى وبين التعذيب والاغتصاب والقتل الوحشي» (ص ٢٢٦).

تلقى الأجانب أمراً بالخروج من المستشفى وهم يرفعون أيديهم. قتل الطبيبان الفلسطينيان في المستشفى: د. علي عثمان والدكتور سامي الخطيب. وشهد طبيب أنه رأى المسلحين يخنقون الممرضتين اللتين بقيتا للعناية بثمانية جرحى وخمسة أطفال معوّقين وعدد من الرضّع. وروت ممرضة لبنانية أن زميلتها الفلسطينية: «ذهبت للبحث عن أختها التي التجأت إلى بيت قريب من المستشفى فوجدتها عارية ملطخة بالدم... ومقتولة خنقا» (ص٢٣٢). كما يروي طوني أنه شاهد من منزله المجاور للمستشفى واقعة اغتصاب الممرضتين وقتلهما. وقد شهد شهود عيان بأنهم رأوا جثثا لأربعة رجال بالرداء الطبي الأبيض في مسبح المدينة الرياضية تطفو على سطح المسبح. وربما كان الطبيبان علي عثمان وسامي الخطيب من بينهم أو المسعفون الثلاثة (زياد معروف ونزار الصادق وجهاد الحاج) الذين قتلوا وهم في طريق عودتهم من مستشفى غزة حيث أوصلوا أحد الجرحى.

«ومن ضحايا القسم الطبي والعاملين في مستشفى عكا طبيبان، وممرضتان، وثلاثة مسعفين، وموظف وطباخ وحارس. وباقي الضحايا من المرضى وخصوصا الأطفال» (٢٣٧).

ويرد في الشهادات أن الأطفال غير مكتملي النمو قد أخرجوا من الحاضنات، وأن أطفالا آخرين رضّعا، أو في السنوات الأولى من عمرهم وجدوا مقتولين في أماكن أخرى. وتشهد الممرضة نزيهة:

«إحنا تاني يوم لقينا طفل مزتوت (ملقى) برّا بالجنينة. ورجعنا رحنا على صبرا لقينا أطفال كنا نعالجهم. يعني بنعرفهم. شفناهم.

كان في أطفال عمرهم شي سنة. وفي ٣ سنين. وفي ٤، وفي ولد مشلول ما بيتحرك قاتلينه بالبلطة. يمكن قاتلينهم وراميينهم في صبرا حتى ما ينقال إنهم قتلوا الأطفال المرضى في المستشفى» (ص٢٤٠).

ويحكي أبو الرائد عن واقعة إلقاء قنبلة فوسفورية في يوم الجمعة على ملجأ صغير نسبيا (يتسع لخمسين أو ستين شخصا): «يعني يا دوب رموا القنبلة الفوسفورية ع الملجأ لتحت، ولعت الدنيا. ولع الملجأ باللي في و(بمن فيه) وسمعنا صريخ. يا الله شو ها الصريخ...».

كانوا أربعة من المقاتلين وفتاة مقاتلة اسمها فاطمة. يواصل أبو الرائد:

«إحنا أطلقنا النار. اشتبكنا نحنا وياهم بحدود عشر دقايق ويمكن أقل.

طبعا سمعناهم بنادوا على بعض يا توني، ويا سعيد، ويا بيير ويا روبير.

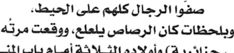
وأنا بهاي اللحظات، أنا سمعت عبري. تحديدا بهاي اللحظات اللي انرمت فيها القنبلة الفوسفورية، أنا لما تلفّت عليهم، أنا سمعت لغة يهود، لغة عبرية» (شهادة أبو الرائد، ص٢١١).

وفي نفس اليوم ستواصل الميليشيات عمليات القتل في البيوت، وستعمل الجرافات في هدم البيوت على من فيها من جثث، كما ستطمر الجثث في حفر، سواء حفر ناجمة عن قصف الطيران الإسرائيلي أو حفر جديدة حفرتها الجرافات.

في اليوم الثالث، السبت ١٨ سبتمبر، ستبدأ الميليشيات عملها مبكرا. في الرابعة صباحا تبعا لشهادة البعض، تقتحم البيوت وتسوق من فيها إلى ساحة صبرا ويتم تجميع سكان صبرا وشاتيلا في ساحة صبرا، ثم بدءا من السابعة صباحا تقتادهم في مسيرة قسرية جنوبا باتجاه السفارة الكويتية، ثم يمينا إلى المدينة الرياضية. في هذه المسيرة التي شبّهها البعض بيوم الحشر، تم اختطاف أعداد كبيرة من الشبان.

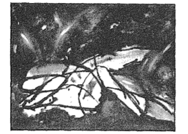


وفي السابعة صباحا من نفس اليوم أيضا يتم اقتحام مستشفى غزة، ولكن هذا المستشفى الأكبر لم يشهد اقتحاما مماثلا



صفّوا الرجال كلهم على الحيط، وبلحظات كان الرصاص يلعلع، ووقعت مرتُه (وهي جزائرية) وأولاده الثلاثة أمام باب المنزل جثثًا هامدة قبل ما كانوا المجرمين تلفتوا للرجال. هو قال أنو حالا شعر إنهم راحوا. بساعتها عرف من صراخ بنته الصغيرة، عرف إنهم ماتوا





لمستشفى عكا إذ كانت وصلته أنباء المجزرة وبعض ما حدث فى مستشفى عكا فى اليوم السابق. يوم الجمعة اجتمعت عزيزة الخالدى مديرة المستشفى بالطاقم الطبى العربى وطالبتهم بالمغادرة، وطلبت من الصليب الأحمر الدولى الإشراف على إخلاء المستشفى من الحالات الصعبة والأطفال. و«كان من أبرز المشاهد الأخيرة التى شهدها المستشفى يوم الجمعة، مشهد رفض الأطباء النرويجيين مرافقة السكرتير الأول فى سفارتهم للنجاة بأنفسهم، حين جاء ثانى مرة مع بعثة الصليب الأحمر الدولى لإخلاء المستشفى إذ فضّلوا البقاء مع زملائهم ومع المرضى» (ص ٣٠١).

عند وصول المسلحين إلى المستشفى صباح يوم السبت، اقتادوا الطاقم الطبى الأجنبى (كان عددهم ١٨ فى قول البعض، وأكثر قليلا فى قول البعض الآخر) وتركوا المتبقّى من المرضى (٦ حالات صعبة و٣٢ مريضا فى رعاية ممرضتين).



وشهد الأجانب كما شهد غيرهم من الأهالى أنهم فى المسيرة القسرية باتجاه المدينة الرياضية شاهدوا الجرّافات وهى تواصل عملها، كانت هدمت بيوتا كثيرة (حتى أن الشارع بدا أوسع)، وشاهدوا بيوتا مهدومة وجثثا مكومة فى أطراف الأزقة وعلى جانبى الطريق. استغرقت المسيرة الإجبارية حتى الظهر، تعرّض فيها الأهالى للقتل والإجبار على السير فى حقل الغام («راح باللغم ست قتلى وست مجاريح»، شهادة الحاج محمود، ص ٣٢٢)، كما تعرّضوا لأشكال من الإذلال، ربما كان أخفها الشتائم البذيئة. كان عليهم أن يهتفوا: «تعيش الكتائب»، أو «يسقط أبو عمار»، أو يصفّقوا أو يرقصوا. أرغموا امرأة حبلى على الرقص تحت تهديد السلاح، وكان عليها أن ترقص عنوة حتى سقطت من الإرهاق، كما أجبروا زوجها على الركوع ثم أطلقوا عليه النار. أما العجوز التى تصورت أن من يرتدون الزى العسكرى فدائيون فأطلقت العنان للفرح على عودتهم وراحت تغنى لأبى عمار فقد شرط المسلحون فمها حتى أذنيها ثم أطلقوا عليها النار فسقطت قتيلة (شهادة سهام بلقيس، ص ٣١٧). وفى المدينة الرياضية حيث تم التحقيق مع الأهالى من قِبَل القوات اللبنانية والقوات الإسرائيلية تعرضت أعداد كبيرة للخطف.

ظهر يوم الأحد ٢٠ سبتمبر دخل الجيش اللبنانى المنطقة، وبدأ المسعفون فى جمع الجثث، ودفن الضحايا.

أرقـام وإحـصـاءات

لا مرجعية مسئولة بشأن الأعداد على الصعيد اللبنانى أو الفلسطينى: «فما من مرجعية منهما قامت بإحصاء شامل للضحايا والمخطوفين والمفقودين، وأعلنت نتائج إحصاءاتها أمام الله والتاريخ والإنسانية». (ص ٥١٧) تبعا لتقرير لجنة كاهان الإسرائيلية يقدر عدد الضحايا بين ٧٠٠ و٨٠٠، أما أرقام لجنة الصليب الأحمر الدولى كما وردت فى لجنة ماكبرايد فهى ٢٧٥٠ ضحية. تتجاوزها أرقام الصليب الأحمر اللبنانى كما وردت فى شهادة الكاتب الأمريكى رالف شونمان أمام لجنة أوسلو فتشير «نحن رفعنا ودفنا ٣٠٠٠ ضحية، ولا يشمل هذا العدد الذين بقوا تحت الأنقاض» (ص ٥٢١) وقدّر شونمان العدد بين ٤٠٠٠ و٤٥٠٠، وقدّره كابليوك كاتب كتاب «تحقيق حول مجزرة» (١٩٨٣) بين ٣٠٠٠ و٣٥٠٠، وقدّر ياسر عرفات العدد بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠، وبالرجوع إلى لوائح الصليب الأحمر الدولى، ومديرية مجلس الدفاع المدنى اللبنانى، ومجلس كنائس الشرق الأوسط، ومقبرة روضة الشهيدين والأسماء التى دوّنها الشيخ سلمان خليل الذى كان يصلّى على القتلى قبل دفنهم، ومقبرة الشهداء، ودار الفتوى ولجان أهالى المفقودين والمخطوفين وغيرها. استطاعت بيان نويهض الحوت أن تصل إلى تدقيق أسماء ١٣٩٠ ضحية، دققتها اسماً اسماً مشفوعاً فى الغالب بالعمر والوظيفة.، وهى تقول بشأن الأسماء التى دققتها: «ولو كان لهذا الكتاب أن يصدر بعد عام واحد فقط، لفاقت أسماء الضحايا والمفقودين والمخطوفين ١٣٩٠، أما الذين سيكتبون عن صبرا وشاتيلا بعد عشرة أعوام فسيكون الرقم لديهم أكبر» (ص ٥٣٤). قدّرت بيان عدد الضحايا بـ٣٥٠٠، تقول: «إن أية محاولة لتقدير عدد الضحايا... مع تقدير الحد المقبول، إن لم نقل الحد الأدنى، تصل بالعدد إلى ٣٥٠٠» (ص ٥٤٥). ويكشف البحث الميدانى عن النسب التالية:

«شهد اليوم الأول، الخميس ١٦ أيلول/ سبتمبر النسبة الأعلى من عمليات القتل، وهى نسبة ٥٦٪ من العمليات وتتضاعف أهمية هذه النسبة فى ضوء أن عمليات اليوم الأول جرت بين السادسة والعاشرة مساء وهى أربع ساعات، فى مقابل ٤٣,٤٤٪ تمت فى الـ ٣٩ ساعة الموزعة على يومى الجمعة والسبت. وفى المقابل نجد النسبة معكوسة فيما يخص المخطوفين إذ بلغت ٨٪ فى اليوم الأول، و٣٣٪ فى اليوم الثانى، و٥٩٪ فى اليوم الثالث، أى أكثر من مجموع يومى الخميس والجمعة. أما بالنسبة لجنسيات الضحايا تبعا للدراسة الميدانية التى شملت كما أسلفنا ٤٣٠ حالة. فجاءت على النحو التالى: ٤٨,٦٠٪ فلسطينيون، ٢٧,٩١ لبنانيون، ٥,٣٥٪ سوريون و٤,١٩ مصريون، وينتمى الباقون إلى جنسيات أخرى أو لا جنسية لهم. أما بالنسبة للمخطوفين فتصل نسبتهم بين الفلسطينيين ٦٦٪، و١٣٪ سوريون، و١١٪ لبنانيون، و٣٪ مصريون ثم جنسيات أخرى. ويشكل الذكور ٤٧,٧٠٪ من الضحايا، كما يشكل الأطفال دون الثانية عشرة بما فى ذلك الأجنة ٨٧,٢١٪ من الضحايا.



من ضحايا القســم الطبى والعــاملين فــى مستشــفى عــكا طبيبــان، وممرضتــان، وثلاثة مســعفين، وموظـــف وطبــاخ وحــارس. وباقــى الضحــايا من المرضــى وخصــوصــا الأطفــال



[٣] لما كان الكتاب يعتمد بشكل أساسى على تسجيل شهادات الناجين من المجزرة الذين حكوا ما رأوه بأعينهم فإن التجربة التى يعيشها قارئ الكتاب تختلف نوعيا عن تجربة قراءة كتاب فى التاريخ. إننا أمام مادة حية، مؤثرة، موجعة، تحيط بنا أطياف قتلى عديدين، وعذابات من شاءت لهم الأقدار النجاة من موت محقق، وإن فقدوا أقرب أقربائهم أو أصدقاءهم وزملاءهم. يحكى هؤلاء الناجون ما خبروه من هول، وننصت نحن القرّاء إلى ما لديهم تماما كما قالوه باللغة المَحكيّة، بلهجاتهم الفلسطينية أو اللبنانية، لهجة الجليل، أو الساحل الفلسطينى، أو الجنوب اللبنانى. تقتبس بيان مطولا من هذه الشهادات التى تشكل أساس كتابها وأحد إنجازاته الأكبر.



وهناك أيضا صوت المؤرخة ذاتها، أو أصواتها، إن أردنا الدقة، صوت باحثة تتوارى الذات فيه خلف لغة التحليل وموضوعية الدارس، يقطعه صوت آخر: صوت إنسان ذاهل، مروع مأخوذ بما توفر لديه من معارف. تنقل بيان نَصّ كلام الشهود، أو تلخّص ما حكوه، تتتبع التفاصيل، تضاهى وتقارن وتربط وتستخلص ثم تتوقف لتسأل أو تعلّق. وتشكّل الأسئلة والخلاصات إيقاعا لحكاياتها، ولصوتها الذى يروى.

فى الأسئلة مزيج من أسئلة البحث، وأسئلة سياسية وأخرى وجودية، لا مفر منها أمام وقائع المجزرة:

«كم كان عدد السكان؟ وما جنسياتهم؟... وعن المقاومين الذين حاولوا التصدى: «من كان هؤلاء الشباب؟ هل كانوا فلسطينيين فقط، أم فلسطينيين ولبنانيين؟ كم كان عددهم؟ كم كان لديهم من سلاح؟ وهل كان لديهم خطة شاملة للمجابهة؟ وكيف كان يمكن الوصول إليهم لمعرفة ما جرى؟»، وعن المهاجمين «من كان هؤلاء؟»، «كيف دخلوا /أو..كيف اقتحموا؟»... شوهد عدد من الشباب يحمل سلاحه للتصدى: «أى حل هو الحل الأمثل: المقاومة أم التسليم؟»... «فى الأيام اللاحقة عرف الجد وأسرته أن غيرهم فى منطقتهم، بئر حسن، قد قُتل. فلماذا لم يقتلوهم كسواهم؟» الفتى مفيد ابتعد لحظة إطلاق النار، لم يُشاهد بعد ذلك أبدا. أخوه منير، ابن



الثانية عشرة، أصيب ونام بين الأموات فى العراء، وكانت أمه وإخوته قتلوا: «ولكن ماذا عن اليوم التالى/أيهما سيكون أكثر حظا؟/ كيف سيكون الحظ أكثر أو أقل قليلا فى أتون المجزرة؟ وكيف ستصلنا شهادة مفيد؟»... و«هل استشهدت فاطمة؟» (فتاة من فَتْح ذهبَتْ إلى مكتب الجبهة الشعبية وحصلَتْ على سلاح وشاركت فى المقاومة المحدودة فى المخيم)، هى أيضا لم يعثر لها على أثر. والفتى الذى ألقى قنبلة فوسفورية على المهاجمين يوم الخميس وقيل انه استشهد (كان فى الرابعة عشرة من عمره) ما اسمه؟ من هو؟».

تشركنا الأسئلة فى مسار البحث الذى يتحول عبر الشهادات وصوت الكاتبة /الراوية إلى بحثنا نحن، إذ يحولنا عبر القراءة من مروِىّ عليهم إلى طرفٍ فى الرواية، ورواةٍ محتملين لها.

أما التعليقات والخلاصات المتناثرة بطول الكتاب فتجمع بين الموضوعى والذاتى، فهى ليست مجرد خلاصات بحثية بل تأملات لباحثة/ إنسان مروَّع أمام ما يتعرف عليه وينقله.

نتابع مصائر الأهالى، نتابع البحث، نتابع النتائج، ولكننا أيضا نتابع هذه السيدة التى توارت خلف بحثها ونتائجها طوال عشرين عاما، فيأتى حكيها محملا بما عاشته طوال تلك الفترة قرب الأصوات والأطياف. تقول:

«فى مرحلة التاريخ الشفهى كان تصورى أن مآسى مقتل العائلات كما رواها الناجون منها، هى من أكثر ما استمعت إليه مدعاة للألم. وكلما أعدت قراءة مقابلة معينة، أو أعدت الاستماع إلى شريط معين، بدا لى فى كل مرة صورة مأساوية جديدة، أو لحظة مأساوية لم أكن أدركها فى المرات السابقة. وطالما انتظرت الانتهاء من مرحلة التاريخ الشفهى، تصورا أو وهما منى بأن مرحلة الدراسة الميدانية، أى مرحلة التعامل مع الأرقام، أخف وطأة على النفس من التعامل مع أقوال المعذبين وأصواتهم. غير أننى كنت مخطئة» (٤٦٢).



يسهل فهم لماذا استغرق هذا العمل من بيان نويهض الحوت عشرين عاما، صحيح أن ما جمعته من مادة وما بذلته من جهد لا يتاح إنجازه إلا فى سنوات، لكن التعامل مع هذه المادة هو ما استغرق هذا الوقت، وكل شهادة مفردة من الشهادات المائة والأربعين التى تعتمد عليها الدراسة لها وطأتها المربكة. ولم تكن الإحصاءات والجداول، كما تقول المؤلفة، بأقل من ذلك وطأة. (اعترتنى القشعريرة، ولست سوى القارئة، وأنا أمر بعينى على أسماء أسر كاملة فلسطينية ولبنانية أبيدت بالكامل. يتكرر اسم المقداد وهى عائلة لبنانية ٣٣ مرة، ٣٣ قتيلا من نفس العائلة، كما يتكرر اسم آل محمد، وهم فلسطينيون، ١١مرة: رجل وزوجته وأولادهم التسعة، كما راح من أسرة البقاعى اللبنانية ٨ أفراد هم الأب والابن والابنة والصهر والأحفاد. وفقدت أسرة الخطيب الفلسطينية ١١ شخصا هم الجدة والأب والأم وأولادهما السبعة. كل أسرة منها مسجل أفرادها بالاسم والسن، يشملهم ذات المستطيل الأزرق الذى استخدمته الباحثة لتعيين ضحايا العائلة أو الأسرة الواحدة). لم ألتق بمنير الطفل الصامت الذى قضى ليلة بين الجثث ومنها أمه وأخواته، ولم أمش معه فى شوارع شاتيلا بعد ثمانى عشرة سنة من المجزرة وهو يحكى: «أنا.. أنا أكتر شى ضايقنى مش بس الموت من حولى. أنا.. كنت مش عارف إذا أمى ماتت أكيد، وإذا إخواتى ماتوا أكيد. كنت عارف إنّو معظم الناس من حوالىَ ماتوا. وصحيح أنا نفسى كنت خايف أموت. لكن أنا ضايقنى كتير إنهم (الميليشيات) كانوا يضحكوا ويسكروا ويتسلوا طول الليل. رموا علينا بطانيات وتركونا للصبح. وكل الليل كنت أسمع أصوات بنات يبكوا ويصرخوا: «منشان الله اتركونا بحالنا» يعنى ما فينى إتذكر قدّيش اغتصبوا بنات. أنا أصوات البنات من الخوف والوجع، ما بعمرى فينى أنساها». (شهادة منير فى سبتمبر ٢٠٠٠، ص ١٦٠-١٦١). ولم أجلس أمام أم ربيع ولا أم أكرم، وهما تتحدثان: أم ربيع الممرضة التى أنقذت العشرات وتتكلم ببساطة كأنها «لا تقول إن والدها قتل فى تل الزعتر، وإن أمها وأخاها قتلا فى شاتيلا» (ص ١٧٥)، وأم أكرم التى شاهدت مئات الجثث وهى تبحث عن أولادها فجر يوم الجمعة، وتعلِّق: «يا ربى لو فى مقاتلين ما صار فينا اللى صار فى الغابات» (ص ٦٩).

لكن بيان نويهض الحوت عايشت ذلك كله طوال عشرين عاما، سمعت أحاديث الناجين من المجزرة تفصيلا وسجلَتها، وفرغتها على الورق، وكان عليها أن تحدِّق وتدقِّق فى كل تفاصيلها، وتخطها بقلمها، وتصنع منها كتابا.

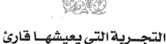
لا يقتصر حديث المجزرة على فاجعة القتل والخطف بل يتجاوزه إلى أمور أخرى فادحة، قد لا يفصِّلها الكتاب دائما، ولكنه لا يُغفل أبدا الإشارة لها ضمنا أو بشكل صريح، فيجد القارئ نفسه يسأل لماذا لم يُنشر تقرير جرمانوس أبدا، وهو التقرير الرسمى للحكومة اللبنانية (لم ينشر إلا ملخصا فى الصحافة الإسرائيلية)؟ لماذا «ضاعت» لوائح الصليب الأحمر اللبنانى فيما يخص أعداد الجثث عند دخول المنطقة؟ لماذا تُرك الأهالى فى مواجهة المهاجمين وهم عراة تماما من أى قيادة؟ لماذا صدَّقت القيادة الفلسطينية «الضمانات» الأمريكية كأنها بلا تاريخ تتعلم منه؟ هناك الجناة الذى اقترفوا الآثام المروِّعة، ولكن هناك مسئوليات أخرى فادحة يصعب على الباحث الأمين ألا يشير إليها.

لقد تناول المجزرة العديد من الكتّاب الكبار، لعل من أبرزهم وأولهم الكاتب الفرنسى جان جنيه الذى كتب عن زيارته لشاتيلا قبل أن يدفن العديد من الجثث (أنظر ترجمتى للمقال بالاشتراك مع د. أمينة رشيد، مجلة «المواجهة»، القاهرة، ١٩٨٣)، ومنهم أيضا الكاتب الإسرائيلى آمنون كابليوك فى كتابه المعروف: «صبرا وشاتيلا: تحقيق حول مجزرة»، وقدم الأجانب من الأطباء والممرضين شهاداتهم ونشرت. وتناول المجزرة العديد من الإعلاميين العرب والأجانب فى مقالات صحفية وأفلام تسجيلية. ولكن هذا الكتاب، فى رأيى، يتميز بميزتين فارقتين: أولهما أنه الأوفى والأشمل، والأكثر تدقيقا، ففيه بحث موثَّق يتجاوز كل ما سبقه من دراسات وكتابات، وهو ثانيا، فى اعتماده التاريخ الشفهى، يضم شهادات وفيرة هى مصادر أولية لم تتوفر فى أى بحث سابق فى الموضوع، فتقدم هذا الحدث التاريخى المروِّع من منظور مَن عاشوه.

باختصار هذا كتاب مؤلم وشديد الأهمية، إنه كتاب الحدود القصوى، الشراسة والبهيمية والعنف فى حدِّها الأقصى، والألم الإنسانى فى حدِّه الأقصى، وجهد البحث أيضا فى حدِّه الأقصى.

أنتبه الآن وأنا على وشك الانتهاء من مراجعة الكتاب، أننى لم أشر لملحق الصور فى نهايته. أعترف أننى حين بدأت فى قراءة الكتاب، وطوال فترة قراءته، ثم العودة إليه أثناء كتابة هذه المراجعة، خلعت عنه الغلاف الخارجى الرقيق الذى يحيط بغلافه الكحلى السميك ووضعته جانبا. لم أقدر على التحديق فى الصورة الملونة الكبيرة فى صدر الغلاف حيث ثلاثة قتلى: فتى قتيل، بالكاد خطَّ شاربه، ممدد على الأرض كاملا بملابسه، استقرت رأسه على كتف قتيل آخر، واستقرت على فخذه الأيسر قدما قتيل ثالث. لا يظهر من هذا الفتى سوى حذائه الرياضى وساقيه فى بنطلون «جينز». وفى أعلى يسار الصورة، صورة أخرى أصغر لجثمان متفحم يصعب تبين شىء من ملامحه. كان التعايش مع تلك الصورة محنة حقيقية، لم أحدق طويلا فى ملحق الصور. الكتاب بهذا المعنى هو أيضا كتاب الحد الأقصى فيما يثيره فى القارئ من مشاعر.

رحم الله الشهداء، وأعز السيدة التى أرادت بكتابها القيِّم أن توفى ببعض ما ندين لهم به. ■

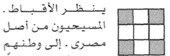


التجـربة التى يعيشهـا قارئ الكتاب تخـتـلف نوعيـا عن تجـربة قراءة كتاب فى التاريخ. إننا أمـام مـادة حيــة، مــؤثرة، موجعــة، تحيـط بنا أطيـاف قتلى عـديدين، وعـذابات من شـاءت لهم الأقدار النجاة من موت محقق



موالد الأقباط فى مصر

كلوديا وينز



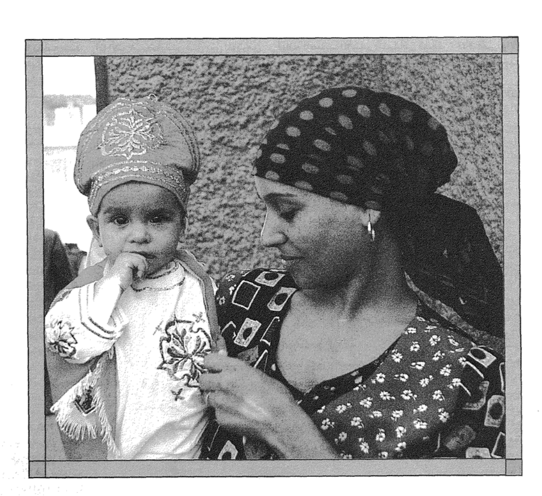
ينظر الأقباط. المسيحيون من أصل مصرى. إلى وطنهم مصر باعتباره بلداً مباركاً بصفة خاصة حيث إنه المكان الوحيد خارج الأرض المقدسة الذى وضع فيه المسيح عيسى قدمه عندما لجأت العائلة المقدسة إلى مصر فراراً من اضطهاد «هيرودس». ويعتز الأقباط بتاريخ عقيدتهم وكنيستهم والذى يرجع إلى يوم وصول القديس مرقس الرسول إلى الإسكندرية والذى جلب معه مباشرة ودون وساطة القداس الأصلى الذى أقامه السيد المسيح. وكان سيريل الأول. وهو البطريرك الرابع والعشرون للكنيسة القبطية. قد قام لاحقاً بجمع وترتيب هذا القداس الذى كان قد ترجم إلى اللغة القبطية فأصبح أول قداس مسجل. وقد شكلت عقيدة الشهداء الأقباط الأوائل إلهاماً مستمراً للمسيحيين فى كل مكان. كما كانت مصر أيضاً المهد الأصلى للنظام الرهبانى فى المسيحية ترسماً لخطى القديس أنطونيوس فى صحراء مصر الشرقية فى القرن الرابع للميلاد، كما كانت المدرسة الدينية الشفهية بالإسكندرية منارة لتطور الفكر وحماية العقيدة عند الكنيسة المسيحية الأولى. وقد ظل الأقباط المعاصرون ثابتين على إيمانهم وفخورين بتراثهم الذى كانت له إسهامات جوهرية معروفة فى الديانة المسيحية ككل.

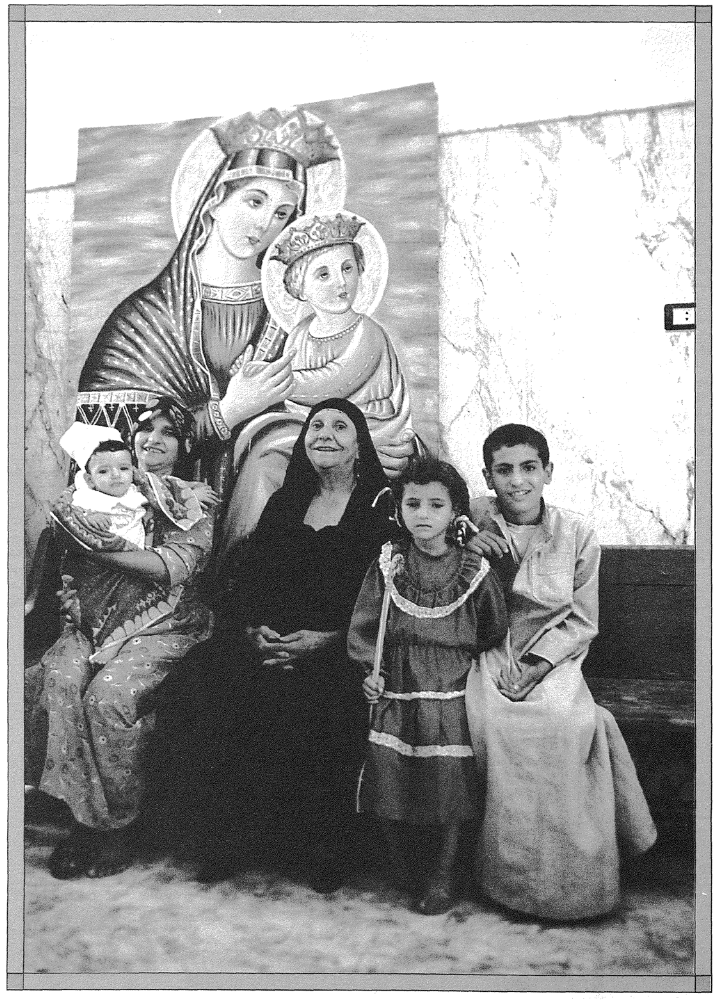
ويشرح هذا الكتاب بالكلمات والصور حياة الأقباط فى مصر من منظور زائر أجنبى: كيف يمارسون شعائر دينهم، وكيف حافظوا على التقاليد القديمة حية، وكيف ينعكس كل ذلك على حياتهم اليومية فى صورة الموالد وهى عبارة عن احتفالات بأعياد ميلاد أو استشهاد القديسين يحضرها آلاف الناس من المسيحيين والمسلمين. كما نفذ المصور الفوتوغرافى إلى حياة جامعى القمامة المصريين الذين يطلق عليهم الزبالين ويعملون مسيحيين ومسلمين فى نفس المهنة، كما يصف عملهم وكيف تحسنت حياتهم ومستقبل أبنائهم بدرجة كبيرة نتيجة لتلبية حاجاتهم الأساسية من مساكن ومدارس ورعاية صحية عن طريق البرامج الاجتماعية الحكومية وغير الحكومية.

ويحتفظ قداسة البابا شنودة الثالث بابا الأقباط بصلة حميمة مع رعاياه من خلال لقاءاته العامة الأسبوعية المنعقدة كل أربعاء والتى يحضرها مئات الأقباط. ومن الواضح أن قربه منهم وسهولة الالتقاء به كان لهما أعمق الأثر على طريقة حياة الأقباط وممارستهم لشعائر دينهم.

يسرية لوزة ساويرس

Coptic Life in Egypt
(حياة الأقباط فى مصر)
Claudia Yvonne Wiens
Auc Press, 2003, 128p. L.E. 150.00





يحتفل كل من المسلمين والأقباط فى مصر بموالد (أعياد ميلاد) القديسين والشهداء والأولياء.

ويحتفل العديد من الناس بالموالد المسيحية فى شكل رحلات حج سنوية للأضرحة. وتنتمى الموالد إلى الديانة الشعبية والتى تضم أيضا العديد من جوانب الحياة الشخصية والاجتماعية. ويختلف السلوك والتقاليد الدينية عند العامة كثيرا عنه فى الكنيسة الرسمية رغم وجود بعض التطابق أحيانا. ولمعظم طقوس الديانة الشعبية جذورها فى التراث الدينى لمصر الفرعونية. وكان المعتقد الدينى كما كانت الحياة الآخرة هو دائما ما يحكم السلوك الدينى عند المصريين وهو عامل ساعد دون شك فى قبول الديانة المسيحية. فقد آمن الأقباط أن الناس يعيشون حياتهم انتظارا لدخولهم الفردوس، ولذلك كانوا يعتبرون موت قديس أو شهيد كيوم ميلاد. ولم يتطور ذلك إلى مراسم جنازة إلا فى القرن الرابع للميلاد. وكان الأقباط حتى العصور الحديثة ينظرون إلى استشهاد قديس كولادة ثانية له فى الحياة السرمدية. وواصل العديد من الناس اتباع تقاليد أسلافهم الفراعنة، وجرى استبدال الآلهة الفرعونية بالقديسين والشهداء الذين أصبحوا موضع توقير وتبجيل. وبعد وقت قصير أصبح لكل مستعمرة رعاتها الخاصون من القديسين والشهداء الذين شيدت لهم الأضرحة والمقابر التى تضم رفاتهم والتى أصبحت موضع تبجيل وصلاة. وقد ارتبط كل قديس وكل شهيد بقصص خارقة تتناسب مع ظروف استشهاده. وكان للقديسين والشهداء هوية دينية حقيقية وملموسة أكثر من التعاليم المجردة للديانة الرسمية.



وسرعان ما أصبحت مقابر وأضرحة القديسين مكانا لإقامة موالد سنوية. حدث ذلك فى الأديرة والكنائس والبقاع المقدسة الأخرى. وتشكل الأحداث الخارقة المرتبطة بأحد الموالد جانباً مهماً منه. ولتلك الظواهر تاريخ طويل راسخ وينتظر أن تتكرر بانتظام. وهى الدليل الإلهى على قدسية الاحتفال.

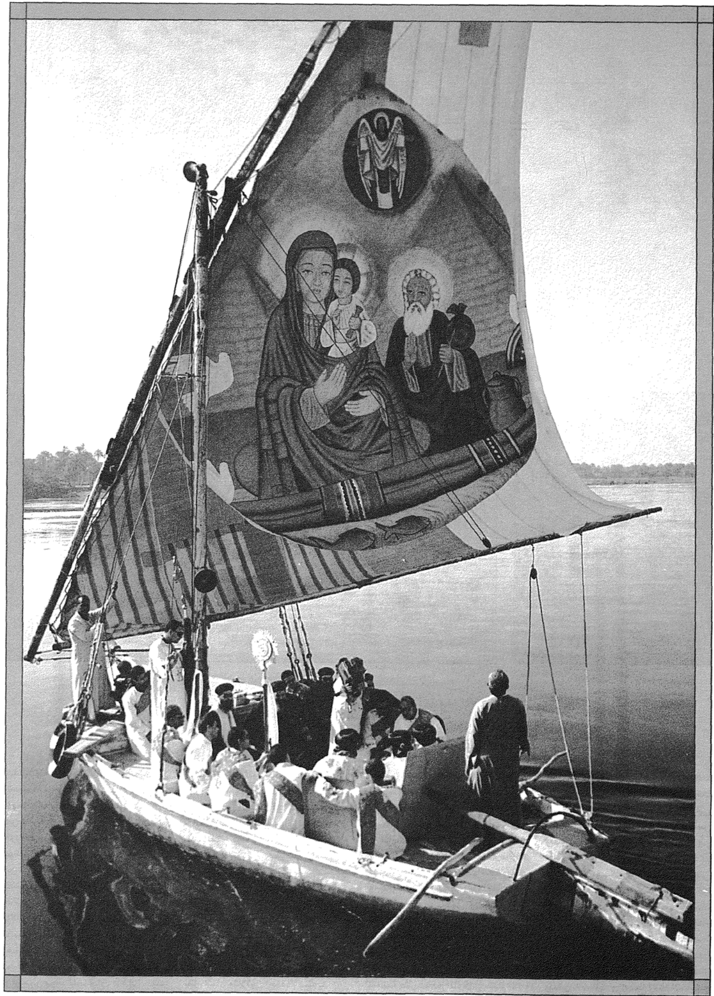
وتنقسم تلك المعجزات إلى نوعين. فهناك التى تتعلق بالأفراد مثل منح الخصوبة للنساء العاقرات وعلاج المرضى العقليين أو العصبيين أو طرد الأرواح الشريرة أو استعادة المفقودات أو المسروقات. وهناك الرؤى مثل نور أو طيف السيدة العذراء فى صورة ضوء ساطع مثلما حدث عدة مرات فى أغسطس ٢٠٠٠ بكنيسة القديس مرقس بأسيوط. وقد صدرت الأضواء من أبراج الكنيسة حتى تجمعت لتشكل صورة مريم العذراء. ويؤكد العديد من المؤمنين أنهم شاهدوا رؤى ببقاع مقدسة. ويحضر الموالد العديد من المرضى العقليين أو العصبيين والنساء العاقرات والحجيج الآخرين آملين فى الشفاء أو البركة.

وليست معظم الموالد مجرد أحداث جادة فقط بل هى أيضاً مناسبات حافلة باللهو والبهجة. ويشبه المولد السنوى بدير المحرق بمصر الوسطى والذى يستمر عشرة أيام، متنزهاً كبيراً أو مدينة ملاه. فالموسيقى عالية والناس يرقصون والباعة يبيعون السلع التايوانية الرخيصة والمكسرات والفاكهة وصور القديسين. ولا تخطئ العين محترفى رسم الوشم الذين يَشِمُون الصليب القبطى على معاصم الأقباط. وهم أيضاً يرسمون بالوشم صوراً أكبر للقديسين على الأذرع والأكتاف. ويقدر عدد الحجيج إلى دير المحرق بحوالى خمسين ألف شخص سنويا. وبالنسبة للفقراء من الأقباط والذين يشكلون نسبة عالية فى مصر الوسطى فإن فترة المولد هى عادة العطلة الوحيدة التى يمكن أن يتحملوا نفقاتها. وهم ينصبون خيامهم حول الدير لعدة أيام ويقومون بزيارة الكنائس للصلاة والتوسل ويتمسحون بالأضرحة وصور القديسين من أجل تحقيق الشفاء والحصول على البركة. وتقوم الكثير من العائلات بتقديم الأضحية من الأغنام والماعز. ويجرى ذبح تلك الأضحية فى سلخانة الدير ثم يباركها قسيس أو راهب وبعد ذلك يجرى توزيعها.



وتعتبر الموالد أيضاً مناسبة طيبة لتعميد المواليد الجدد. ومن المألوف بالنسبة للرهبان القساوسة أن يقوموا بتعميد مئات المواليد أثناء مولد يستغرق







موالد الأقباط فى مصر

أياماً قليلة. والتعميد هو أول الطقوس المسيحية وأهمها على الإطلاق، فبدونه لا يمكن أداء باقى الطقوس الأخرى، فهو شرط أساسى للخلاص ودخول ملكوت الرب طبقا لكلمات عيسى: «ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا ولد من الماء والروح» (يوحنا ٣:٥). ويجرى أثناء التعميد تجديد روح المولود من خلال غمره فى الماء ثلاثا باسم الآب والابن والروح القدس وبذلك يكون قد توحد مع المسيح وهيئة الكنيسة. ويجب تعميد المواليد فى أسرع وقت ممكن بمجرد بلوغهم سن ثمانين يوماً للبنات أو أربعين يوماً للغلمان، فخلال تلك الفترة التالية للولادة تعتبر المرأة غير طاهرة ولا يسمح لها بالمشاركة فى المراسم الدينية مثل التناول أو التعميد. وفى حالة المرض أو خشية وفاة المولود خلال تلك الفترة يمكن لشخص آخر غير الأم أن يأخذه للكنيسة. وبعد غمر المولود فى الماء ثلاثًا ترسم شارة الصليب اثنتين وثلاثين مرة بالزيت على بشرة المولود ذكراً كان أم أنثى.

ويبجل الأقباط الكثير من الشهداء والقليل من القديسين. وتتبوأ السيدة العذراء المكانة العليا وتحوز القدر الأكبر من التبجيل. فلها وحدها وعلى شرفها يقام اثنان وثلاثون احتفالاً سنوياً.

ومن الأسباب الأخرى لرحلات الحج التقليد العريق والدءوب الذى يساند رواية الإنجيل عن فرار العائلة المقدسة إلى مصر (متى ٢:١٣ ـ ١٥). وتقام كثير من الاحتفالات فى البقاع التى يعتقد أن العائلة المقدسة نزلت بها أثناء فرارها. ويقام أحد تلك الاحتفالات التذكارية كل عام فى الأول من يونيو بمنطقة دير أبو حنيس بمصر الوسطى. ويقوم أسقف ملوى فى هذا الاحتفال ومعه أسقفان آخران والعديد من كبار الكهنة بعبور النيل فى قارب شراعى بديع الزينة. ويرمز عبور النهر إلى رحلة العائلة المقدسة على سطح النيل. ويتبع آلاف المؤمنين القارب الشراعى إلى الضفة الأخرى للنهر. ومن هناك يتحرك الركب إلى قمة جبل كوم ماريا منشدين الأغانى المقدسة البهيجة أثناء مرورهم بالكنائس وبدير أبو حنيس فى طريقهم. ويشتهر جبل كوم ماريا بمنح الخصوبة للنساء العاقرات. ويمكن للمرء بين الحين والآخر أن يلمح امرأة تتجول بالجبل وتصلى من أجل الخصوبة. وتنصب بأعلى الجبل خيمة لكبار الكهنة والخدم الذين يحيون ذكرى زيارة العائلة المقدسة لتلك المنطقة. ويستمر أحد الطقوس لبضع ساعات يغنى خلالها الأطفال وتلقى الخطب. ويتجمع آلاف الحجيج

خارج خيمة الاحتفال للمشاركة فى إحياء الذكرى.



ويقام بكنيسة السيدة مريم العذراء بجبل الطير فى مصر الوسطى احتفال آخر على شرف العائلة المقدسة وبخاصة السيدة العذراء. وطبقًا للتقاليد فتلك هى البقعة التى شعرت فيها مريم بالخوف على سلامة عيسى حيث أوشكت صخرة هائلة أن تهوى عليهم، ولكنه بسط يده وأزاح الصخرة بعيداً. ويقال أن عيسى ترك أثر كفه مطبوعا فى ذلك المكان. ويأتى الحجيج من كل مكان قاص ودان عبر النيل ويتجمعون فى موكب بهيج من الغناء وقرع الطبول.

ويقام عند دير العذراء فى درنكة على بعد عشرة كيلومترات من أسيوط فى شهر أغسطس من كل عام ولمدة خمسة عشر يوماً مولد آخر شديد الازدحام. وتوجد بسفح التل مدينة ملاه ضخمة تضم أرجوحة دوارة وألعاباً أخرى. وقد اجتذب هذا المولد فى أغسطس ٢٠٠١ أكثر من عشرين ألف شخص نظراً لتكرار رؤية أطياف الضوء فى ليال عديدة. وقتها شعر المؤمنون أن الله معهم. ■

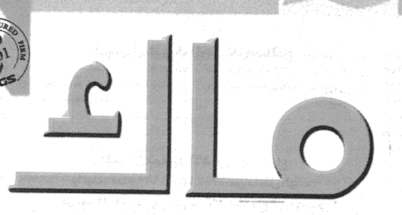
هـــذا الكتـــاب..

اهتمت معظم الكتب الفوتوغرافية السابقة التى تناولت المسيحيين المصريين بتصوير التراث الفنى والمعمارى القبطى فحسب، أما هذا الكتاب فيقوم بالتركيز على التقاليد الدينية والحياة الاجتماعية للناس العاديين من أقباط مصر والذين اعتادوا أن يبرزوا معتقداتهم ويظهروها من خلال التذكارات والرموز المسيحية فى المحال والمتاجر، بل بأماكن العمل. وهو يكشف بذلك عن جانب شبه مجهول للدين المعاش فى واحد من المجتمعات المسيحية لا يدرى بها الكثيرون فى العالم الغربى.

ينقسم الكتاب الصادر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة إلى سبعة فصول، يبدأ كل منها بمقدمة وجيزة تشرح خلفية الطقوس والتقاليد والعقائد التى جسدتها كلوديا وينز فى صور فوتوغرافية.



متواجد في مراكز


ISO 9001
QUALITY ASSURED FIRM
SGS
ماك

أزمة البحث العلمى فى مصر

نبيل عبد المجيد صالح

في عصرنا الحالى يقاس التقدم الاقتصادى والاجتماعى لأى دولة بمدى تقدمها العلمى لما يسهم البحث العلمى فى التقدم الصناعى والزراعى والغذائى والصحى للدولة من خلال التطوير والابتكارات التى تؤدى إلى صناعات جديدة ومنتجات جديدة قادرة على المنافسة على المستوى العالمى وبالتالى إلى رفع الدخل القومى وخلق فرص جديدة للعمل.

لقد آن الأوان لأن يلعب البحث العلمى دوراً أساسياً فى اقتصاديات البلد. حتى نتحول إلى دولة منتجة للتكنولوجيات وليس دولة مستخدمة ومستوردة لها فقط. وإذا ما استمررنا على هذا النمط من مستخدم للتكنولوجيا بدلاً من منتج لها، فسوف ننتهى مثل غالبية الدول النامية التى تزداد فقراً وجهلاً بدلاً من الخروج من هذه الدائرة المغلقة. ولنتعلم مما يحدث فى أوروبا من تطوير لوحدة أوروبية تتطور فيها الدول النامية ودول شرق أوروبا سابقاً وتنضم للوحدة الأوروبية على قدم المساواة بالدول الصناعية وتأخذ طريقها للحاق بقطار التنمية من خلال التخطيط العلمى السليم.



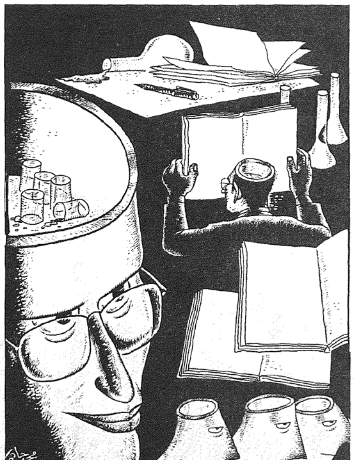
إن الفكر القديم مبنى على التغيير المتتابع ولكن الفكر الجديد فى التنمية مبنى على أساس التغيير المتزامن. ومن هذا المنطلق، فإن أى تغيير أو تحسين فى الأداء بالنسبة للبحث العلمى لن يؤتى ثماره إلا إذا كان مبنياً على أساس التغيير المتزامن والمتكامل. وهذا لن يتأتى إلا إذا كان التغيير شاملاً فى كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والبحث العلمى والصناعة والزراعة وخلافه. ولتنفيذ هذه الخطة لابد من تضافر كل الأطراف باستخدام أحدث أساليب الإدارة وتجنيد كل الإمكانيات لوضع سياسات طويلة المدى واستراتيجيات خادمة لهذه السياسات واضعين نصب أعيننا إيجابياتنا وسلبياتنا وتعظيم الاستفادة من الإمكانيات الحالية وتطويرها.

منذ إنشاء جامعة القاهرة فى ١٩٠٨ توالى إنشاء باقى الجامعات ثم المركز القومى للبحوث فى ١٩٥٦ وهيئة الطاقة الذرية فى ١٩٥٧ وكانت هناك قاعدة عريضة للعلماء فى العديد من التخصصات حتى أواسط الستينيات



أكثر من ثمانية آلاف براءة اختراع بالهند لعام ١٩٩٩ منها ٢٢٤٧ من داخل الهند، بينما كل ما سجل من براءات اختراع فى مصر لا يتعدى الخمسمائة فى العام نفسه. ومؤشر آخر هو عدد البحوث المنشورة عالمياً، فالهند نشرت ما يوازى ٢,١٪ من الأبحاث المنشورة عالمياً خلال الأعوام ١٩٩١ - ٢٠٠٠ بينما مصر لم تصل إلى ٠,٥٪





على مستوى علمى لا يقل عن قرنائهم فى الغرب ثم بدأ التذبذب فى المستوى العلمى إلى أن انتهينا إلى الوضع الحالى. ويكفى أن ننوه هنا إلى أن مصر كانت ضمن مجموعة دول عدم الانحياز والتى كانت تضم فى حينه الهند، وكانت هناك اتفاقيات للتعاون العلمى بين البلدين ولكن للأسف لم نستفد من هذه الاتفاقية. وها هى الهند بدأت تجنى ثمار التخطيط العلمى والطفرة العلمية التى بدئ فى التخطيط لها فى حينه وبدأت حالياً فى التحول إلى دولة منتجة للتكنولوجيات. ومن المؤشرات التى تؤكد هذا أنه تم تسجيل أكثر من ثمانية آلاف براءة اختراع بالهند لعام ١٩٩٩ منها ٢٢٤٧ من داخل الهند، بينما كل ما سجل من براءات اختراع فى مصر لا يتعدى الخمسمائة فى العام نفسه. ومؤشر آخر هو عدد البحوث المنشورة عالمياً فالهند نشرت ما يوازى ٢,١٪ من الأبحاث المنشورة عالمياً خلال الأعوام ١٩٩١ - ٢٠٠٠ بينما مصر لم تصل إلى ٠,٥٪.

إن حالة البحث العلمى فى مصر ليست سيئة على إطلاقها فهناك إيجابيات إلى جانب السلبيات وسنوردهما معاً فيما يلى بالإضافة إلى بعض المقترحات لتطوير التعليم العالى والبحث العلمى فى مصر.

الإيجابيات

القاعدة العلمية: هناك قاعدة علمية عريضة على مستوى علمى رفيع ولكن الحفاظ عليها فى وجود السلبيات سوف يكون صعباً مع مرور الزمن حيث ستتضاءل النسبة الجيدة والمنتجة بالمقارنة بالنسبة غير المنتجة مما يحتم إعادة النظر فى السلبيات (خاصة المرتبطة بالأخلاقيات) والتصدى لها من الآن. ومن التخصصات التى لها قاعدة قوية فى مصر هى الكيمياء والعلوم الصيدلية وعلوم البيئة وبعض التخصصات الزراعية وبعض التخصصات الهندسية (بما فيها الرى) إلى جانب بعض التخصصات الطبية.

الإمكانيات الأساسية: قاعدة عريضة من حيث الإمكانيات والتجهيزات مثلاً

فى مصر لا تشارك الصناعة بأى شكل فعال فى البحوث والتطوير. ومن الصناعات القليلة التى كان لها بعض الأنشطة فى البحوث والتطوير هى صناعة الدواء وبعض الصناعات الهندسية ولكنها لا ترقى إلى المستوى المنشود لسد حاجة هذه الصناعات فى هذا العصر التكنولوجى.

١٣ جامعة حكومية و٤ جامعات خاصة (واثنين تحت الإنشاء) وأكثر من مائة مركز بحثى حكومى. ولكن الكثير منها ينقصها التجهيزات الحديثة المواكبة للعصر التكنولوجى الحديث والقوى البشرية محتاجة إلى التعليم المستمر ورفع مستواها العلمى كما أن هناك نقصاً شديداً فى الكوادر الفنية والعمالة المساعدة والملمة بأحدث التكنولوجيات.

السلبيات

سياسات العلم والتكنولوجيا: عدم وجود سياسة للدولة فى مجال العلم والتكنولوجيا يعتبر من أهم العوامل السلبية التى أدت إلى عدم وجود استراتيجيات واضحة للبحث العلمى. وقد جرى فى الثمانينيات والتسعينيات عدة محاولات لوضع سياسة للدولة وشارك فيها العديد من الخبراء فى مجال البحث العلمى والإدارة والاقتصاد وانتهت بتقارير وتوصيات تم حفظها ولم تر التطبيق بأى شكل من الأشكال. وهناك بعض السياسات القطاعية (مثل الزراعة والرى) ولكن لا ترقى إلى سياسة متكاملة للدولة يمكن أن تستفيد من الإمكانيات خارج هذه القطاعات، كما هو الحال فى حالة وجود سياسة عامة للدولة تربط ما بين كل المؤسسات البحثية والتنفيذية.

التمويل: لا يزيد الصرف على البحوث والتطوير فى مصر عن ٠,٣٥ من الدخل القومى. وإذا ما قورنت هذه النسبة بالدول العربية فسوف نجد أنه يمكن تقسيمها إلى أربع فئات: مصر والأردن ٠,٣٪ وأكثر والكويت والمغرب واليمن والسودان وموريتانيا ٠,٢، ٠,٣٪ وسوريا والسعودية والإمارات وتونس ٠,١ - ٠,١٩٪ وباقى الدول العربية أقل من ٠,١٪. وهذه الأرقام من واقع دراسات اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا والتابعة لهيئة الأمم المتحدة. وهذه النسب لا تضاهى ما تصرفه الدول المتقدمة علمياً والتى تصل نسبتها إلى ٣٪ (ومنها إسرائيل ٢,٤٪) وفى الدول المتقدمة يتم مشاركة الصناعة بما يوازى ٥٠ - ٧٥٪ من هذه النسبة أى أن نصيب الدولة لا يقل عن ١,٥ - ١٪. وفى مصر لا تشارك الصناعة بأى شكل فعال فى البحوث والتطوير. ومن الصناعات القليلة التى كان لها بعض الأنشطة فى البحوث والتطوير هى صناعة الدواء وبعض الصناعات الهندسية ولكنها لا ترقى إلى المستوى المنشود لسد حاجة هذه الصناعات فى هذا العصر التكنولوجى.



الأخلاقيات: إذا تحدثنا عن الأخلاقيات فى البحث العلمى فهناك شقان، الأول يتعلق بأخلاقيات البحث العلمى من حيث نوعية الأبحاث وتطبيقاتها وعلاقاتها بالمعايير الأخلاقية والدين وما هو مباح وما هو محرم وهذا ليس مجال الحديث هنا. والشق الثانى يتعلق بنوعية الباحث ومدى تمسكه بالقيم والأخلاقيات والتفرقة ما بين الصواب والخطأ، وهذا الشق هو ما سيتم التركيز عليه. فمن السلبيات الكبيرة والمؤثرة على البحث العلمى فى الجامعات ومراكز البحوث هى ظهور طبقة من المنتفعين من الفجوات فى القوانين واللوائح إلى جانب أن الوظيفة أصبحت مضمونة للعمر بدون محاسبة أو تقييم حقيقى والنتيجة ضحالة المستوى العلمى وعدم المقدرة على مجاراة المستوى العلمى العالمى. كما أصبحت قصص البحوث المسروقة أو المكررة حديث الصحافة وبدأت تؤثر على مدى قبول الباحث المصرى فى المجتمعات العلمية العربية والعالمية.

من السلبيات أيضاً أن المجلات العلمية المحلية والمحكمة محلياً والكثير منها حتى لا تحكم الأبحاث مما تسبب عنه استسهال النشر بها لعدم رفض البحوث بها وبعكس ما هو متبع فى الخارج من تحكيم علمى بدون مجاملات. والنتيجة أن الأبحاث والمجلات المحلية لا يعلم عنها المجتمع العلمى العالمى (أو حتى المجتمع العلمى المحلى) أى شىء.

كما أن رسائل الماجستير والدكتوراة أصبحت روتينية والتحكيم الخارجى شبه غير موجود إلا فى النادر (مثل بعض كليات جامعة القاهرة)، ومن النادر وجود حالات ترسب فى الدراسات العليا.

ثم إن الترقيات أصبحت شبه روتينية وداخلية بمعنى عدم وجود محكمين دوليين. والمجاملات أصبحت السمة الغالبة.

والتعيينات يشوبها الكثير من الروتينية بناء على الثلاثة أسباب السابقة بدلاً من تعيين أحسن الموجودين من خلال الإعلان عن الوظيفة ولو من خارج الجامعة أو مراكز البحوث.

أيضاً لا يوجد نظام صارم للثواب والعقاب يكافأ المجيد ورادعاً للمخطئ وفى غالبية الأمور يتم التحقيق ثم يحفظ ونادراً ما يحول إلى مجالس التأديب ولم تؤد حتى هذه النسبة الضئيلة من مجالس التأديب إلى عقاب رادع وأقصاها التأنيب أو اللوم.

استراتيجية جديدة

إذا درسنا وضع البحث العلمى فى الدول المتقدمة وبعض الدول النامية والواعدة، فسوف نجد أن الصفة المشتركة هى وجود سياسات واستراتيجيات للعلم والتكنولوجيا والابتكار. ويلاحظ أن معظم هذه الدول أعطت أهمية كبيرة لموضوع الابتكار. وإذا كان القاسم المشترك بين هذه الدول هو وجود سياسات واستراتيجيات، فليس لدى كل هذه الدول وزارة للبحث العلمى. بل مؤسسات تتبع رئيس الدولة (أو رئيس الوزراء. حسب الوضع الدستورى). وليس المجال هنا سرد هذه التجارب بقدر الوصول إلى أحسن الصيغ التى تخدم البحث العلمى فى مصر. وأهم نقطة يجب التركيز عليها أن كل الدول المتقدمة لها سياسات واستراتيجيات للعلم والتكنولوجيا، كما يتضح أن مصر قد سبق لها دراسة هذا الموضوع كما ذكرنا سالفاً ولكن لم تر هذه الدراسات الضوء. وقد آن الأوان لوضع هذه الدراسات نصب أعين واضعى السياسات بالدولة، لأنه بدون سياسات أو استراتيجيات فسوف يقتصر دور البحث العلمى على المجهود الفردى للسادة البحاث. وسوف يرضى الكثيرون بعدم بذل مجهود فى مجال لم يطلب منهم عمل كجزء من منظومة متكاملة وهو ما يجب أن يكون عليه البحث العلمى كجزء أساسى من منظومة التقدم الاقتصادى والاجتماعى.



وبناء عليه يقترح إعادة النظر فى الدراسات السابقة وتحديثها واضعين فى الاعتبار النقاط التالية:

١. إنشاء آلية ثابتة ومحايدة وبعيدة بقدر المستطاع عن التأثير السياسى للوزارات المختلفة لوضع ومتابعة وتعديل مسار وتنفيذ سياسة العلم والتكنولوجيا.

٢. تجميع الدراسات السابقة بما فيها النابعة من اللجان الخاصة بمجلسى الشعب والشورى وتلخيصها وعرضها كنقطة بداية قابلة للتغيير والتطوير.

٣. دراسة تجارب الدول المتقدمة والنامية للخروج بأنسب التجارب التى يمكن تطبيقها تحت الظروف المحلية.

٤. استخدام الطرق الحديثة للاستشراف المستقبلى لمتطلبات كل قطاع مثل الدلفى (Delphi) والتى تم تطويرها إلى برامج مثل Foresight والمستخدمة فى الدول المتقدمة صناعياً.

٥. مشاركة جميع قطاعات البحث العلمى (جامعات ومراكز بحوث) والجهات المستفيدة الحكومية والخاصة (الصناعية والزراعية والصحة.. إلخ) والجهات التنفيذية (التخطيط والتمويل،



من السياسات الكبيرة والمؤثرة على البحث العلمى فى الجامعات ومراكز البحوث ظهور طبقة من المنتفعين من الفجوات فى القوانين واللوائح إلى جانب أن الوظيفة أصبحت مضمونة للعمر بدون محاسبة أو تقييم حقيقى



الخارجية.. إلخ) فى وضع الخطوط العريضة لسياسة الدولة للعلم والتكنولوجيا والابتكار.

٦. تشجيع الصناعة على المشاركة فى إنشاء وحدات للبحث والتطوير، إلى جانب المشاركة فى التمويل (مهما قل فى البداية).

وبالنسبة لمشكلة التمويل يجب أن نضع نصب أعيننا أن الاستثمار فى البحث العلمى هو ضمان للتنمية المستقبلية قصيرة وبعيدة المدى وأن العائد لا يقدر بثمن. وبناءً على الدراسات والمقترحات التى تتبع من المقترح تحت بند (١٠٤) يتم وضع ميزانية مفصلة للعلم والتكنولوجيا على أن تكون مصادر التمويل كالتالى:

١. الدولة: يتم زيادة المنصرف حتى تبلغ ١,٥.١٪ من الدخل القومى فى خلال خمس سنوات. على أن يتم التركيز على العلوم الأساسية ورفع مستوى المعرفة أساساً لدعم قاعدة علمية على أعلى مستوى، مع تشجيع ودعم البحوث التطبيقية والابتكار وبراءات الاختراع.

٢. الصناعة: يتم إنشاء صناديق لتمويل البحوث التطبيقية والإنتاجية والابتكارات الخاصة بالصناعة على أن تتولى الصناعة بالتعاون مع وزارة البحث العلمى فى وضع الأولويات المطلوبة للصناعة من منتجات جديدة وطرق إنتاج جديدة. خاصة المنتجات التى يمكن تسويقها إقليمياً وعالمياً.

٣. التمويل الدولى: هذا التمويل مرتبط بالعلاقات الدولية والبحوث والبرامج المشتركة مع الدول النامية والدول العربية أو الدول المتقدمة صناعياً والتى لها منفعة مشتركة مع مصر. وهناك العديد من الاتفاقيات التى يمكن أن تخدم سياسة واستراتيجيات الدولة فى مجال العلم والتكنولوجيا كما هو مشروح فى الجزء الخاص بالتعاون الدولى.

إعادة هيكلة البحث العلمى:

هناك حاجة ماسة إلى إعادة النظر فى هيكلة البحث العلمى، ويوجد أكثر من سيناريو يمكن دراستها بطريقة عملية وعلمية وصولاً لأحسن الأشكال التى يمكن أن تخدم اقتصاد البلد فى هذه الفترة. خاصة بعد تطبيق اتفاقية الجات، حيث سيتم تقييم المنتجات الصناعية والزراعية وخلافه وليس ببعيد أن يتم تقييم مستوى التعليم الجامعى وتصنيفه مقارنة بباقى العالم.

وبناء عليه فقد آن الأوان للتفكير فى أن تتولى وزارة البحث العلمى مسئولية وضع السياسات والاستراتيجيات، بينما يتولى جهاز آخر مسئولية إدارة مراكز البحوث إدارياً ومالياً. حتى تتفرغ الوزارة للتخطيط على المستوى القومى وهناك عدة حلول يمكن دراستها وصولاً إلى الحل الأمثل. وهذا يتطلب تضافر كل الوزارات والجهات المستفيدة فى هذا المجهود، ضماناً لوضع سياسة متفق عليها ولتطبيقها من خلالهم بالتعاون مع باقى الجهات البحثية الحكومية والخاصة.

وقد كان هناك تفكير فى إحدى الفترات نحو تخصيص البحث العلمى، وهذا غير وارد أو مقبول ضماناً لعدم تحكم جهات غير حكومية فى سياسة الدولة للبحث العلمى. وإذا كان الدافع لهذا التفكير أن حوالى ٧٥٪ من تمويل البحث العلمى فى الدول المتقدمة تمويل خاص فيجب أن نفهم أن هذا راجع لأن الصناعة فى الدول المتقدمة قطاع خاص، والشركات الصناعية العملاقة لديها إمكانيات للبحث والتطوير تفوق فى كثير من الأحيان المعامل والمراكز الحكومية البحثية هناك. ولكن يمكن الاستفادة من فكرة خصخصة أداء مراكز ومؤسسات البحث الحكومية من خلال الصناديق الخاصة أو الوحدات ذات الطابع الخاص وغيرها من الأفكار البناءة إلى جانب استخدام سبل الإدارة الحديثة فى التسويق ودراسات السوق والجدوى.

ومن سلبيات ضم وزارتى البحث العلمى مع التعليم العالى أن حجم الوزارتين أصبح عبئاً كبيراً مع الاعتراف بأن وزارتى التعليم العالى والبحث العلمى مشتركتان فى الكثير، ولكن التعليم الأولى مشترك أيضاً مع التعليم العالى فى الكثير وقد تم فصلهما. وقد يكون الحل هو ثلاث وزارات منفصلة: التعليم الأولى والتعليم العالى والبحث العلمى، على أن يجمعهم مجلس للتعليم والبحث العلمى يكون مسئولاً عن السياسات المشتركة والتكامل بين الثلاث وزارات ملحق به مكتب فنى يعمل مع الثلاث وزارات. وفى غالبية الدول المتقدمة تضم الثقافة إلى التعليم والبحث العلمى، ضماناً لتضمين الثقافة مع التعليم عامة. وهو ما ينقصنا كثيراً فى نظم تعليمنا عامة.



إن إعادة الهيكلة قد تكون عنق الزجاجة بالنسبة لمؤسسات البحث العلمى لتنطلق نحو تنفيذ سياسة الدولة. وهذا سوف يتطلب إعادة النظر فى أكثر من قطاع على النحو التالى:

التعليم: إذا اعترفنا بأن نسبة الأمية قد وصلت إلى حوالى ٥٠٪ من الشعب حسب آخر إحصائيات الأمم المتحدة فهذا سوف يضع العبء على الدولة للإسراع بمحو الأمية بطريقة فعالة وليس مجرد شعارات. وإذا وضعنا فى الاعتبار أن دراسات الأمم المتحدة تشير إلى أن العائد من الصرف على التعليم أعلى من العائد على التعليم العالى، فهذا دافع فى حد ذاته للصرف على تطوير التعليم حتى يتم محو أمية ما لا يقل عن ٩٥٪ من الشعب. وهناك بعض الأفكار التى يمكن أن تكون نقطة بداية ولابد أن هناك أفكاراً أكثر شمولاً فى وزارة التعليم ولا ينقصها إلا التمويل المناسب للتنفيذ، وعلى سبيل المثال:

١. مطلوب تنمية قدرات المعلم والمعلمة والمدرسة من خلال التعليم المستمر سواء من الناحية العلمية لكل تخصص أو من الناحية التربوية، كما يجب أن تستخدم أحدث أساليب التعليم الحديثة لتعليم الأطفال كيفية التفكير العلمى السليم وليس مجرد الحفظ مع تغيير وتطوير شكل الامتحانات.

٢. إدخال تكنولوجيات المعلوماتية ضمن المقررات. حيث أصبح تعبير «أمى» فى الحاسب الإلكترونى (Computer illierate) توازى «أمى» بالمفهوم القديم. وهذا يعنى أن القراءة والكتابة لم يعودا المقياس الوحيد للتعليم فى عصرنا الحديث.

٣. الاستفادة من فترة تجنيد الأميين (جيش أو شرطة) لتعليمهم خلال السنة الأولى من التجنيد ومحو أميتهم حتى يصبحوا مجندين ثم مواطنين صالحين وقادرين على اكتساب مهنة مفيدة للوطن ولأنفسهم.

٤. الاستفادة من الشباب العاطل فى جميع المحافظات فى مقابل مادى مجز لتعليم الأميين، خاصة الإناث وأمهات المستقبل مع عمل امتحانات جدية وليس الصورية التى تمنح حالياً ومعظم حامليها لا يمكن وصفهم بالقادرين على القراءة والكتابة.

٥. عدم السماح للأطفال بالعمل قبل انتهاء الشهادة الإعدادية على الأقل ثم التدريب على إحدى المهن المفيدة. وظاهرة عمالة الأطفال بدأت فى الانتشار ليس فى الريف والمجتمعات الزراعية فقط، ولكن زادت مؤخراً فى الصناعة والبناء والعمالة الرخيصة فى الحضر.



التعليم العالى: إذا وضعنا فى الحساب كل السلبيات السابق ذكرها، فسوف نجد أن إعادة الهيكلة بالنسبة للتعليم العالى أصبح من الضروريات التى بدونها لن ينصلح حال التعليم العالى وبالتالى البحث العلمى وفيما يلى بعض المقترحات فى هذا الشأن:



هناك تجربة الكويت الرائدة فى هذا المجال. حيث يتم خصم ٢٪ من صافى أرباح الشركات الصناعية للصرف على البحوث والتطوير لحساب مؤسسة الكويت للتقدم العلمى (وكانت ٥٪ قبل عام ٢٠٠٠) فى مواضيع تهم الصناعة المشاركة فى المقام الأول..

. إعادة النظر فى القوانين واللوائح المنظمة للتعيينات والترقى وهناك عدة نقاط يمكن أن تكون نقاطًا للبداية:

التعيينات: لا يمكن أن يستمر الحال على ما هو عليه حيث أصبح عضو هيئة التدريس ضامنًا لوظيفته منذ درجة المعيد حتى يتولاه الله دون أدنى محاسبة بحيث تحول عضو هيئة التدريس بالجامعات وعضو هيئة البحوث بمراكز البحوث إلى موظف عام وليس رمز أو قدوة.

وأدنى محاسبة هنا هو الثواب والعقاب فيجب المحاسبة على الإنتاج العلمى دوريًا. لماذا لا يكون التعيين بعقود لمدد محددة حسب الدرجة مثل كل الدول المتقدمة ولا يتم التثبيت إلا بعد الوصول إلى درجة علمية على المستوى العالمى؟ لماذا لا يكون التعيين عن طريق الإعلان المفتوح من مدرس إلى أستاذ كما هو متبع فى جميع دول العالم ومنها العربية والإفريقية بحيث يكون التعيين لأحسن المتقدمين بصرف النظر عن جامعته الأصلية وهذه التجربة جارى حاليًا تنفيذها بالجامعات الخاصة ولكن على استحياء. كما يجب أن يكون هناك على الأقل محكم دولى خارجى لكل متقدم للتعيين.



الأستاذ المتفرغ: لقد مر قانون الجامعات فيما يخص الأستاذ المتفرغ بعدة مراحل حتى صدور التعديل الأخير منذ أربعة أعوام ومازال محل مناقشات. وهناك أكثر من اقتراح: مثلاً مد خدمة الأستاذ إلى سن السابعة والستين مثل الهيئة القضائية ثم الإحالة إلى المعاش الكامل مثل غالبية العالم أو سن الستين ثم أستاذ متفرغ حتى السبعين كما هو متبع حاليًا وهناك حلول أخرى يمكن دراستها من خلال قاعدة أعضاء هيئة التدريس وفى إطار كامل لتطوير التعليم العالى وليس على شكل حلول جزئية. وفى جميع الأحوال يجب أن تكون هناك فترة انتقالية قبل تطبيق أى نظام جديد حتى لا يتضرر أحد من الفترة البينية.

❖ هل يعقل أن مدرسًا لم يترق إلى درجة الأستاذية أو حتى أستاذ مساعد له الحق عند بلوغه سن التقاعد أن يتم تعيينه أستاذًا متفرغًا حسب التعديل الجديد فى قانون الجامعات؟ أليس هذا تشجيع على عدم الإنتاج أو التحصيل العلمى مادام قد ضمن الوظيفة والتعيين أستاذًا متفرغًا (أو حتى مدرسًا متفرغًا!!).

الترقيات: يقترح إعادة النظر فى الترقيات على النحو التالى:

❖ إعادة النظر فى المجلات المحلية التى لا يتم فيها أى تحكيم واعتماد تلك التى لها محكم خارجى (دولى) (Peer reviewed) ومسجلة ضمن المجلات العالمية ولها ملخص.

❖ الرجوع إلى نظام التحكيم الخارجى (دولى واحد على الأقل فى كل درجة ترقٍ) فى جميع درجات الترقى (خاصة أستاذ مساعد وأستاذ). إلى جانب الأخذ فى الاعتبار مدى ذكر البحوث المنشورة كمراجع فى البحوث العالمية (Citation index) وبالتالى المستوى العالمى للبحوث المنشورة.

❖ وضع حد أدنى من البحوث المنشورة عند التقدم لأستاذ مساعد أو أستاذ (٦ و ٨ على التوالى) ما هو إلا تقليل من قيمة الأستاذية والتشجيع على أدنى إنتاج علمى. ثم كيف يتم توحيد الإنتاج العلمى بين التخصصات المختلفة؟ فلا يمكن مقارنة العلوم الطبيعية بالعلوم الإنسانية. كما لا يمكن مقارنة الكيمياء بالفيزياء داخل العلوم الطبيعية، فهناك تخصصات غزيرة النشر عدديًا وأخرى شحيحة العدد. لقد كان النظام القديم للترقى لا يضع حدودًا لعدد البحوث وكان الترقى بعدد ٢٠، ٥٠ بحثًا شيئًا طبيعيًا، وفى جميع أنحاء العالم لا حدود لعدد البحوث المنشورة عند التقدم للترقية. ومن الناحية القانونية فإن الإنتاج الكامل للباحث هو تعبير عن مستوى عمله وتحديد العدد يعطى المزور وناقل البحوث فرصة حجب ما يراه من بحوث مشكوك فيها.

❖ ألم يحن الوقت أن تضاف براءات الاختراع الموافق عليها (وليس المسجلة فقط) من ضمن متطلبات التعيين مثلها مثل البحث المنشور؟ وفى هذا تشجيع للاتجاه للابتكار. وخاصة أن مدى التقدم العلمى للدول النامية يقاس بعدد براءات الاختراع التى تبلغ حوالى العشرين ألفًا كل عام فى أقل الدول تقدمًا بينما لا يتعدى عددها الخمسمائة فى مصر وأكثر من ٩٠٪ منها من خارج البحث العلمى.

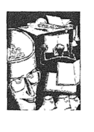
ولابد من إعادة النظر فى دور الجامعات، حيث اختلفت وظيفة الجامعة الحديثة. فالتعليم ليس الهدف الأوحد ولكن إنشاء أجيال جديدة قادرة على العمل والإنتاج بمجرد التخرج. وهذا سوف يتطلب فكرًا جديدًا فى المقررات ونوعية التعليم وتكنولوجيات التعليم واحتياجات السوق من عمالة متخصصة إلى جانب رؤية مستقبلية للجامعات ودورها فى خدمة المجتمع. والجامعات فى الدول المتقدمة تحولت من جامعات تعليمية إلى جامعات تعليمية/ بحثية لخدمة المجتمع فى جميع التخصصات المطلوبة بناء على دراسات لاحتياجات السوق المحلية والعالمية (وهذا ينطبق على العلوم الاجتماعية). وفكرة إنشاء جامعات أهلية داخل الجامعات الحكومية فكرة ستؤدى إلى تدنى المستوى أكثر. فكيف يتم استيعاب كل هذه الأعداد الإضافية بنفس الإمكانيات ونفس أعضاء هيئة التدريس؟ وكيف نتعامل قانونيًا مع نظامين تحت مظلة واحدة لا يفرقهم غير الصباح والمساء؟ وهل ستتم معاملة الجامعة الحكومية الأهلية نفس معاملة الجامعات الخاصة؟ ألن يوجد هنا تضارب فى المصالح ومن سيكون الحَكَم؟



الربط بين الصناعة والبحث العلمى:

بداية يجب أن ندرس أين نقف بالنسبة للصناعة فى مصر. لقد مر نقل التكنولوجيا فى الدول النامية بعدة مراحل. كانت المرحلة الأولى تسمى نقل التكنولوجيا ثم أصبحت نقل التكنولوجيا المناسبة ثم نقل التكنولوجيا التى يمكن تحمل تكاليفها حتى وصلنا إلى عصر نقل التكنولوجيا المسموح والمصرح به. وهنا مربط الفرس، فلن يسمح فى الوقت الحالى بنقل التكنولوجيات وأى نقل سوف يتم فى محيط التكنولوجيات القديمة فقط. وهناك حظر على نقل العديد من التكنولوجيات الاستراتيجية المتقدمة. وهذا لن ينفع التصدى له بغير البحث العلمى الجاد والقادر على إنتاج التكنولوجيات المحلية الجديدة. إذا كنا قد بدأنا منذ بداية الثورة فى إنشاء قاعدة عريضة للصناعة، فللأسف لم نحافظ على هذه الصناعات بالصيانة والتطوير والتحديث المستمر حتى وصلت معظم الصناعات إلى حال يرثى لها من سوء الإنتاج وأصبحت عبئًا على موازنة الدولة وعلى البيئة وفى كثير من الأحيان أصبح لها تأثير سلبى على صحة العاملين بهذا القطاع لعدم وجود الأمان أو الوقاية الكافية. وإذا كانت خصخصة الصناعة هى الحل. فنعم للخصخصة ولكن لا لبيعها للشركات الأجنبية. وليس هذا مجال الحديث فى هذه التفاصيل ولكن يجب أن نضع فى الحسبان بأنه لا تقدم لمصر بدون صناعات مصرية وليست الصناعات الأجنبية التى لن تسمح بعمل البحوث والتطوير فى مصانعها وعلى أرض مصرية بأى شكل من الأشكال وبالتالى لن نطور أو ننشئ صناعات مصرية جديدة. ولكى نصل إلى حل للربط بين الصناعة المصرية والبحث العلمى فهناك الحلول التى يمكن أن نبدأ بها:

❖ بداية يقترح إعادة النظر فى فصل وزارة قطاع الأعمال عن وزارة الصناعة. إلى جانب إيجاد





لقد وصل بنا الحال مؤخرًا
إلى أن مصر من أقل ثلاث دول
عربية من حيث نسبة طلاب
الثانوية العام الدارسين للعلوم الطبيعية
حيث بلغت نسبتهم ١٨,٢٪ فى عام ١٩٩٩،
تليها المملكة السعودية (١٦,٥٪)،
ثم اليمن (١١,٣٪)



رابط قوى بين الوزارتين ووزارة الإنتاج الحربى ووزارة البيئة. وقد يكون الحل هو مجلس أعلى للصناعة يضم الوزارات الأربع إلى جانب ممثلى رجال الأعمال والقطاع الصناعى الخاص، لوضع السياسات والاستراتيجيات القومية للصناعة.

* التمويل المشترك: وهذا مفتاح مهم فى الربط بينهما من خلال صناديق خاصة للبحوث يشارك الجانبان فيها مع دعم حكومى ويشاركان فى الحصيلة فى حالة الابتكارات وتطبيق نتائج البحوث. وهناك تجربة الكويت الرائدة فى هذا المجال. حيث يتم خصم ٢٪ من صافى أرباح الشركات الصناعية للصرف على البحوث والتطوير لحساب مؤسسة الكويت للتقدم العلمى (وكانت ٥٪ قبل عام ٢٠٠٠) فى مواضيع تهم الصناعة المشاركة فى المقام الأول.
* دراسة تبادل الكوادر العلمية. ففى الدول المتقدمة يمكن لكبار التكنولوجيين التعيين والتدريس بالجامعات أو لأساتذة الجامعات التعيين فى الصناعة مما نتج عنه نقل المعرفة فى الاتجاهين وتوثيق التعاون بين الجهتين.
* التركيز على البحوث التطبيقية والابتكار للربط بين الصناعة والبحث العلمى.
* التدريب والتعليم المستمر وإعادة التأهيل على مستوى الباحثين والتكنولوجيين والكوادر الفنية.

. تجديد البنية الأساسية من المعامل البحثية بأحدث التجهيزات ووحدات الصيانة المدربة والوحدات نصف الصناعية متعددة الاستخدامات.

. تكوين الكوادر القادرة على إدارة البحوث والتطوير وتدريسها فى الكليات العملية وعدم تعيين القيادات العلمية بدون التدريب على هذا النمط من الإدارة.

التنمية البشرية

التنمية البشرية من أهم الأعمدة التى تعتمد عليها أى دولة متقدمة فى البحث العلمى ومفهوم التنمية البشرية ينطبق على جميع المستويات بداية بطالب المدرسة والجامعة والخريج والباحث فى المعمل والمصنع والكوادر الإدارية والكوادر الفنية وانتهاء بالعمال.

وأى تدريب سوف يرفع من مستوى العمل والأمان داخل المعامل والمصانع وبالتالى من نوعية ومستوى الإنتاج ليكون قادرًا على المنافسة العالمية من خلال التوحيد القياسى لمنتجاتنا وهذا سوف يتطلب إلى جانب النقاط التى تم سردها تحت التعليم والتعليم العالى والبحث العلمى إلى وجوب إيجاد نظام للتعليم والتدريب المستمر على جميع المستويات والقطاعات كما سيتطلب الاستفادة من العلماء المصريين بالخارج كأحد المصادر المهمة للتعليم ونقل المعرفة من خلال المشاريع والبرامج المشتركة. إن العلماء والتكنولوجيين المصريين المغتربين قوة ضاربة لم نستفد منها كما يجب، والمطلوب وضع خطة قومية للاستفادة منهم فى إطار السياسات والاستراتيجيات المقترحة سالفًا. وازدواج الجنسية لا يعنى ألا نستفيد من المصرى المغترب وهناك العديد من الأمثلة الناجحة التى خدمت مصر فى أكثر من موقع.



لقد وصل بنا الحال مؤخرًا إلى أن مصر من أقل ثلاث دول عربية من حيث نسبة طلاب الثانوية العامة الدارسين للعلوم الطبيعية حيث بلغت نسبتهم ١٨,٢٪ فى عام ١٩٩٩، تليها المملكة السعودية (١٦,٥٪)، ثم اليمن (١١,٣٪). ويجب علينا أن ندرس سبب عزوف الطلاب عن دراسة مواد العلوم الطبيعية والتى أدت إلى عزوف الطلاب عن التقدم لكليات العلوم والزراعة هذا العام فى مكتب تنسيق الجامعات. وإذا كان الأمر عرضًا وطلبًا، فهذا أكبر دليل على تدهور الحال فى سوق العمالة العلمية لعدم وجود طلب لها. والمطلوب هو التبسيط والترغيب للعلوم عامة والرياضيات خاصة والأهم وضع نظام لتشجيع الطلاب على الإقبال على العلوم الطبيعية وبالتالى البحث العلمى فى المدى البعيد، وهذا لن يتأتى إلا من خلال منظومة متكاملة كما أشرنا فى مواقع أخرى، إلى جانب تبسيط العلوم فى المدارس وربطها بحياتنا اليومية إلى جانب إنشاء متاحف ومعارض للعلوم على مستوى تكنولوجى رفيع. وفى حالة وجود سياسات للعلم والتكنولوجيا، وبالتالى استراتيجيات تنبع منها خطط عمل وفرص عمل. فسوف نجد أن هناك سوقًا للعمالة العلمية والفنية تشجع الطالب على تحصيل العلوم الطبيعية.

التعاون الدولى

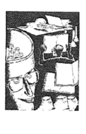
إن التنسيق والتكامل فى البحث العلمى يعتبر عاملاً جوهرياً لتعظيم الاستفادة من الإمكانيات وضمانًا لعدم التكرارية ووضع كل الطاقات البشرية فى خدمة خطة وسياسات الدولة. وهذا من ضمن الدروس المستفادة من الدول المتقدمة صناعياً والدول النامية الواعدة. وإذا كان للبحث العلمى أن يلعب دوره الأساسى فى اقتصاديات الدولة فقد آن الأوان أن نستفيد من كل الطاقات البشرية المتاحة محليًا ودوليًا. وهذا يتطلب التنسيق والتخطيط والتكامل على عدة محاور.

المحور الأول هو الاستفادة من العلماء والتكنولوجيين المصريين العاملين فى الخارج. ولقد أتيح لمصر الاستفادة من علمائنا المغتربين من خلال مشروع بدأته هيئة اليونيدو تحت مسمى «نقل المعرفة من خلال المصريين المغتربين» (Tokten) وكان الهدف هو الاستفادة من معرفة وعلم هذه الطاقة البشرية فى خطط التنمية المحلية على أن تنتقل أعمال المشروع تدريجيًا إلى الدولة وقد تولت أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا هذه المسئولية بعد انتهاء دور اليونيدو. وللأسف تحول المشروع إلى جهازاستضافة لعلمائنا بالخارج دون تحديد دورهم فى الخطط التنموية والاقتصادية للدولة.

والسبب الأساسى هو غياب خطة أو سياسة واضحة للبحث العلمى وعدم توزيع الأدوار أو الاستفادة من هذه الطاقة البشرية والتى عندها استعداد تام للعمل فى أى عمل جاد وذى منفعة للدولة. وقد عاصر هذا المشروع تطبيقه أيضًا من خلال اليونيدو فى كل من الهند وتركيا والعديد من الدول النامية، لكن الهند وتركيا استفادتا إلى أقصى درجة من هذا المشروع واستكملتاه بحيث أصبح أحد الأعمدة الأساسية للاستفادة من خبرات علمائها المغتربين بالخارج حتى تاريخه.

المحور الثانى هو التعاون الإقليمى، وقد أثبتت التجربة وجود سلبيات فى تجربتنا مع الدول العربية والإفريقية فى مجال البحث العلمى. وليس المجال هنا تحليل أو دراسة هذه السلبيات. ولكن أن نعيد ترتيب أوراقنا وأن نبنى على الإيجابيات مع محاولة إصلاح السلبيات إن أمكن. فعلى المستوى العربى هناك منظمة الأليكسو (منظمة جامعة الدول العربية للتعليم والثقافة والعلوم) ومقرها تونس، كما أنشئت حديثًا المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا فى أبريل من عام ٢٠٠٠ ومقرها جامعة الشارقة بالإمارات كما أن هناك اتفاقيات ثنائية بين مصر والعديد من الدول العربية والأفريقية ومنظمة الأليكسو تحاول جاهدة ولكن بدون فاعلية مؤثرة لعدم جدية الدول الأعضاء.

أما المحور الثالث فهو التعاون الدولى على مستوى أوسع، والاستفادة من الإمكانيات المتاحة بالدول النامية الصديقة. وهناك العديد من الهيئات الحكومية والخاصة التى تقدم المنح والقروض ولكن لم نستفد منها الاستفادة القصوى. وإذا درسنا الأنماط الموجودة فى إدارة البحوث والتطوير فيمكننا استنباط التجارب والأنماط المفيدة وتكييفها لتوائم الظروف المحلية. ■





فى الدول المتقدمة يمكن لكبار التكنولوجيين التعيين والتدريس بالجامعات أو لأساتذة الجامعات التعيين فى الصناعة مما نتج عنه نقل المعرفة فى الاتجاهين وتوثيق التعاون بين الجهتين



أصـــوات قبطيـــة من المـــاضى

مينـا بديـع عبـد الملـك



قصة الاكتشاف:

في شتاء عام ١٩٤٥ وبالتحديد فى شهر ديسمبر منه وبينما كان الفلاحان المصريان عبد المجيد ومحمد على السمان يحفران داخل جبانة بالقرب من مدينة نجع حمادى لجمع السماد عثرا على جرة مغلقة بإحكام مصنوعة من الخزف وبالتحديد عند جبل الطارف فى الضفة الشرقية لوادى النيل شمال قرية «حمرا دوم» بالقرب من فرشوط فى منطقة نجع حمادى. وأمام هذه الجرة الغامضة وقفا يفكران هل بها كنز ثمين أم بها عفريت كما كانت تسود الاعتقادات والخرافات فى ذلك الوقت؟ وأخيراً أمسكا بفأس وحطما الجرة وإذ بهما أمام كومة من أوراق البردى ولم يدر بفكرهما أنهما أمام أحد كنوز تاريخ الحضارة الإنسانية فى مجال الفكر والمعرفة.

حمل أحد الفلاحين هذه الكومة من أوراق البردى على كتفه للاستفادة بها كوقود لفرن المنزل!! وبالفعل قامت الزوجة بحرق بعض منها ويظن أنه كان المخطوط الثانى عشر إذ أنه كان بداخل هذه الجرة ثلاثة عشر مخطوطاً يبلغ عدد صفحاتها ١٢٤٠ صفحة لكن ما هو موجود حالياً يبلغ ١١٥٦ صفحة فقط، وبذلك تكون عدد صفحات المخطوط المفقود وهو الثانى عشر ٨٤ صفحة. يتراوح عدد النصوص فى المجلد الواحد فيما بين نص واحد (كما فى المخطوط العاشر) إلى ثمانية نصوص (كما فى المجلد السادس).

حدث بعد ذلك أن تسربت بقية المخطوطات. عبر تجار الآثار المصرية. إلى خارج مصر وبذلك أنقذت من حريق فرن المنزل وعكف العلماء على دراستها.

دور جان دوريس فى هذا الكشف:

كان لجان دوريس، عضو معهد الدراسات الأثرية الشرقية فى فترة الخمسينيات وبعد ذلك مؤرخ الأديان الفرنسى والمتخصص فى تاريخ أثيوبيا، فضل المبادرة باقتفاء أثر هذا الاكتشاف نحو عام ١٩٥١، حين لم يكن قد مضى على بدء تسرب المخطوطات إلى سوق الآثار بالقاهرة غير بضع سنوات قليلة، وقد أودعت هذه المخطوطات عقب شراء الحكومة المصرية لها عام ١٩٥١ بالمتحف القبطى بالقاهرة وأسند المتحف إلى جان دوريس مسئولية معرفة موطن هذا الكشف الذى ظل مجهولاً فترة من الزمان.

اتخذ جان دوريس أهبته لرحلة قصيرة فى الصحراء، وبعد مغامرات عدة. كان من بينها قضاؤه فترة فى المستشفى عولج فيها من عضة كلب. بلغ مكاناً يبدو أنه مكان دفن المخطوطات، وهو جبانة من العصر الرومانى.

ويقدم لنا جيمس روبنسن مدير معهد الدراسات القديمة والمسيحية فى مدرسة الخريجين بكلير مونت بكاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية وقد عمل سكرتيراً للجنة مخطوطات نجع حمادى الدولية التى شكلتها مصر بالتعاون مع اليونسكو وكان مشرفاً على نشر الطبعة الإنجليزية لهذه المخطوطات بمعونة من المنح القومية للدراسات الإنسانية، يقدم لنا وصفاً لهذه الجبانة.

وصف جبانة المخطوطات:

مكان هذه الجبانة هو شريط من الصحراء لا يتجاوز عرضه مائة متر، يمتد بين زرع أخضر يرويه ماء النيل وجرف قائم تنتشر أسفله كتل من الأحجار المتساقطة التى كونت منحدراً مائلاً فى غير انتظام، يستطيع المرء أن يتسلقه من القاعدة الصحراوية إلى وجه الجرف القائم فوق الرمال المنبسطة من تحته بنحو عشرة أمتار.

عند هذا الارتفاع الذى يمكن الوصول إليه بسهولة توجد مغارات صناعية من عهد الأسرة الفرعونية السادسة، وبعض هذه المغارات غير مكتمل والبعض الآخر استعمل كمدفن للموتى، وفى مغارة منها نقوش بارزة ورسوم من النوع الذى تتسم به المقابر الفرعونية. ولكن المغارات جميعاً نهبت منذ القدم، بحيث لم تعد. مع حلول القرن الرابع الميلادى. سوى صف من الكهوف اللطيفة الجو الصالحة لسكنى النساك والمتعبدين.

وصف المخطوطات:

جميع نصوص المخطوطات مترجمة عن أصول يونانية مؤلفة خلال القرون الأربعة الأولى فى مناطق مختلفة من حوض البحر المتوسط. وقد تمت ترجمتها إلى اللغة القبطية بواسطة مجموعة من المترجمين خلال القرن الرابع الميلادى وبعضها ربما قبل ذلك بقليل.

ويخبرنا د. اميل ماهر إسحق أن مخطوطات نجع حمادى ليست هى النسخ القبطية الأولى وإنما هى تجميع لنسخ تالية ترجع إلى النصف الثانى من القرن الرابع. وبمقارنة الخطوط المكتوبة بها يتضح أنها لعدد من النساخ لا يقل عن ثمانية، وقد يصل إلى أربعة عشر ناسخاً. ويظهر تأثير لهجتهم المحلية، وهى الأخميمية الفرعية أى لهجة ليكوبوليس (أسيوط)، بدرجات متفاوتة فى نسخهم التى هى مكتوبة أساساً باللهجة القبطية الصعيدية، وذلك باستثناء محتويات المجلدين الأول والعاشر والنصين الأول والثانى من المجلد الحادى عشر التى هى مكتوبة أساساً بنوع من لهجة ليكوبوليس.

ويقدم لنا جيمس روبنسون أدلة عديدة على تعدد نساخ هذه المخطوطات منها: إن جميع النسخ المكررة مختلفة تمام الاختلاف فى صياغتها، مما يدل بوضوح على أن نساخاً لم ينقل عن آخر. كذلك لم ينقل نساخان عن نسخة بعينها لم يكتب لها البقاء. لقد نسخ النساخون الكتب مستقلين. ويبدو أن سلسلة من الكتب المفردة انحدرت إلى شخص واحد أو جماعة واحدة وانتظمت منها عند ذلك فقط هذه المكتبة المخطوطة.

الكتابات المختلفة بالمخطوطات:

فى بداية دراسة هذه المخطوطات التى قامت بها لجنة شكلتها مصر مع اليونسكو والتى اجتمعت فى القاهرة فى ديسمبر ١٩٧٠ وكانت تضم من الجانب المصرى د. باهور لبيب، والدكتور فيكتور جرجس، ومن الجانب الدولى جيمس روبنسن وآخرون، كان يعتقد أنها «غنوصية» وهذا لفظ يطلق على مذهب دينى متطرف اكتسح العالم القديم فى أوائل عهد المسيحية. ولكن وجد أنها تحتوى أيضاً على كتابات غير غنوصية، فيها قطعة (فى المجلد ٥:٦) من كتاب الجمهورية لأفلاطون، وأيضاً يوجد فى مجلد آخر أجزاء صغيرة بلا عنوان تحث على النسك معروف أنها (جمل سكستوس) ذات الصبغة الفيثاغورية. وأما «تعاليم سلوانس» (فى المجلد ٤:٧) فهى مثال من الآداب الحكمية المسيحية التى يحتمل أن تكون من إنتاج رهبانى، إذ فيها فقرة موجودة بنفس النص فى الكتابات العربية تحت اسم الانبا أنطونيوس. أيضاً من بين محتويات هذه المخطوطات مجموعة من الأناجيل غير المعترف بها من الكنائس المسيحية الرسمية منها «إنجيل توماس» و«إنجيل فيليب» و«إنجيل المصريين». كما بها نص عن التراث الزرادشتى، ونصوص ذات طابع فلسفى عام أو ذات طابع أفلاطونى حديث، واتجاهات فلسفية معارضة للأفلاطونية. ومن بين هذه النصوص رسالة عن تاريخ العالم، ورسالة عن «ست» المعظم، ورسالة فى تأويل المعرفة، ورسالة فى تفسير الروح أو معنى النفس.

من هنا فإن محتوى هذه المخطوطات يمثل إسهاماً متميزاً ومساعداً فى دراسة تاريخ الأديان، ودراسة الفكر الفلسفى فى الشرق. كما تفيد بما تلقيه من ضوء كاشف على طبيعة العلاقات الثقافية بين مصر واليونان قديماً.

أكلة لحوم البشر.. حقيقة أم خرافة؟!



ظلت قضية «أكلة لحوم البشر» عصيّة على الفهم الإنسانى فكيف تواتى إنسان الجرأة على أكل لحم إنسان آخر حيّاً كان أم ميتًا؟! واختلف علماء الأنثروبولوجيا حول هذه المسألة التى اعتبرها البعض خرافة بينما أكد آخرون أنها ثقافة مرتبطة بمناطق معينة فى العالم.

وقد تفجرت القضية مجددًا الشهر الماضى مع محاكمة خبير كمبيوتر ألمانى اعترف بأنه أكل لحم أحد زملائه بادعاء أنه كان يرغب فى ذلك.

هذا المقال يقدم تحليلاً ثقافياً عن هذه المسألة والجدل الدائر بشأنها.

«وجهات نظر»





يختلف علماء الأنثروبولوجيا الثقافية حول أشياء كثيرة. ولا يزال البعض منهم متمسكًا بالتقليد الذى يعارض إصدار أحكام قيمية على أية ثقافة. فهو على سبيل المثال يمنع عالم الأنثروبولوجيا من إدانة معاداة السامية النازية أو العبودية الأمريكية، لأن كلاً منهما كان فى يوم من الأيام مكونًا أساسيًا من مكونات الثقافة. كما يمنع إدانة الممارسة المنتشرة حاليًا فى أفريقيا وغيرها الخاصة بختان البنات. وبينما يجد معظم علماء الأنثروبولوجيا المستنيرين أنه من المستحيل الدفاع عن هذه النسبية، يؤمن بعضهم، كالراحلة مارجريت ميد، إيمانًا قويًا بالقوى الخارقة التى يرتكز عليها دارسو خوارق الشعور والغيبيات، بينما تعتبر الغالبية العظمى من زملائهم هذا كلامًا فارغًا.

تدور أحدث المناقشات، وربما أكثرها مرارة، بين الأنثروبولوجيين حول أكل لحوم البشر. فمازال أغلبهم مقتنعين بأن أكل لحوم البشر كان منتشرًا فى الماضى ومازال قائمًا فى جيوب مستترة من العالم. وهم يدافعون عن هذا الاعتقاد فى مئات الأبحاث وفى كتب واسعة الانتشار مثل كتاب إيلى ساجان «أكل لحوم البشر» (١٩٧٤) وكتاب جارى هوج «أكل لحوم البشر والضحية البشرية» (١٩٧٣).

تتبنى أقلية من الأنثروبولوجيين رأيًا عكس ذلك. فهم مقتنعون بأنه لا توجد الآن، ولا فيما مضى، ثقافة تأكل موتاها بشكل روتينى، أو تقتل أعداءها وتأكلهم. وكان النقاش يجرى بهدوء حتى عام ١٩٧٠ إلى أن فجّره ويليام أرينز عالم الأنثروبولوجيا بجامعة نيويورك فى ستونى بروك. وكانت أداة التفجير هى كتابه «خرافة أكل البشر: الأنثروبولوجيا وأكل لحوم البشر». وقد نشرته لأول مرة مطبعة جامعة أوكسفورد فى عام ١٩٧٩.

لا ينكر أحد أنه خلال طوارئ الحياة والموت، مثل الجوع الشديد عقب غرق السفن أو سقوط الطائرات، أو أثناء المجاعات بالغة الشدة، قد يفضل الأفراد أكل جثث البشر على الموت. وليس هناك من ينكر أن الشعوب البدائية كانت فى بعض الأحيان تأكل جثة قائد الأعداء، الذى كانوا يخشونه فى يوم من الأيام، بعد الانتصار العسكرى، إما من باب الانتقام أو من قبيل الاعتقاد فى أن من يأكلونه سوف يكتسبون قوة العدو. كما أنه ما من أحد ينكر وجود السفاحين المرضى، حتى فى الثقافات المتقدمة، الذين يرتكبون جرائم قتل ويأكلون ضحاياهم.



السؤال المهم هو: هل كان أكل لحوم البشر عادة شائعة فى يوم من الأيام؟ الرأى المستقل الذى يعلنه أرينز هو أن هذا النوع من أكل لحوم البشر فولكلور محض، وقد اصطنعته رغبة إحدى الثقافات فى أن تكون متفوقة على غيرها. وهو يؤكد أنه ما من عالم أنثروبولوجيا جدير بالاحترام، أو أى شخص آخر موثوق به، قد شاهد مباشرة وليمة لأكل لحوم البشر. وهو مقتنع بأن الخرافة نشأت من اتهامات غير مؤيدة ساقتها إحدى الثقافات ضد ثقافة مجاورة مكروهة لديها، وكذلك المبشرين الذين يسهل خداعهم والأنثروبولوجيون السذج الذين كانوا يبتلعون كل حكاية يرويها لهم السكان المحليون الودودون.

لكن أية مراجعة عشوائية لكتب الأنثروبولوجيا المدرسية تبين أن معظم مؤلفيها لا يسلمون فقط بأن آكل لحوم البشر كان واسع الانتشار فى الماضى، بل إنه مازال قائمًا بين القبائل البدائية فى أفريقيا، وأمريكا الجنوبية، وعلى جزر أوشيانا. ويقول عالم الأنثروبولوجيا المحترم مارفن هاريس فى كتابه «أكلة لحوم البشر والملوك» (١٩٩١) إن أكل لحوم البشر بين قبائل الأزتك المكسيكية كان طريقة للحصول على البروتين الذى كانوا بحاجة شديدة إليه.

بالنسبة للجمهور بصفة عامة، من ذا الذى يشك فى أنه كان هناك، وربما لا يزال، صائدو بشر شرسون يأكلون فريستهم؟ فما زال أكل لحوم البشر يظهر فى الروايات وأفلام السينما، فى الكارتون الذى يعرض أشخاصًا يُسلقون أحياءً فى قدور ضخمة. ويظهر كذلك فى النكات الخشنة: هل سمعتم عن آكل لحوم البشر الذى اختلف معه ابن عمه؟ أو آكل لحوم البشر الذى اعترف أن زوجته كانت كباب الحلة العظيم الذى أكله، وأنه سوف يفتقدها؟ أو آكل لحوم البشر الكاثوليكى الذى كان يأكل الصيادين فقط يوم الجمعة؟ أو طبيب الأسنان الذى كان يحشو أسنان آكل لحوم البشر بينما كان آكل لحوم البشر يأكله؟ أو آكل لحوم البشر الذى أبلغ المعالج النفسى أنه سئم أكل البشر؟ وحين سئل عن رأيه فى المعالج النفسى قال «لذيذ». ويجب ألا ننسى آكل لحوم البشر الذى كان يسير فى الغابة ومر على حماته.

من بين القصائد الخماسية الفكاهية العديدة التى قرأتها، أحب هذه القصيدة مجهولة المؤلف:

أحد أكلة لحوم البشر الشجعان من بنزانس/أكل عمًا واثنتين من عماته/ وبقرة وابنها/ وثورًا ونصفًا/والآن لا يمكنه زر بنطلونه.



وكلمة آكل لحوم البشر cannibal مشتقة من Carib، وهو اسم شعب محلى فى جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية التقى به كولمبس. ووصف كولمبس فى يومياته الكاريب بأنهم أكلة لحوم بشر. لماذا؟ لأن هذا ما قاله له جيرانهم من قبيلة الأرواواك. فكيف عرفت مارجريت ميد أن المندوجومور فى غينيا الجديدة أكلة لحوم بشر؟ قال لها ذلك «الأرابيش الطيب».

يوثّق أرينز مئات الأمثلة المشابهة التى تتهم فيها إحدى الثقافات ثقافة أخرى بأكل لحوم البشر. فقد كان الصينيون القدماء يظنون أن الكوريين أكلة لحوم بشر. وكان الكوريون يظنون الشيء نفسه بالنسبة للصينيين. واتهم الأزتك غزاتهم الأسبان بأكل لحوم البشر. وكان الفاتحون، الذين كتبوا كل الكتب، هم بالطبع مصدر الاعتقاد بأن الأزتك

عن مجلة:
Skeptical Inquirer
ترجمة: أحمد محمود

أكلة لحوم البشر. وحين كان أرينز فى طريقه إلى العمل الميدانى فى تنزانيا، أكد له السكان المحليون أن الأوربيين أكلة لحوم بشر. وهو يقول إنه ما من ثقافة فى العالم ادعت أن أكل لحوم البشر من سماتها. فدائماً ثقافة أخرى هى المتهمة.



تعود الإشارات الكلاسيكية الخاصة بأكل لحوم البشر إلى الأساطير اليونانية القديمة وعمالقة «أوديسا» هوميروس ذوى العين الواحدة. وقدم هيرودوت رواية سمعها عن قبيلة من الرُحّل تسمى «أندروفاجى». وفى العصور الوسطى اتهم الكاثوليكُ اليهودَ بأكل الأطفال المسيحيين فى طقوسهم. وساد اعتقاد بأن الساحرات كذلك يقتلن الأطفال ويلتهمنهم. والشىء الذى لا يصدق هو أن هذا الاعتقاد مازال قائماً حتى يومنا هذا بين بعض المتشددين الجهلة الذين تسيطر عليهم فكرة أن الطقوس الشيطانية، ومن بينها أكل الأطفال، تحدث فى أنحاء الولايات المتحدة!

وقد وصم المبشرون البيض الأوائل الهنود الحمر، وخاصة قبائل الإيروكوا فى نيويورك بأنهم أكلة لحوم بشر، حيث كانوا يرون أنهم متوحشون قساة لا عقل لهم. وتقول الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية إن الموهوك، وهو اسم إحدى قبائل الإيروكوا، ربما يعنى «أكلة البشر». وليست هناك شذرة من الأدلة الموثوق بها على أن الإيروكوا، أو أية ثقافة أمريكية محلية، كانت تمارس أكل لحم البشر الشعائرى.

كما كتب أنثروبولوجيون كثيرون عن أكل لحوم البشر بين سكان أستراليا ونيوزيلندة الأصليين. ففى بحث بعنوان «أكل لحوم البشر بين السكان الأصليين» أجراه قسم الأنثروبولوجيا بالجامعة الوطنية الأسترالية، واكتمل فى عام ١٩٨٥، انتهت الدراسة المضنية للأدلة إلى أنه لم يكن هناك وجود قط لأكلة لحوم البشر من السكان الأصليين.

وغالباً ما تختلط أوصاف أكل لحوم البشر بخيال غير قابل للتصديق. ويحكى أرينز نقلاً عن مصدر ما، قوله عن أحد الأنثروبولوجيين أن أكلة لحوم البشر فى أحد الشعوب هم جميعاً نساء يمكنهن تحويل أنفسهن إلى طيور حين يردن ذلك!

الشىء الغريب بشأن الأدبيات الكثيرة جداً عن أكل لحوم البشر هو غياب الروايات المباشرة. فلم ير الأنثروبولوجيون فى الواقع طقساً من طقوس أكل لحوم البشر. ولا وجود لصور فوتوغرافية لهذه الممارسة. ويقول أرينز إن «أكلة لحوم البشر معنا دائماً، ولكن من حسن الحظ أنهم يتجاوزون إمكانية الملاحظة المباشرة فحسب».



يلخص لورانس أوزبورن الجدل الساخن، بين الأنثروبولوجيين الذين يتفقون مع أرينز وهؤلاء الذين يرفضون كتابه باعتباره لا قيمة له فى مقال بعنوان: «هل يأكل الإنسان الإنسان؟».

كانت نتيجة هذه الضجة أزمة فى قلب العلم، حيث أصدرت مدارس مختلفة من الأنثروبولوجيا. الثقافية والفيزيقية والأثرية. أحكاماً مختلفة اختلافاً جذرياً عما إذا كان الناس الآن، أو فيما مضى، أكلة لحوم بشر. ويكفى هذا لجعل البعض يتساءل إذا كان مكتوباً على تحالفات القائمة بين مجالات الأنثروبولوجيا الفرعية أن تنهار تماماً. رد أنثروبولوجيو الاتجاه العام على كتاب أرينز بنفس القدر من الغضب الذى أبدوه تجاه كتاب ديريك فريدمان «مارجريت ميد وساموا»، وهو كتاب يكشف عن سذاجة ميد فى أخذها الخرافات التى رواها لها مخادعو ساموا. ويكيل الأنثروبولوجيون اللعنات لأرينز فى الاجتماعات. ووصف أصحاب عروض الكتب كتابه بأنه «خطير» و«حاقد». وقد شكلت الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية لجنة خاصة لأكل لحوم البشر. ونشرت الجمعية هجومها على أرينز فى كتاب «إثنوجرافيا أكل لحوم البشر» (١٩٨٣) الذى حررته باولا براون ودونالد توزيتش.

وزعم دى كارلتون جادجوسيك الطبيب الحائز على جائزة نوبل لأبحاثه الخاصة بمرض فيروسى فى غينيا الجديدة يعرف باسم «كورو» أن المرض نقله أكلة لحوم البشر فى قبيلة فورت حين كانوا يتعاملون الجثث. واعتقاداً بأن الأدلة تشمل أكلة لحوم البشر فى غينيا الجديدة، قال إن الرد على أرينز «أقل من قدرى ومكانتى». ومن ناحية أخرى، فشل ليل ستيدمان من جامعة ولاية أريزونا، بعد عامين من العمل فى غينيا الجديدة. فى العثور على أى دليل على أكل لحوم البشر.



هل سمعتم عن آكل لحوم البشر الذى اختلف معه ابن عمه؟ أو آكل لحوم البشر الذى اعترف أن زوجته كانت كباب الحلة العظيم الذى أكله، وأنه سوف يفتقدها؟ أو آكل لحوم البشر الكاثوليكى الذى كان يأكل الصيادين فقط يوم الجمعة؟!



رغم وجود معارضى أرينز، فقد اكتسب شكه الاحترام ببطء. وينقل أوزبورن فى مقاله المنشور فى مجلة «لينجوا فرانكا» أن موسوعة الأنثروبولوجيا فى طبعتها لعام ١٩٩٦ تنتهى فى مادة أكل لحوم البشر إلى ما يلى: «أكلة لحوم البشر، إلى حد كبير، شىء من اختراعنا». ويكتب بول بين فى موسوعة كمبردج للتطور البشرى (١٩٩٢): «أكل لحوم البشر الشعائرى أو المعتاد نادر أو لا وجود له: فليس هناك شهود عدول رأوا تلك الممارسة بأعينهم، وتعتمد كل التقارير تقريباً على الشائعات». وقد أثنى عالم الأنثروبولوجيا المرموق أشلى مونتاجو. الذى طالما شك فى روايات أكلة لحوم البشر، على كتاب أرينز ثناء عظيماً.

وفى السنوات الأخيرة زعم علماء الآثار أنهم عثروا على أدلة على أكل لحوم البشر فى شظايا العظام البشرية الموجودة بين هياكل نياندرتال وفى مواقع الدفن فى الثقافات القديمة الأخرى. ويعرض عالم الآثار تيموثى وايت من جامعة كاليفورنيا فى باركلى فى كتابه «أكلة لحوم البشر فى مانيوس فيما قبل التاريخ» (١٩٩٢) أسباب اعتقاده أن شظايا العظام البشرية فى تلال مدافن بويبلو الهندية فى مانكوس كانيون بكولورادو تدل على أن هنود الأناسازى كثيراً ما كانوا يأكلون لحم البشر. وقد شبّه أرينز بمن يؤمنون بأن الأرض مسطحة وينكرون كرويتها.

ليست تخمينات وايت مقبولة بين كل الخبراء. وهم يجدون تفسيرات غير أكل البشر فيما يتعلق بظروف ما يزيد على الألفين من شظايا العظام التى عثر عليها. فربما تشير الشظايا إلى ممارسات دفن أو أن الحيوانات البرية أكلتها. وحتى إذا كانت تلك أدلة على أكل لحوم البشر، فمن الممكن أن تعكس فحسب أحداثاً منفردة كانت وراءها المجاعة.

وبما أننى لست عالم أنثروبولوجيا، فإنى أتردد فى تبنى أحد الجانبين فى هذا الجدل شديد الحدة، وإن كنت متعاطفاً فى الوقت الراهن مع أرينز. وربما كانت الحقيقة فى مكان ما بين هذا وذاك. وقد يكون أكل لحوم البشر المعتاد أندر كثيراً مما يعتقده الأنثروبولوجيون الذين لهم مصلحة فى تعزيز آرائهم السابقة. ومن المحتمل ألا يكون أكل لحم البشر خرافياً كما يفترض أرينز، وقد يحين وقت تُحل فيه هذه المسألة. ■











هاشم النحاس

قبل أن نتطرق إلى النظر فى أفلام نجيب محفوظ من داخلها للكشف عن أهميتها فى تشكيل السينما المصرية، يمكن اتخاذ الوقائع التالية بمثابة إشارات أولية دالة، نوعاً ما، على الحجم الكبير للعلاقة الظاهرية التى تربط بين نجيب محفوظ والسينما، ومدى تشعبها.

أولاً: نجيب محفوظ أول أديب عربى يكتب للسينما: كتب فيلمه الأول «مغامرات عنتر وعبلة» عام ١٩٤٥، وإن تأخر ظهوره لأسباب إنتاجية حتى عام ١٩٤٨، وظهر قبله فيلمه «المنتقم» عام ١٩٤٧.

ثانياً: هو أكثر الأدباء المصريين (والعرب عامة) أعمالاً فى السينما وأكثرهم تنوعاً فى إسهاماته: بلغ عدد أفلامه ٦٣ فيلماً آخرها حتى الآن «سمارة الأمير» ١٩٩٢. منها ٢٥ فيلماً بين سيناريو أو قصة سينمائية مباشرة أو قصة وسيناريو معاً أو إعداد سينمائى. وبقية الأفلام إما مأخوذة عن قصة أو رواية من أعماله الأدبية.

ثالثاً: تحتل أعماله فى السينما، بكافة تنويعاتها، مكانة خاصة فى تاريخ السينما المصرية (والعربية عامة): عندما حصر الناقد «سعد الدين توفيق» أهم مائة فيلم فى السينما المصرية ذكر منها ١٧ فيلماً تحمل اسم نجيب محفوظ(١). بعد حوالى ربع قرن من هذا الإحصاء ارتفعت نسبة الأفلام التى تحمل اسم نجيب محفوظ ضمن أهم مائة فيلم فى تاريخ السينما المصرية، ووصلت إلى ٢٣ أى ما يقرب من ربع أفلامنا المهمة وفقاً لما جاء فى الاستفتاء الواسع بين النقاد والسينمائيين الذى أجرته إدارة مهرجان القاهرة السينمائى الدولى العشرين. ونشر هذا الاستفتاء فى الكتاب التذكارى الذى أصدره المهرجان بمناسبة الاحتفال بمئوية السينما(٢).

رابعاً: نجيب محفوظ الأديب الوحيد الذى ارتبطت وظيفته الرسمية (لمدة طويلة) ارتباطاً مباشراً بالسينما: بدأت هذه العلاقة عام ١٩٥٩، واستمرت حتى إحالته إلى التقاعد ١٩٧١. عمل خلال هذه الفترة مديراً للرقابة ثم مديراً لمؤسسة دعم السينما، ورئيساً لمجلس إدارتها، ثم رئيساً لمؤسسة السينما، ثم مستشاراً لوزير الثقافة لشئون السينما. وقد أتاح له ذلك أن يترك أثراً قوياً فى هذا الحقل. وإن كان الأثر الأبقى والأهم يأتى عن طريق أفلامه موضوع دراستنا.

البداية:

فى حديث خاص مع نجيب محفوظ يحكى عن بداية علاقته بالعمل السينمائى فيقول: عرفنى صديقى المرحوم الدكتور فؤاد نويره بصلاح أبو سيف، وطلب منى أن أشاركهما فى كتابة سيناريو فيلم للسينما اخترنا له فيما بعد اسم «مغامرات عنتر وعبلة». كان صلاح أبو سيف هو صاحب فكرة الفيلم. وقد شجعنى للعمل معه أنه قرأ لى رواية «عبث الأقدار». أوهمنى بأن كتابة السيناريو لا تختلف عما أكتبه عندما سألته عن ماهية هذا السيناريو الذى لم أكن أعرفه. والحقيقة تعلمت كتابة السيناريو على يد صلاح أبو سيف. كان يشرح لى فى كل مرحلة من مراحل كتابته ما هو المطلوب منى بالضبط. وبعد أن أنفذه أعرضه للمناقشة التى كان يشاركنا فيها الدكتور فؤاد نويره ومعه عبد العزيز سلام كاتب الحوار والأغانى(٣).

وأسأل الأستاذ نجيب(٤): هل كنت تكتفى بتوجيهات صلاح فى كتابة السيناريو أم لجأت لوسائل أخرى لتطوير إمكانياتك فى الكتابة للسينما؟ يجيب الأستاذ: أمدنى بعد ذلك صلاح أبو سيف بعدد من الكتب عن السينما كما أننى اشتريت ما كان متاحاً منها وقتها. وأسأله: هل كان لك اهتمام خاص بالسينما قبل العمل بها؟ يجيب الأستاذ: كنت مجرد متفرج وأتابع الأفلام لأتمتع بمشاهدتها وخاصة الأفلام البوليسية والكوميدية.

علاقة متطورة:

إذا ما تأملنا أعمال نجيب محفوظ السينمائية نجد أنها مرت بأربع مراحل متمايزة وإن تداخلت أحياناً. المرحلة الأولى: مرحلة الكتابة للسينما، وتنوعت ما بين كتابة القصص السينمائية أو السيناريو أو كليهما معاً، أو الكتابة عن أعمال أدبية لغيره. تبدأ هذه المرحلة بفيلم «مغامرات عنتر وعبلة» ١٩٤٥ السابق الذكر وتمتد لمدة ١٥ سنة حتى فيلم «جميلة الجزائرية» ١٩٥٩. وإن كانت نوعية إسهام نجيب محفوظ فى هذه المرحلة قد امتدت فى أعمال أخرى متناثرة بعد ذلك، إلا أنه خلال هذه المرحلة ظل إسهامه مقصوراً عليها. ولم يحاول من جانبه تحويل عمل من أعماله الأدبية إلى عمل سينمائى، الأمر الذى حافظ عليه طوال حياته. كما لم تقترب السينما من أعماله الأدبية إلا فيما بعد.

أسأل الأستاذ: قامت السينما المصرية بمحاولات عديدة فى تحويل الروايات إلى أفلام بداية من فيلم «زينب» الصامت ١٩٣٠ الذى أعيد إنتاجه ناطقاً ١٩٥٢، قدمت أفلاماً لأعمال أدبية لعدد كبير نسبياً من الأدباء أمثال توفيق الحكيم وطه حسين ويوسف السباعى وإحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهم. وشاركت أنت بنفسك بتحويل روايتى إحسان عبد القدوس «الطريق المسدود»، و«أنا حرة» إلى فيلمين عامى ٥٨، ٥٩ على التوالى. لماذا لم تفكر بداية فى كتابة سيناريو عن رواياتك فى هذه المرحلة التى احترفت فيها كتابة السيناريو؟

أجاب الأستاذ: أنا أرفض مبدئياً أن أقوم بكتابة سيناريو لأى عمل من أعمالى الأدبية. استغراقى فى كتابة العمل الأدبى وحرصى عليه يحرمنى حرية التصرف التى يتطلبها الوسيط الجديد. وقد يؤدى ذلك إلى إفساده. فتركت هذه المهمة لغيرى. (ويضحك).

المرحلة الثانية: وهى مرحلة الرواية، وفيها تنبهت السينما المصرية إلى الإفادة من أعمال محفوظ الروائية فى تقديم مجموعة من أفلامها. ويمثل فيلم «بداية ونهاية» ١٩٦٠ بداية هذه المرحلة التى امتدت بصفة متصلة لمدة ١٤ سنة حتى فيلم «السكرية» ١٩٧٣، شملت ١٣ فيلماً عن روايات محفوظ. وإن امتدت هذه النوعية من الأفلام فى المرحلتين التاليتين فى أفلام متناثرة لا تشكل كثافة غالبة.

وأسأل الأستاذ: من الملاحظ أن السينما المصرية لم تجرؤ على الاقتراب من أعمالك الأدبية إلا متأخراً عام ١٩٦٠ رغم وجود هذه الأعمال قبل ذلك بأكثر من ٢٠ سنة. كما كان للسينما المصرية محاولاتها الناجحة فى تحويل أعمال أدبية أخرى إلى أفلام كما سبق ذكره. بماذا تفسر هذا التأخير فى الاستفادة من أعمالك الأدبية فى السينما المصرية؟

أجاب الأستاذ ببساطة شديدة: كان السينمائيون ينظرون إلى أعمالى الأدبية باعتبارها أدباً لا تصلح للسينما.

واستطرد بقوله: ولعلمك عندما جاءنى المنتج لشراء حق تحويل رواية «بداية ونهاية» إلى فيلم لم يكن قد قرأ الرواية وإنما طلبها عقب استماعه لمسلسل إذاعى كان مأخوذاً عنها أعده أحمد عباس صالح.

المرحلة الثالثة: وهى مرحلة مختلطة تداخلت فيها المرحلتان السابقتان، كما تظهر فيها ملامح المرحلة الرابعة التى تعتمد على قصص محفوظ القصيرة. تبدأ بأول فيلم مأخوذ عن قصة قصيرة «صورة» ١٩٧٢ وتمتد ٧ سنوات فقط حتى فيلم «المجرم» ١٩٧٨ لتشمل ٩ أفلام تنوعت فيها إسهامات محفوظ ما بين الكتابة للسينما أو الرواية أو القصة الأدبية القصيرة.

أما المرحلة الرابعة: فهى مرحلة الاعتماد الكثيف على قصص محفوظ الأدبية القصيرة المنشورة. تبدأ بفيلم «الشريدة» ١٩٨٠، وبعده تتوالى الأفلام المأخوذة عن القصص القصيرة وحدها بشكل مطلق أو يكاد، حيث يتم إنتاج ١٥ فيلماً منها خلال ٩ أعوام فقط، آخرها فيلم «أصدقاء الشيطان» ١٩٨٨.

لقد اكتملت هذه المراحل التى امتدت حتى حصول محفوظ على جائزة نوبل ١٩٨٨. بعد حصوله عليها ظهرت ٤ أفلام فقط. اعتمد اثنان منها على الرواية هما «قلب الليل» ١٩٨٩ و«ليل وخونة» ١٩٩٠، واعتمد الفيلمان الآخران على القصة القصيرة «نور العيون» ١٩٩١ و«سمارة الأمير» ١٩٩٢.

المحاور الرئيسية:

من العرض السابق للمراحل المختلفة التى مرت بها إسهامات محفوظ فى إبداع الأفلام الروائية المصرية، نجد أن هذه الإسهامات تتمركز حول ثلاثة محاور محددة؛ أولها: الأفلام التى اعتمدت على كتاباته المباشرة للسينما (القصة/ السيناريو/ الإعداد السينمائى). وشغلت هذه الأفلام المرحلة الأولى تماماً مع امتدادها بعد ذلك فى أعمال متفرقة. وثانيها: ما اعتمد على رواياته وتمثلها أفلام المرحلة الثانية وامتداداتها المتفرقة فيما بعد. وثالثها: ما اعتمد على قصصه القصيرة المنشورة التى شغلت المرحلة الرابعة أساساً وإن بدأت قبلها، ويمكننا التعرف على أفلام كل محور منها وتقويمها، تحديداً لدور محفوظ الإبداعى فى هذا المجال، على النحو التالى:

أعمال كتبها للسينما

أبرز أفلام هذا المحور مجموعة الأفلام التى أخرجها صلاح أبو سيف وحقق بها نقلة نوعية بالنسبة إلى ما سبق من أعماله، وفيها تميزت شخصيته الفنية التى حافظ عليها فيما بعد مما منحه دوره الريادى فى السينما المصرية. ومن ثم إذا كان صلاح أبو سيف قد علم نجيب محفوظ الصنعة، على نحو ما سبق ذكره، فقد منحه نجيب محفوظ الشخصية. والأفلام المقصودة هى الأفلام الستة التالية.

أولها: فيلم «لك يوم يا ظالم» ١٩٥١، قصة الفيلم مقتبسة عن رواية «تيريز راكان» للكاتب الفرنسى إميل زولا. بين يدى محفوظ فقدت القصة ملامحها الأجنبية تماماً وأصبحت مصرية لحماً ودماً من خلال الشخصيات، والحارة، والحمام الشعبى، حيث تدور أجزاء كبيرة من الأحداث التى تحكى لنا عن محاولة شرير الاستيلاء على زوجة صديقه وأموالها بعد قتله.

أما فيلم «ريا وسكينة» ١٩٥٣ فقد كتب له محفوظ القصة والسيناريو عن حادثة واقعية لامرأتين نشرتا الرعب يوماً بالإسكندرية، حيث كانتا تستدرجان النساء إلى بيتهما لقتلهن والاستيلاء على حليهن. وكانت المحاولة الأولى فى السينما المصرية، أن يستمد الفيلم موضوعه من حادثة واقعية. ثم كررها محفوظ بعد ذلك أكثر من مرة. وكان بهذا رائداً فى السينما المصرية.

وكما استمد محفوظ قصة فيلمه «ريا وسكينة» من حادثة واقعية بالإسكندرية، استمد قصة فيلمه التالى «الوحش» ١٩٥٤ من حادثة واقعية بالصعيد، وكتب لها السيناريو. عن السفاح الصعيدى الذى عرف باسم (الخط)، وقد روع



الصعيد بجرائمه وفرض إرادته على الناس وأنهك الشرطة قبل أن يقع فى يدها. عرض الفيلم فى مهرجان كان ١٩٥٤، ونال شهادة تقدير من لجنة التحكيم.

واعتمد فيلم «الفتوة» أيضاً على قضية واقعية، هى قضية «زيدان» ملك سوق الخضر، الذى احتكر السوق واستعان على تحقيق أطماعه بالغش والرشوة واستغلال النفوذ. شارك محفوظ فى كتابة السيناريو الذى كان من أنضج أعماله مع صلاح فى هذه المجموعة إن لم يكن أنضجها بالفعل. تميز بشدة تماسك الحبكة بين الأحداث وحدة الصراع وقوة بناء الشخصيات ذلك فضلاً عن نهايته الجديدة المبتكرة فى السينما المصرية، حيث يتكرر فى نهاية الفيلم نفس مشهد البداية، مما يوحى أن دورة الأحداث وعوامل الفساد ستظل قائمة طالما ظل البناء الاجتماعى/ الاقتصادى الذى يفرزها قائماً. وقد عرض الفيلم فى مهرجان برلين ١٩٥٧، واشترك فى أسبوع الفيلم العربى فى الاتحاد السوفيتى ١٩٥٨.

وشارك محفوظ فى كتابة سيناريو فيلم «شباب امرأة» ١٩٥٥. الفيلم دراسة نفسية واجتماعية لامرأة من الطبقة الشعبية على مشارف خريف العمر تعشق شاباً ريفياً جاء للدراسة فى القاهرة. الشخصية الاقتحامية للمرأة (بنت البلد) فى تعبيرها عن رغباتها الجنسية كما قدمها الفيلم جاءت على صورة غير معهودة فى السينما المصرية التى كانت تسودها صورة المرأة اللعوب أو المرأة المستكينة بالفعل، أو بتظاهرة لإخفاء مكرها.

وكان آخر هذه المجموعة تجربة فريدة من نوعها فى تاريخ السينما المصرية. هى تجربة فيلم «بين السماء والأرض» ١٩٥٩ حيث تجرى معظم أحداث الفيلم داخل مصعد تعطل بمن فيه فى منتصف المسافة بين دورين. فشلت التجربة من الناحية التجارية وقت إنتاجها ولذا لم تتكرر، بينما قوبلت بتقدير من النقاد والجمهور عندما عرض الفيلم فى التليفزيون بعد أكثر من عقد. وقد مثلنا الفيلم فى أسبوع فى يوغوسلافيا ١٩٦٠.

كتب محفوظ لهذا الفيلم القصة السينمائية فقط. ومحفوظ أول من كتب القصة السينمائية فى مصر. قبله لم يكن هناك اعتراف بوجود القصة السينمائية باعتبارها عملاً فنياً مستقلاً. كانت تأتى ضمن السيناريو دون إدراك لأهمية استقلالها. ومن ثم كانت كتابته للقصة السينمائية عملاً رائداً فى هذا المجال، وقد منحها بعمله القيمة المستحقة لها.

وقد أصبحت هذه الأفلام الستة التى أخرجها صلاح أبو سيف وشارك محفوظ فى كتابتها من كلاسيكيات السينما المصرية.

وإلى جانب هذه المجموعة من الأفلام نجد مجموعة أخرى من ستة أفلام أيضاً





قبله لم يكن هناك اعتراف بوجود القصة السينمائية باعتبارها عملاً فنياً مستقلاً. كانت تأتى ضمن السيناريو دون إدراك لأهمية استقلالها. ومن ثم كانت كتابته للقصة السينمائية عملاً رائداً فى هذا المجال



مما شارك محفوظ فى كتاباتها وتحمل بصمته. وإن جاءت بدرجات متفاوتة. وقد أخرجها آخرون غير صلاح أبو سيف. ثلاثة منها أخرجها عاطف سالم وهى: «جعلونى مجرماً» ١٩٥٤، و«النمرود» ١٩٥٦، و«احنا التلامذة» ١٩٥٩.

تتفق الأفلام الثلاثة فى أنها تتناول شخصيات تدفع بها ظروفها الاجتماعية إلى الانحراف.

وكتب محفوظ القصة والسيناريو لفيلم «فتوات الحسينية» ١٩٥٤، أخرجه نيازى مصطفى. الفيلم يقدم صورة لأهل هذا الحى الشعبى فى عصر الفتوات، ونوع القيم التى تحكم العلاقات فيما بينهما.

وكما سبق أن كتب محفوظ فيلم «النمرود» على أنه كوميدى، كتب أيضاً قصة وسيناريو فيلم «درب المهابيل» ١٩٥٥ ليكون فيلماً كوميدياً. البطل فى هذا الفيلم هو الدرب نفسه بما يعج به من شخصيات، نتعرف عليها من خلال حادثة طريفة لورقة يا نصيب يشتريها عامل شاب أملاً فى أن تحل أزمته ويتزوج من خطيبته. لكن الورقة تنتقل بفعل المصادفة إلى المجذوب فى الدرب. ويحدث أن تربح الورقة، فيكاد الشاب أن يفقد صوابه، وأهل الدرب يحيطون المجذوب بالاهتمام، وكل منهم يحاول أن يستولى منه على الورقة. وأخيراً يلتهم قطيع الماعز الأوراق المالية التى حصل عليها المجذوب قيمة الجائزة، وكان يخفيها بجراب عنزته.

وكان فيلمه «الهاربة» ١٩٥٨ إخراج حسن رمزى، عودة إلى غلبة الأحداث الميلودرامية وإن انتهى نهاية سعيدة تجمع بين البطل والبطلة. فالبطلة تهرب من قريتها حتى لا يزوجوها من ابن عمها الذى لا تحبه. لكن الطبيب الذى يؤويها فى القاهرة يعتدى عليها يوماً ما ثم يذهب للدراسة فى الخارج. فتلجأ للعمل لتربى طفلها. ولكن الطبيب يعود فى النهاية ويبحث عنها حتى يجدها ويتزوجها.



ومن الأفلام المتميزة التى ترتبط بهذا المحور وإن جاءت متأخرة فى المراحل التالية فيلم «المذنبون» ١٩٧٦ إخراج سعيد مرزوق. كتب له محفوظ القصة السينمائية. الفيلم يقدم صورة نقدية حادة لما وصل إليه المجتمع فى السبعينيات مع الانفتاح الاستهلاكى من تفشى الرشوة والاستغلال والتكالب على الثراء السريع والحصول على المتعة والمظهرية. وذلك من خلال مجموعة كبيرة من الشخصيات تمثل قطاعات مختلفة من المجتمع يجرى معهم التحقيق لتواجدهم فى الحفل الذى أقامته الممثلة ليلة مقتلها.

ويدخل ضمن هذا المحور أيضاً من أعمال محفوظ السينمائية فى مرحلتها الأولى كتابة السيناريو لفيلمين عن روايتين للكاتب إحسان عبد القدوس هما «الطريق المسدود» ١٩٥٨ و«أنا حرة» ١٩٥٩ غير أننا لا نلمح فى العملين السمات الشعبية الغالبة على أعمال محفوظ الأخرى فى نفس المرحلة التى يدور معظمها فى الحارة ويلعب الأدوار الرئيسية فيها أبناء البلد. وأسأل محفوظ عن افتقاد المتفرج للملامح المحفوظية فى هذين العملين، فيجيب: مع روايات إحسان يتحول نجيب محفوظ إلى البرجوازى الذى يعيش مع إحسان فى شارع واحد. ثم إن أعمالى ليست كلها فى الحارة. وأرد: كان ذلك فيما بعد أى ما بعد الثلاثية. يعترض محفوظ: وماذا عن رواياتى الأولى عن الفترة الفرعونية. هل كانت تدور فى الحوارى؟ (يضحك)

أواصل السؤال: كيف كنت تختار موضوعات أفلامك فى هذه المرحلة بالذات؟ يفاجئنى بصراحته المعهودة: الآخرون هم الذين كانوا يختارون الموضوع. والسيناريو الذى أتفق عليه أكتبه. كنت أعمل فى كتابة السيناريو كمحترف يؤدى حرفة.

أفلام عن رواياته:

بدأت السينما المصرية فى الاستعانة بروايات محفوظ منذ عام ١٩٦٠، وكان فيلم «بداية ونهاية» الذى يحمل نفس عنوان الرواية. كتب سيناريو الفيلم صلاح عز الدين وأخرجه صلاح أبو سيف. وعن أفلامه التى أعدت عن أعمال أدبية يقول محفوظ: «من حسن حظى أن جميع الأفلام التى أخذت عن كتبى أحرزت نجاحاً كبيراً. وقد استجبت لها رغم كل ما قيل عنها. ليس هناك أفظع مما قيل عن فيلمى قصر الشوق وبين القصرين. ومع ذلك سعدت بهما جداً وأنا راض عنهما تماماً، وما زالت شخصيات مثل «السيد أحمد عبدالجواد» و«أمينة» مضرب الأمثال بشأن العلاقة بين الزوج والزوجة فى الأسرة المصرية.

خلال عقد الستينيات تم عرض ١١ فيلماً اعتمدت على روايات محفوظ وحملت عناوينها فيما عدا واحد منها فقط هو «القاهرة ٣٠» عن رواية «القاهرة الجديدة». من بين أفلام هذا العقد توجد تجربتان رائدتان كنماذج على الأمانة فى ترجمة النص الأدبى والحفاظ على روح الرواية المحفوظية، وهما «بداية ونهاية» و«خان الخليلى».

وفى نفس هذا العقد كان لصلاح أبو سيف تجربة أخرى لها أهميتها مع رواية أخرى لمحفوظ هى رواية القاهرة الجديدة التى حولها إلى «فيلم القاهرة ٣٠» عام ١٩٦٦. اكتفى الفيلم بتقديم شخصية واحدة من الشخصيات الرئيسية الثلاث التى تداولتها الرواية. أسقط تماماً شخصية اليمينى المتدين وقلص دور شخصية الوطنى اليسارى وركز على شخصية «محجوب» الانتهازية

لإبراز ما وصل إليه المجتمع المصرى من فساد وفقر وفوارق طبقية شاسعة فى الثلاثينيات.

ومن الأفلام التى تستحق التنويه فى هذا العقد فيلمان من إخراج كمال الشيخ وهما «اللص والكلاب» ١٩٦٣ و«ميرامار» ١٩٦٩. تميز الفيلمان بنقد النظام القائم ورموزه. الأول منهما يعتبر أولى المحاولات السينمائية المصرية فى هذا الاتجاه. وفيه يكشف عن الانتهازى مدعى الاشتراكية الذى يدفع اللص الصغير إلى ارتكاب جرائمه باسم العدالة، ثم يتخلى عنه بعد أن أصبح من رموز المجتمع، ويحاول استغلال نفوذه لتحريض المجتمع ضده. لكن الفيلم الثانى «ميرامار» وإن احتفظ بإدانة الرواية لشخصية الانتهازى عضو الحزب الوحيد الحاكم، وقد حقق ذلك بجدارة، إلا أنه برأ بعض الشخصيات التى أدانتها الرواية وتمثل بعض الرموز الاجتماعية السياسية لمجتمع ما قبل الثورة.

ومع قدوم السبعينيات كان هناك تغيير ملحوظ فى التعامل مع أعمال محفوظ الأدبية. فقد أصبحت . فى عمومها . أكثر نضجاً من ناحيتى المستوى السينمائى والاقتراب من روح النص. أما من الناحية الكمية فقد أخذ الاعتماد على الرواية يتراجع ليحل محله تدريجياً الاعتماد على القصة، حيث بلغ عدد الأفلام المأخوذة عن أعمال محفوظ الأدبية ١١ فيلماً اعتمد منها على رواياته ٦ أفلام والباقى اعتمد على قصصه.

من بين هذه الأفلام. يمثل كل من «الحب تحت المطر» ١٩٧٥ و«الكرنك» ١٩٧٥ نماذج من أرقى مستويات المعالجة السينمائية لروايات محفوظ. الأول كتبه ممدوح الليثى، والثانى شارك فى كتابته مع صلاح جاهين.

«الحب تحت المطر» إخراج حسين كمال يكشف بعمق فى لغة سينمائية رفيعة عن معاناة الشباب وما أصابه من انهيار بوقوع نكسة ١٩٦٧. ويتميز الفيلم عن كل ما عداه من أفلام تناولت مواضيع مماثلة بميزتين، الأولى أنه تجنب استخدام مشاهد الإثارة الجنسية المعهودة رغم أنها كانت متاحة، فعبر عنها ولم يبتذلها. والميزة الثانية والأهم أن الشباب رغم سقوطهم تحت ظروف القهر الاقتصادى الساحق وهبوط الروح المعنوية بسبب الهزيمة وانهيار المثل وفقدان القدوة لم يصبه العجز، فهو يرفض السقوط ويدينه ويقاومه دون خطابية، ويكتشف بنفسه طريقه للخلاص.

وعن معاناة الشباب أيضاً فى مرحلة أسبق، يجسد . بوحشية . فيلم «الكرنك» إخراج على بدرخان ما جاء فى الرواية من تلفيق للتهم وتعذيب بشع وتحطيم للكرامة الإنسانية فى نفوس الشباب، باسم الحفاظ على الأمن والحفاظ على الثورة. الفيلم . كما الرواية . نقد حاد للتسلط والديكتاتورية والبوليسية حين تتحكم فى مصائر الناس.

ورغم أن عدد الأعمال المنسوبة إلى محفوظ بلغت ذروتها فى الثمانينيات حيث وصلت إلى ١٨ فيلماً، إلا أن الأفلام المأخوذة عن رواياته تراجعت إلى حدها الأدنى حيث بلغت ثلاثة أفلام فقط هى «عصر الحب» و«وصمة عار» فى العام نفسه ١٩٨٦ و«قلب الليل» ١٩٨٩. ويمكن أن نضيف إلى هذه المجموعة «ليل وخونة» الذى ظهر ١٩٩٠ وكان آخر الأفلام المأخوذة عن روايات محفوظ حتى الآن.

من بين هذه الأفلام الأربعة أخرج أشرف فهمى فيلمين هما «وصمة عار» و«ليل وخونة». قدم من خلالهما تجربتين جديدتين لا ينقصهما الجرأة فى تناول روايات محفوظ. كان كل فيلم منهما محاولة لتقديم ترجمة جديدة مختلفة لرواية سبق تحويلها إلى فيلم يحمل نفس عنوانها. فالفيلم الأول «وصمة عار» عن رواية الطريق التى سبق أن أخرجها حسام الدين مصطفى بنفس العنوان عام ١٩٦٤. والفيلم الثانى «ليل وخونة» عن رواية «اللص والكلاب» التى سبق أن أخرجها كمال الشيخ عام ١٩٦٣.

ويمثل فيلم «قلب الليل» إخراج عاطف الطيب إحدى المحاولات السينمائية المصرية الجريئة فى تناول رواية ذات طابع فلسفى حيث يصعب ترجمة تأملات الشخصية الرئيسية وصراعاتها الداخلية إلى صور وأفعال. الشخصية الرئيسية تمثل فى تطوراتها خلاصة تطور الإنسانية من الخرافة إلى المنطق العقلانى مروراً بالأسطورة والدين.

من حسن حظى أن جميع الأفلام التى أخذت عن كتبى أحرزت نجاحاً كبيراً. وقد استجبت لها رغم كل ما قيل عنها. ليس هناك أفظع مما قيل عن فيلمى قصر الشوق وبين القصرين. ومع ذلك سعدت بهما جداً وأنا راض عنهما تماماً

أفلام عن القصص القصيرة:

كان علينا أن ننتظر حتى أوائل السبعينيات ليظهر أول الأفلام المأخوذة عن قصة قصيرة من قصص محفوظ وهو فيلم «صورة» إخراج مدكور ثابت عن قصة بنفس العنوان من مجموعة «خمارة القط الأسود». يستغرق الفيلم ٦٠ دقيقة ويمثل الجزء الثالث من فيلم «صورة ممنوعة» ١٩٧٢. وفى نفس العقد ظهر الفيلم الاستعراضى «أميرة حبى أنا» ١٩٧٤ إخراج حسن الإمام عن قصة من مجموعة «المرايا».

ويعتبر عقد الثمانينيات هو عقد الذروة فى عدد الأفلام المأخوذة عن قصص محفوظ (١٥ فيلماً). واستكمالاً لأفلام هذا المحور يمكن أن نضيف فيلمى «نور العيون» ١٩٩١ إخراج حسين كمال، و«سمارة الأمير» ١٩٩٢ إخراج أحمد يحيى، باعتبارهما آخر ما تحول من قصص محفوظ إلى أفلام سينمائية حتى الآن.

ستة أفلام من بين هذه المجموعة مأخوذة عن حكايات «ملحمة الحرافيش» وحدها. الأفلام هى («شهد الملكة» ١٩٨٥، «المطارد» ١٩٨٥، «التوت والنبوت» ١٩٨٦، «الحرافيش» ١٩٨٦، «الجوع» ١٩٨٦، و«أصدقاء الشيطان ١٩٨٨») يضاف إلى هذه الأفلام الستة أربعة أفلام أخرى مأخوذة عن قصص فى مجموعات أخرى غير مجموعة الحرافيش لكن أحداثها تدور فى عصر الفتوات والحرافيش. لتصبح ١٠ أفلام يجمع بينها نفس الجو والشخصيات والقيم السائدة. وهذه الأفلام الأربعة هى «فتوات بولاق» ١٩٨١، «الشيطان يعظ» ١٩٨١، «وكالة البلح» ١٩٨٣، و«نور العيون» ١٩٩١.

معظم هذه الأفلام ابتعدت (بدرجات متفاوتة) عن مغزى القصة، أو جاء ضعيفاً فى تنفيذه. يستثنى منها . فى رأيى . فيلمان هما: «الشيطان يعظ» إخراج أشرف فهمى، و«الجوع» إخراج على بدرخان.

خارج نطاق أفلام الحرافيش والفتوات التى سادت عقد الثمانينيات، نجد من الأفلام المأخوذة عن قصص محفوظ أفلاماً تدور أحداثها فى نفس زمن إنتاجها أو قريباً منه. وتناقش بعض مشاكلنا المعاصرة. ثلاثة منها جديرة بالاعتبار هى على التوالى: «أهل القمة» ١٩٨١، و«أيوب» ١٩٨٤، و«الحب فوق هضبة الهرم» ١٩٨٦.

«أهل القمة» إخراج على بدرخان يمثل المحاولة الأولى لنفس مخرج «الجوع» فى الحفاظ على المعنى مع القدرة على توسيع العمل بمزيد من التفاصيل والتأثيرات الدرامية، بالإضافة والتغيير فى الشخصيات والأحداث والأماكن، مما يدعم المعنى. ربما . أكثر من الأصل الأدبى نفسه.

ويتميز فيلم «أيوب» إخراج هانى لاشين بتعبير سينمائى سلس التزم بالأمانة فى ترجمة أحداث القصة ومضمونها.

أما «الحب فوق هضبة الهرم» إخراج عاطف الطيب فيقدم مناقشة جريئة بالصورة والحوار لمشكلة الحب والزواج عند الشباب فى عصر التضخم والانفتاح. استمد الفيلم من القصة كل متطلباته تقريباً: الحدث الرئيسى والحبكة الفرعية والحوار فى ذرواته المهمة والحاسمة. وحافظ الفيلم على القصة مبنى ومعنى.

بصمة محفوظ:

رغم اختلاف مخرجى الأفلام التى شارك محفوظ فى إبداعها، ورغم اختلاف نوعية مشاركته فيها، إلا أن الأفلام اتسمت فى مجملها . والجيد منها على وجه الخصوص . بسمات مميزة، أضفت عليها بصمة خاصة، وإن كانت تنتشر فيها بدرجات متفاوتة. ولم تكن هذه البصمة جامدة، وإنما تطورت بتطور مشاركات محفوظ وتنوعها. وتماثلت . إلى حد كبير . المراحل التى مرت بها بصمته السينمائية مع تطورات كتاباته الأدبية. وتكشف سمات بصمته عن نفسها فى كل من الزمان والمكان والشخصيات

وأسلوب المعالجة على نحو ما يتبين لنا فيما يلى.

١ . الــزمــــان:

كما بدأ نجيب محفوظ أعماله الأدبية بروايات تاريخية تدور أحداثها فى الماضى البعيد «أحمس» و«رادوبيس» و«عبث الأقدار»، كان أول فيلمين كتب لهما السيناريو تدور أحداثهما فى عصور تاريخية سابقة وهما فيلما «المنتقم» ١٩٤٧، و«مغامرات عنتر وعبلة» ١٩٤٨. وكما انتقل محفوظ فى أعماله الأدبية التالية إلى معالجة موضوعات تدور أحداثها فى النصف الأول من القرن العشرين، كذلك كانت أفلامه التالية التى تتناول أحداثاً تدور قبل ثورة ١٩٥٢. ومنها ما استمد مادته من وقائع بعينها حدثت فى هذا العهد مثل «ريا وسكينة» و«الوحش» و«الفتوة» و«احنا التلامذة» يستثنى من ذلك فيلما «الطريق المسدود» ١٩٥٨، و«أنا حرة» ١٩٥٩ اللذان أعدهما عن روايتى إحسان عبدالقدوس، حيث يناقشان قضايا معاصرة لفترة إنتاجهما وإن كان لها جذورها الممتدة فيما سبق، وتتعلق بإشكاليات القيم ووضع المرأة فى المجتمع. والفيلمان يبشران بقيم جديدة تتوافق واتجاهات المجتمع الجديدة فى عهد الثورة.

ومع توقف محفوظ عن الكتابة للسينما تقريباً وتحول السينما إلى الاعتماد على رواياته الأدبية فى المرحلة التالية نلاحظ من الأفلام ما اعتمد على روايات محفوظ التى كتبها فى مرحلة أدبية سابقة وتدور أحداثها فى نفس زمن الأفلام السابقة أى ما قبل الثورة. وتحمل هذه الأفلام مواصفات الأفلام السابقة. ويمكن اعتبارها امتداداً لها مثل أفلام «بداية ونهاية» ١٩٦٠، «زقاق المدق» ١٩٦٣، «بين القصرين» ١٩٦٤، «خان الخليلى» ١٩٦٦، «القاهرة ٣٠» ١٩٦٦ و«قصر الشوق» ١٩٦٧.

لكن السينما المصرية أقدمت أيضاً فى نفس الوقت على تحويل روايات محفوظ الأحدث، وحققت بها نقلة نوعية بانتقالها إلى معالجة الزمن المعاصر لها ويمثلها أفلام: «اللص والكلاب» ١٩٦٣ و«الطريق» ١٩٦٤، و«السمان والخريف» ١٩٦٨، و«ميرامار» ١٩٦٩، و«الشحات» ١٩٧٣، و«الكرنك» ١٩٧٥، و«الحب تحت المطر» ١٩٧٥.

وإذا كانت الأفلام المأخوذة عن الروايات دارت حول فترتين زمنيتين متتاليتين هما: زمن ما قبل الثورة وزمن ما بعدها، فالأفلام المأخوذة فيما بعد عن القصص دارت أيضاً . فى معظمها . حول فترتين زمنيتين ولكن بينهما فجوة زمنية واسعة، حيث تدور أحداث إحداهما فى زمن الفتوات بينما تدور أحداث الأخرى فى الزمن المعاصر. ومن ثم تعتبر هذه الأفلام الأخيرة امتداداً لأفلام الروايات التى تدور فى نفس الزمن. وقد



مع قدوم السبعينيات كان هناك تغيير ملحوظ فى التعامل مع أعمال محفوظ الأدبية. فقد أصبحت . فى عمومها . أكثر نضجاً من ناحيتى المستوى السينمائى والاقتراب من روح النص

سبق أن ذكرنا من أهم أفلام الفتوات والحرافيش فى هذه المرحلة فيلمى «الشيطان يعظ» ١٩٨١ و«الجوع» ١٩٨٦. وكان من أهم الأفلام المعتمدة على قصص تتناول الزمن المعاصر لإنتاجها «أهل القمة» ١٩٨١، و«أيوب» ١٩٨٤، و«الحب فوق هضبة الهرم» ١٩٨٦.

من هذا الاستعراض نجد أن أفلام محفوظ عالجت عدة فترات زمنية متصلة قبل وبعد الثورة، وهى الأغلب والأهم، وأخرى منفصلة تدور فى أزمان سابقة متخيلة، وتتمثل فى زمن الفتوات فى مصر أو ما هو أقدم منها ويتصل بالتاريخ العربى القديم كالفيلمين الأولين. إلا أنه رغم اختلاف الأزمنة ظلت الأفلام فى مجملها على صلة وثيقة بالزمن الحاضر وقت إنتاجها. وما يثار فيه من قضايا. وهو ما كان يجرى مناقشته مباشرة أو بإسقاط الماضى على ما يجرى فى الحاضر، مما أضفى على هذه الأفلام حيويتها. وجعلها فى الوقت نفسه بمثابة وثائق تاريخية (فنية) شاهدة على العصر.

٢ . المــكـــان:

معظم أفلام المرحلة الأولى تدور داخل الحوارى والأزقة الشعبية. والمكان فى هذه الأفلام ليس مجرد مساحة من الفراغ تتحرك داخلها الشخصيات، وإنما هو شخصية حية بما له من تاريخ وتقاليد تترك أثرها على الأحداث والشخصيات، فضلاً عن أنه يحدد الجو العام للفيلم. وكما نجد فى روايات محفوظ الأولى ما يحمل أسماء المكان الذى تدور فيه أحداث الرواية، ومنها الروايات التى تحولت إلى أفلام فيما بعد، نجد أيضاً من عناوين هذه الأفلام ما يحمل أسماء المكان، وهو ما يجعل هذه الأفلام امتداداً لسابقتها، ومنها «زقاق المدق» ١٩٦٣، و«بين القصرين» ١٩٦٤، و«خان الخليلى» ١٩٦٦، و«قصر الشوق».

أما أفلام مثل «اللص والكلاب» ١٩٦٣، و«السمان والخريف» ١٩٦٨، و«ميرامار» ١٩٩٦، و«ثرثرة فوق النيل» ١٩٧١، و«الشحات» ١٩٧٣، المأخوذ عن روايات محفوظ بنفس العناوين، فقد انتقلت من الحارة إلى شوارع المدينة حيث يسكن أبناء الطبقة المتوسطة الجديدة.

وهكذا نجد أن أفلام محفوظ تغوص فى حوارى المدينة وشوارعها باستثناء فيلم «الوحش» ١٩٥٤، الذى دارت أحداثه فى القرية، والمدينة المقصودة هنا هى القاهرة خاصة فيماعدا فيلمى «السمان والخريف» و«ميرامار» حيث دارت أحداثهما فى الإسكندرية.

وعندما انتقلت السينما المصرية إلى الاستعانة بقصص محفوظ القصيرة فى المرحلة التالية ظلت داخل نطاق القاهرة أيضاً، وإن أخذت الحوارى فى مجموعة أفلام الفتوات والحرافيش شكلاً مختلفاً إلى حد ما عن الحوارى السابقة حيث ترتد بها إلى عصر الفتوات مما يضفى عليها طابعاً خاصاً سواء فى العمارة أو التقاليد والقيم التى تحكمها.

٣ . الشخصيات:

ساد فى المرحلة الأولى شخصيات ابن البلد من الطبقة المتوسطة الدنيا، بما فيها من الحرفيين وأصحاب الأملاك أو الأعمال الصغيرة والباعة والتلامذة والمجرمين. منها شخصيات مطحونة جائعة للمال كما فى «النمرود» وجائعة للجنس كما فى «شباب امرأة»، تجد نفسها مدفوعة إلى الجريمة كما فى «إحنا التلامذة» و«جعلونى مجرماً»، أو ساعدتها الظروف على احتراف الجريمة كما فى «ريا وسكينة» و«الوحش». وهى شخصيات محدودة الوعى تخطئ الطريق. غالباً. فى بحثها عن الحل لأزمتها كما فى «الفتوة» و«احنا التلامذة».

تمثل شخصية المجرم أو المنحرف مكانة بارزة فى هذه الأفلام التى تعالجها من زوايا مختلفة، بحيث يمكن أن تعطينا صورة واضحة لطبيعة الجريمة أو الانحراف وطبيعة المجرم أو المنحرف فى ملابسات اجتماعية مصرية معينة تكشف عن أسباب تواجد هذه الجريمة أو الانحرافات كما فى أفلام: «لك يوم يا ظالم»، «ريا وسكينة»، «الوحش»، «جعلونى مجرماً»، فتوات الحسينية»، «النمرود»، و«احنا التلامذة».

وفى المرحلة التالية مع الاستعانة بروايات محفوظ امتدت نفس نوعية الشخصيات فى أفلام الحارة، وإن ظهرت بينها فئات جديدة مثل فئة صغار الموظفين فى «بداية ونهاية» و«خان الخليلى». وأصبحت فى أحيان أخرى أكثر ثراء معبرة عن الطبقة المتوسطة الأعلى من كبار التجار كما فى الثلاثية (بين القصرين، قصر الشوق والسكرية).

وخارج نطاق الحارة قدمت أفلام محفوظ شخصيات ابن المدينة من الطبقة المتوسطة الدنيا من صغار الموظفين كما فى «الحب فوق هضبة الهرم» ومن الطبقة المتوسطة العليا من كبار الموظفين وأصحاب المهن المختلفة (الصحفى، المحامى، الممثل، والكاتب) وأصحاب الأملاك، كما فى: «السمان والخريف»، «ميرامار»، «ثرثرة فوق النيل»، و«الشحات».

ومع إقدام السينما على الاستعانة بقصص محفوظ الأدبية القصيرة قدمت الأفلام نماذج أخرى من الشخصيات، لكنها ظلت جميعاً فى نطاق أبناء الطبقة المتوسطة فى المدينة على مختلف مستوياتها وجميع فئاتها بما فيهم من أسوياء ومنحرفين. وقد أخذ الانحراف أشكالاً جديدة بما يتفق ومتغيرات العصر كما يتضح على وجه الخصوص فى غيلان عصر الانفتاح فى «أهل القمة» و«أيوب».

٤ ـ الأسلوب:

من خلال كتاباته لها ومن خلال أدبه فيما بعد، فرض محفوظ على السينما المصرية نهج الواقعية، إذا ما اعتبرنا الواقعية فى أبسط تعريفاتها: «كل فن يحاول أن يمثل الأشياء بأقرب صورة لها فى العالم الخارجى» فهو يتوخى الواقع فى تناول الشخصيات ومعالجة الأحداث والبناء السردى فى أفلامه، كما فى أدبه. ولما كان هذا الواقع متغيرًا، فهو كذلك فى أفلامه وأدبه، حيث ترتبط الأحداث والشخصيات والقضايا المثارة بمرحلتها التاريخية. ومن هذه الناحية اكتسبت مصداقيتها.

ولم يقتصر محفوظ على تمثيل الأشياء بأقرب صورة لها فى الواقع المصرى بل اشتق من الواقع المباشر أحيانًا أفكاره القصصية للسينما كما فعل فى الأدب. ومن أفلامه التى اعتمدت على أحداث وقعت بالفعل «ريا وسكينة» و«الوحش» و«الفتوة»، ومن رواياته أيضًا التى ارتبطت مباشرة بأحداث شغلت الرأى العام «اللص والكلاب» التى تحولت مرتين إلى سينما. وكان فى ذلك رائدًا فى السينما المصرية كما كان رائدًا فى الأدب العربى.

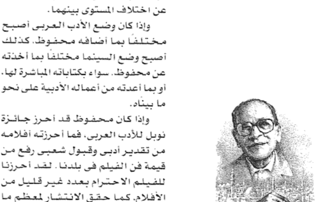
ولا تتوقف واقعية محفوظ. فيماعدا استثناءات محدودة. عند حد تمثيل الواقع وإنما تتجاوز ذلك إلى ما يعنيه بريخت من الواقعية باعتبارها «اكتشاف تركيبات العلل والمعلولات فى المجتمع». وهو ما يؤكد ارتباط الأفلام بالواقع، بالإضافة إلى ما يضفى عليها من قيمة اجتماعية. ويكفى أن نضرب مثلاً على ذلك من أفلام المرحلة الأولى فيلم «الوحش» الذى يكشف عن آليات تواجد مجرم/ جريمة معينة فى مجتمع معين. ومن أفلام مرحلة الرواية فيلم «بداية ونهاية» الذى يكشف عن آليات انهيار أسرة فى مجتمع معين رغم قوة الإرادة الفردية. ومن أفلام مرحلة القصة الأدبية فيلم «أهل القمة» الذى يكشف عن آليات صعود اللصوص إلى قمة المجتمع فى ظروف اجتماعية معينة وأثر ذلك على القيم وسلوك الناس.

كما تتسم واقعية محفوظ بنزعة نقدية حتى نكاد لا نجد فيما بين أفلامه ما يخلو من نقد اجتماعى. ونحن مع من يذهب إلى اعتبار الواقعية «لونًا من ألوان النقد الثقافى» ويعتبر فيلم «الفتوة» فى مقدمة أفلامه الواقعية النقدية التى كتبها للسينما. ورغم أن الفيلم ينتمى للمرحلة الأولى من إسهاماته. إلا أنه مازال يحتفظ بقيمته الفنية، والنقدية على الأخص، حيث ينتقد السوق الحرة حين يحكمها الاحتكار وتتفشى فيها الرشوة واستغلال النفوذ. وكان فيلم «ميرامار» أول عمل سينمائى يدين النظام من خلال إدانته لعضو الحزب الحاكم وقتها. كما أدان أساليب الثراء غير المشروعة فى فيلم «أيوب». وكشف عن معاناة الشباب فى عصر الانفتاح وسخر من الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المفروضة فى «الحب فوق هضبة الهرم».

غير أن بعض أفلام محفوظ شابتها مسحة ميلودرامية يغلب عليها المبالغة فى التعبير عن المآسى، والسماح للصدفة بدور أساسى فى الأحداث. نلمح هذه السمة فى المرحلة الأولى، وعلى وجه الخصوص فى «لك يوم يا ظالم» و«الهاربة» و«جعلونى مجرمًا» لكن أفلامه تخلصت منها تدريجيًا فيما بعد خاصة فيما ذكرناه من أعماله السينمائية الأهم التى حققت قدرًا أكبر من النضج.

تعتبر هذه الواقعية التى اتسمت بها أعمال محفوظ السينمائية على نحو ما بيناه من أهم سمات بصمته على السينما المصرية إن لم تكن أهمها. فالسينما المصرية قبل محفوظ كانت أقرب إلى سينما غرائبية، لم تكن فى غالبيتها الساحقة تبالى بالواقع وإنما تتوخى كل ما هو غريب وشاذ أو خاص من أحداث وتصرفات، بقصد إثارة المتفرج وتسليته وإلهائه عن الواقع. وذلك غلب عليها أفلام الميلودراما الزاعقة والفارس والأفلام التاريخية أو شبه التاريخية وأفلام الأغانى والرومانسية المغرقة. ومع قدوم محفوظ الذى وضع بذور الواقعية، خلق فى السينما اتجاهًا جديدًا أخذ يتنامى فى أعماله وأعمال غيره.

وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية دور المخرجين لهذه الأفلام الذين توافقت أفكارهم واتجاهاتهم مع اتجاهات محفوظ الواقعية. وكان لهم الفضل فى تحقيق أفكاره فى الأفلام التى شارك فيها، وفى أفلام أخرى ساروا على نهجها، واستطاعوا أن يخلقوا مدرستهم الخاصة بسينما الواقعية المصرية.





أفلام محفوظ تغوص فى حوارى المدينة وشوارعها باستثناء فيلم «الوحش» ١٩٥٤. الذى دارت أحداثه فى القرية. والمدينة المقصودة هنا هى القاهرة خاصة فيماعدا فيلمى «السمان والخريف» و«ميرامار» حيث دارت أحداثهما فى الإسكندرية

حصاد السنين:

لاشك أن هذا العدد الضخم من الأفلام، وما حققه من انتشار جماهيرى (وهو الأهم) على مدى هذه السنين الطويلة، قدم، إلى جانب الثقافة. المتعة الفنية للمتفرج العربى على مختلف مستوياته فى مصر وخارج مصر. وكان بمثابة الفرن الهادئ الذى يصاغ به على مهل الوجدان العربى، والفكر، والأخلاق، والوعى بالذات.

كم من الأفكار، وكم من الشخصيات، وكم من الأحداث قدمتها هذه الأفلام، وكلها محاولات لفهم الحياة وفهم الإنسان فى مجتمعنا. تؤرخ لنا، تناقش قضايانا، تتألم لنا، وتفرح معنا، تقدم النقد، وتلوح بالأمل، وتسعدنا غالبًا على مختلف مستوياتنا.

من يريد أن يعرف القاهرة: أحياؤها القديمة، وقلب المدينة الحديثة، وناس المدينة خاصة الفقراء من أبناء البلد والأفندية وخريجى الجامعة: مشاكلهم، ومعاناتهم، وتمزقاتهم، وما يدور فى أذهانهم. أجيال القاهرة من الحرب العالمية الأولى حتى الآن. وتاريخ المدينة الاجتماعى المعاصر. كل ذلك نجده متخيلاً فى أدب نجيب محفوظ. كما نجده مجسمًا فى أفلامه. بغض النظر عن اختلاف المستوى بينهما.

وإذا كان وضع الأدب العربى أصبح مختلفًا بما أضافه محفوظ. كذلك أصبح وضع السينما مختلفًا بما أخذته عن محفوظ. سواء بكتاباته المباشرة لها. أو بما أعدته من أعماله الأدبية على نحو ما بيناه.

وإذا كان محفوظ قد أحرز جائزة نوبل للأدب العربى. فما أحرزته أفلامه من تقدير أدبى وقبول شعبى رفع من قيمة فن الفيلم فى بلدنا. لقد أحرزنا للفيلم الاحترام بعدد غير قليل من الأفلام. كما حقق الانتشار لمعظم ما حمل اسمه من أفلام.

ولكن، لعل أهم ما حققه للسينما هو إسهامه الواضح فى اكتساب هذه السينما هويتها من خلال نوعية القضايا التى تناقشها. ونوعية الشخصيات وصراعاتها فى زمان معين وفى مكان معين. مع توخى أسلوب خاص فى معالجة أحداثها. وهذا هو أهم ما ميز أفلامه كما ميز أدبه. وإن حققت أفلامه التأثير الأقوى والأكثر اتساعًا من الأدب فى مجتمعنا. ولا ينكر محفوظ ما كان للسينما من أثر واضح فى انتشار أعماله الأدبية. الأمر الذى يكرر الاعتراف به فى أكثر من مناسبة.

وأسأل الأستاذ (ختامًا لما سبق): ما أهم الأفلام. فى رأيك. التى حملت اسمك؟

يجيب: الأفلام المهمة كثيرة. وأنا لم أتابع كل أفلامى

أسأل: ما آخر فيلم شاهدته منها؟

يجيب: فيلم «الشيطان يعظ» وبعده لم يعد فى إمكانى الرؤية.

أسأل: من هم أفضل المخرجين. فى رأيك. الذين قدموا أعمالك؟

يجيب: كثيرون.. كلهم.. الحقيقة أن أفضل المخرجين المصريين هم الذين أخرجوا أفلامى.

أضيف: مثل صلاح أبوسيف وكمال الشيخ وحسين كمال وعاطف سالم..

مقاطعا: وحسن الإمام. كان حسن الإمام يركز على أجزاء معينة من الرواية.. وهى الأجزاء التى أحبها (يضحك). أنت تعلم ما أعنى بالطبع. ■

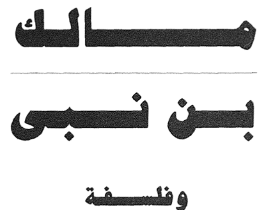
الهوامش:

(١) قصة السينما فى مصر. سعد الدين توفيق. كتاب الهلال ١٩٦٩.

(٢) مصر مائة سنة سينما. إعداد وتقديم أحمد رأفت بهجت مطبوعات مهرجان القاهرة السينمائى الدولى ١٩٩٦.

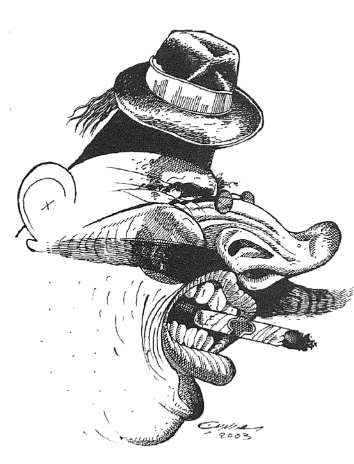
(٣) نجيب محفوظ على الشاشة. الطبعة الثانية ١٩٩٠. هاشم النحاس. الهيئة العامة للكتاب.

(٤) حديث خاص مع الأستاذ نجيب يوم الجمعة ٢٠٠١/٦/١.



وفلسفة الخروج من التخلف

محمد الميلى



في يوم ٣١ أكتوبر ١٩٧٣، توفى مالك بن نبى المفكر الجزائرى الذى شغل الساحة الفكرية، وقتًا ما، فى الجزائر عقب الحرب العالمية الثانية، وفى خارج الجزائر، بعد اندلاع ثورة نوفمبر ١٩٥٤، إذ أقام فترة بالقاهرة. هناك بنى نظريته عن العالم الأفروآسيوى انطلاقًا من باندونج، وهو يعتبر أن عملية البناء الحقيقى فى العالم الإسلامى انطلقت من مصر عام ١٩٥٢، ثم من الجزائر عام ١٩٥٤، كما أُعجب بالتجربة اليابانية منذ دراسته الجامعية، يدل على ذلك الكتاب الذى وضعه عن «الإسلام واليابان والمجموعة الآسيوية» عام ١٩٤٠.

لكن من هو مالك بن نبى؟



هو من مواليد ١٩٠٥، عرف النور فى مدينة تبسة بأقصى الشرق الجزائرى، وهى مدينة رومانية قديمة، كانت محطة مهمة من محطات الإمبراطورية الرومانية فى أفريقيا، وظلت محتفظة بمكانتها فى العهد البيزنطى، وبما أنها ملتقى قبائل عديدة فقد أولاها الفرنسيون أهمية خاصة، نظرًا إلى أن أهم قبيلة فى المنطقة، وهى قبيلة «النمامشة» اشتهرت بشدة المراس، وقد اكتوت جيوش الاحتلال بنارها فى القرن التاسع عشر عندما خاض أبناء المنطقة حروب المقاومة تحت راية الأمير عبدالقادر.

زاول دراسته الثانوية فى مدينة قسنطينة، (ومن ثم إتقانه اللغتين العربية والفرنسية) ثم التحق بباريس حيث درس الهندسة.

ورغم أنه كان مهندسًا فقد كانت انشغالاته فكرية أساسًا.

أُدخل السجن فى أغسطس ١٩٤٤ بمدينة شارتر، غربى باريس، إثر اتهامه بالتعاون مع الألمان، ولعل الذين وجهوا إليه تلك التهمة اعتمدوا على الاتصالات التى كان يجريها مع ممثلى المسلمين فى فرنسا، نظرًا لاهتمامه بالشأن الإسلامى، حيثما وُجد المسلمون، علمًا بأن هتلر كان قد وجه دعايته نحو الشعوب الإسلامية الخاضعة للاستعمار البريطانى والاستعمار الفرنسى، ويعرف سكان الشرق الجزائرى، ومنطقة مدينة تبسة على الخصوص التى كان ينتمى إليها مالك بن نبى، أن الألمان وزعوا بالطائرات، كميات كبيرة من الأسلحة بواسطة المظلات، على أمل أن يستعملها الجزائريون ضد الفرنسيين، فيسهلون مهمة احتلاله لتونس، ويضعفون الفرنسيين.

هذا ما جعل الإدارة الفرنسية آنذاك ١٩٤٢، توعز لأحد أبناء المدينة بتلفيق تهمة ضد الشيخ العربى التبسى، أحد الزعامات السياسية والدينية بالمنطقة، والذى كانت كلمته مسموعة من السكان، سواء من قبيلة النمامشة التى ينتمى إليها أو من القبائل الأخرى التى هى أقل عددًا، لأن الشيخ العربى استعمل نفوذه منذ بداية الثلاثينيات فى حماية تلك القبائل الصغيرة، وفعلاً زعم الشخص المكلف بتوجيه التهمة أنه كان ينقل رسائل من الشيخ العربى إلى الألمان (لأن مدينة تبسة كانت متاخمة للحدود التونسية) ويأتيه برسائل من الألمان، وأُدخل الشيخ إلى أهم سجون الجزائر، وهو سجن «لامبيز» Lambese قرب مدينة باتنة، وحكم الإعدام هو الجزاء فى حالة كهذه.

لكن أصدقاءه. خاصة المرحوم أحمد بوشمال. جندوا مجموعة من المحامين، جزائريين وفرنسيين بالإضافة إلى أن الشيخ عندما قُدم للمحاكمة طلب مقابلته مع الشخص الذى اتهمه، عندما وقف هذا أمام الشيخ وكان مهيبًا، استحلفه أن يقول الحقيقة، فما كان منه إلا أن أجهش بالبكاء واعترف بتلفيق التهمة.

وتجدر الإشارة إلى أن أخا الشيخ العربى، الذى اسمه «البشير» كان من مؤسسى «المنظمة السرية» التى تدعو إلى الكفاح المسلح إثر أحداث مايو ١٩٤٥، وتوفى عام ١٩٤٨ متأثرًا بالتعذيب الذى سُلط عليه فى السجن.

تعمدنا هذا الاستطراد للتدليل على أن تهمة الاتصال مع الألمان لم تكن استثناء، وعلى أن منطقة تبسة كانت من المناطق التى ظهر فيها التنظيم المسلح فى زمن مبكر.

وقد يكون تردد مالك بنى نبى على سفارة اليابان فى باريس قد عزز تلك التهمة، إذ كان معروفًا عنه اهتمامه الكبير بالتجربة اليابانية، بالإضافة إلى كتاب عن اليابان والمجموعة الإسلامية سلمه إلى السفارة اليابانية بباريس عام ١٩٤٠، أى قبل دخول اليابان فى الحرب.

إلا أن مالك بن نبى عندما قدم للمحاكمة فى أبريل ١٩٤٥ تأكدت براءته من التهمة وأُطلق سراحه.

خلال إقامته بالسجن سجل أهم أفكاره حول «الظاهرة القرآنية» Le Phenomene Coranique الذى يعد باكورة إنتاجه، ولم يُصدر منشورًا فى كتاب إلا عام ١٩٤٨، إلا أن بعض من ترجموا له، يقولون أنه كتب كذلك «المشكل اليهودى» الذى. ضاع مخطوطه. كما وضع منذ ١٩٤٠ كتابًا عنوانه «الإسلام واليابان والمجموعة الآسيوية» سلمه فى نفس السنة إلى السفارة اليابانية فى باريس، فهل يوجد فى أرشيف السفارة اليابانية بباريس؟ لا أحد يعرف. وقد أهدى كتابه «الظاهرة القرآنية» إلى شخص اسمه Georges Merlin لأنه أنقذ كتابه إذ أخرجته زوجته من السجن قبل إطلاق سراح مالك.



وقد تولى رقن هذا المخطوط شخص يهودى فى مدينة تبسة عام ١٩٤٦ ونشرته «دار النهضة»(١) التى هى أول دار نشر

جزائرية عصرية، أسسها المرحوم عبدالقادر ميمونى، أحد الوجوه البارزة فى الحركة الوطنية الجزائرية.

وإذا كان هذا الأخير جامعيًا فقد رفض أن يشتغل فى التجارة التقليدية كما كان يرغب أبوه وعمه اللذان رفضا تمويل مشروعه للنشر، فكون شركة مساهمة، بدأت تعمل دون مقر، وما لبثت أن أصبحت دار نشر مهمة وصارت ملتقى المثقفين بالعربية والفرنسية، وهذه هى نفس الدار التى نشرت عام ١٩٤٩ كتابه «شروط النهضة الجزائرية» لكن الكتاب الذى أكسبه الشهرة فى الأوساط الفرنسية هو «Vocation De L'islam» الذى نشرته دار «لوسوى» الباريسية عام ١٩٥٤.

تجديد الفكر الإصلاحى:

تكتسى أفكار مالك بن نبى أهمية خاصة لاعتبارات عديدة، فقد ظهرت كتاباته فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، أى فى فترة عرفت فيه حركة الإصلاح الدينى فراغًا بفعل غياب عبدالحميد بن باديس، الذى كان مفكرًا مجددًا فى الدين، كما كان مفكرًا سياسيًا يؤمن بضرورة الكفاح المسلح، وإن كان يعتبر أنه لابد من التمهيد لذلك بتوعية سياسية وثقافية واسعة النطاق.

يؤكد بعض ذلك ما كتبه الأستاذ مصطفى الأشرف، الوجه البارز فى الحركة الوطنية، فقد عمل فى صفوف حزب الشعب منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية، وهو فى الوقت نفسه مفكر معروف بتشدده الذى يسميه بعضهم تطرفًا، وقد كتب دراسات مهمة عن تاريخ الجزائر ومسار الفكر الوطنى، ونقاط القوة والضعف فى الحركة الوطنية الجزائرية، وفى مسار الكفاح المسلح الذى فجرته جبهة التحرير الوطنى، كانت تحليلاته صارمة تتسم بنزاهة فكرية وأخلاقية عالية.

فقد تعرض فى إحدى الدراسات التى نشرها فى كتابه القيم «L'Algerie Nation Et Societe» (الجزائر أمة ومجتمعًا) إلى الظروف السياسية والفكرية التى شهدت انتشار الوعى الوطنى لدى الجماهير الشعبية، وقد سجل فى هذا السياق ظهور حركتين مهمتين هما حركة حزب الشعب الجزائرى سليل «نجم شمال أفريقيا» الذى طرح منذ ١٩٢٧ مبدأ الاستقلال التام، وحركة الإصلاح الدينى التى تصدت لمحاولات الفرنسة والإدماج وإلحاق الجزائر بفرنسا.

وهو إذ يلاحظ التطرف الذى كان يتسم به حزب الشعب، يسجل أن مثل ذلك التطرف مكّن العمل الوطنى بالجزائر من تحقيق قفزة مهمة إلى الأمام، إلا أن هذا التطرف إذا كانت له إيجابياته فإنه له سلبياته التى انعكست على الثقافة السياسية ووحدة العمل السياسى، ذلك أنه يعتبر أن كلاً من حزب الشعب الذى يتزعمه مصالى الحاج، وحركة الإصلاح الدينى التى يتزعمها ابن باديس يمثلان تيارين متقاربين يكمل أحدهما الآخر، لأن أيديولوجية كل منهما تشترك فى نقطة واحدة، وكل ما كان مطلوبًا هو أن تدخل كل منهما تعديلات على مواقفهما تضمن وحدة العمل السياسى والثقافى، وهو يُحمل مصالى الحاج مسئولية عدم تحقيق هذا المطلب، عندما يقول: «فمصالى الحاج المندفع الذى يجهل أو يحتقر كل إمكانيات البناء الفكرى الوطنى للحركة التى يقودها، دخل فى حرب لا هوادة فيها ضد ابن باديس الذى كان آنذاك هو المفكر الوحيد المستنير المنظر لوطنية تاريخية وثقافية عصرية، تقدمية نسبيًا».

هذا الطرح يلتقى فيه مالك بن نبى مع مصطفى الأشرف، فقد كان مؤلف «وجهة الإسلام» سلمنى مخطوطًا له لإبداء الرأى فيه، هو عبارة عن ذكرياته منذ أن كان بباريس، وفيه ينتقد بشدة أفكار مصالى الحاج الذى حضر أحد الاجتماعات التى عقدها بفرنسا، (كان عنوان المخطوط، إن لم تخنى الذاكرة: مذكرات شاهد على العصر أو على القرن).

والذى يهمنا فى الأمر أن ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية تختلف عن ظروف الثلاثينيات: من حيث القضايا التى كانت مطروحة قبل ١٩٣٩، مثل «التجنيس» والموقف من المواطنة الفرنسية، من جهة، ومن جهة أخرى غياب ابن باديس الذى توفى يوم ١٦ أبريل ١٩٤٠، وكذلك مبارك الميلى الذى توفى يوم ٩ فبراير ١٩٤٥، الذى كان قد زوّد الحركة الإصلاحية بوثيقتين مهمتين: «تاريخ الجزائر فى القديم والحديث» و«رسالة الشرك ومظاهره»، فالأول مرافعة تاريخية ترد على الأطروحات الاستعمارية حول عدم وجود الجزائر تاريخيًا، والثانى يدحض أطروحات بعض الزوايا الطرقية التى وظفها الاستعمار لخدمة مصالحه، لذلك كان زملاؤه يسمونه «الفيلسوف» على أساس أنه كان منظرًا لتيار الإصلاح الدينى فى ميدانين مهمين من ميادين أنشطتها.

تبدو النظريات التى طرحها مالك بن نبى حدثًا مهمًا فى حد ذاته، وتمثل طرحًا يمكن إدراجه فى خط الإصلاح الدينى المستنير، فى نفس الوقت الذى يتجاوزه إذ يتناول مشاكل التخلف والاستعمار من زاوية أوسع، كما يقدم مشروعًا للمستقبل





فى هذا الإطار تبدو النظريات التى طرحها مالك بن نبى حدثًا مهمًا فى حد ذاته، وتمثل طرحًا يمكن إدراجه فى خط الإصلاح الدينى المستنير، فى نفس الوقت الذى يتجاوزه إذ يتناول مشاكل التخلف والاستعمار من زاوية أوسع، كما يقدم مشروعًا للمستقبل، لذلك كان مالك بن نبى يعتبر نفسه صاحب رسالة، وهو لم يكتف بما أصدره من كتب بعد ١٩٤٥ وقبل ١٩٥٤، إذ كان يكتب فى صحف جزائرية مثل «الجمهورية الجزائرية» التى كانت ناطقة باسم حزب «الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى» الذى يتزعمه فرحات عباس، وفى صحيفة «الشاب المسلم» التى كانت تعبر عن أفكار جمعية العلماء، وكلتاهما تصدران بالفرنسية.

وكانت «الشاب المسلم» تتميز بمحاولة إيجاد خلف مستنير للرعيل الأول من رجال الإصلاح الدينى يخاطب المفرنسين من الجزائر كما يخاطب التقدميين الفرنسيين.

فيلسوف الخروج من التخلف:

إن التميز الذى تتصف به أفكار مالك بن نبى، هو طابعها الإسلامى و«العالمثالثى» فى الوقت نفسه. فقد ألف عام ١٩٥٦ كتابه عن الفكر الأفريقى - الآسيوى الذى صدر إثر مؤتمر باندونج. وعام ١٩٥٨ ظهر كتابه عن «كومنولث إسلامى».

وبعد استقلال الجزائر فى ١٩٦٢، واصل نشاطه الفكرى، فزيادة عن توليه إدارة جامعة الجزائر، لبعض الوقت، كان يواظب على إلقاء محاضرات بالفرنسية، تتوجه إلى النخبة المثقفة، حول مشاكل الثقافة والحضارة والأيديولوجية.

وفى سنة ١٩٧٢ أصدر فى بيروت، كتيبًا بالعربية عنوانه «المسلم فى عالم الاقتصاد» تُرجم بعد ذلك إلى الفرنسية.

بالإضافة إلى كتاباته كان يحرص على مخاطبة مجموعة من الشباب والطلاب الجامعيين خلال حلقات تجتمع حوله بانتظام يشرح فيها، شفاهًا، أفكاره، على أساس أن الخطاب المباشر أبلغ فى التأثير على المستمع، من تأثير الكلمة المكتوبة التى يطالعها القارئ فى صحيفة أو كتاب. لذلك يعتبر بعضهم أن مالك بن نبى ساهم فى بذر أفكار الإسلام السياسى بالجزائر.

ومهما كان تقييم المثقفين له، فالذى لاشك فيه أنه قدم عطاء فكريًا لم يكتف فيه برد الفعل ضد بعض الأطروحات التى كانت موضوع اهتمام الناس فى مجالات الاقتصاد والتاريخ، بل جاء بإسهامات معتبرة.

يضاف إلى ذلك أن إنتاجه، إذ ظهر بالفرنسية، يمثل خطًا متميزًا فى الكتابات الجزائرية التى كانت تستعمل الفرنسية، فالكتّاب الذين شغلوا الساحة الجزائرية معتمدين على اللغة الفرنسية، كان معظمهم أدباء من طراز ممتاز، لكن لم يمسوا، إلا عرضًا، بعض القضايا الكبرى مثل مستقبل الثقافة فى الجزائر، مثل حاج على وكاتب ياسين ومولود معمرى ومالك حداد، لكن معظمهم فعل ذلك بعد نوفمبر ١٩٥٤، زيادة عن أن كلاً منهم، لم يقدم بناء متكاملاً، ولعل المفكر الوحيد الذى تتسم كتاباته ودراساته بانتظامها فى خط متسق ومنهجية علمية، هو الأستاذ مصطفى الأشرف، فجميع ما كتبه من دراسات وأبحاث ومقالات ينتظمه خيط واحد، ويكمل

بعضه بعضاً حتى أن القارئ لا يستطيع أن يستنبط. لولا التواريخ التى يضعها إثر كل دراسة. ترتيبها الكرونولوجى، صحيح أن هناك فرانز فانون، لكن هذا الأخير لا يدخل فى أى تصنيف مما سبق ذكره، نظراً لخصوصية منبته الاثنى (المارتينيك) والفكرى (الفرنسى) من جهة، ولكونه استنبط بعض نظرياته من واقع حرب التحرير الجزائرية وما أدخلته من تحولات، دون أن يكون مطلعاً على ما سبق الثورة المسلحة من إعداد فكرى وتهيئة سياسية، زيادة عن أن بعض آرائه عن التحولات الاجتماعية استخلصها من ملاحظات اقتصرت على منطقة محدودة من مناطق الجزائر.



أما مالك بن نبى فإن كتاباته تندرج فيما يمكن تسميته بـ«فلسفة الخروج من التخلف»، فى نفس الوقت الذى تشتمل فيه على رؤية تاريخية متبصرة، ونفس إسلامى واضح، يدعمهما جهد فكرى تجديدى واجتهاد يحرص على تجنب المسائل المطروقة، كما أن مالك بن نبى قد أعاد الاعتبار للفكر الإسلامى المستنير الذى تعرض تراثه فى الجزائر لتهميش غير قليل بعد الاستقلال بسبب عوامل عديدة، لا يتسع المقام لذكرها هنا.

ثم إن تحقيق الاستقلال فى تلك الظروف المعروفة، فتح أكثر من باب يفضى كل منها إلى الضياع، بفعل انعدام المرجعيات من جهة، وتأثيرات «القوة الثالثة» التى أراد الاستعمار خلقها من جهة ثانية، والصراع على السلطة من جهة ثالثة، وخيبات الأمل فى رموز الثورة المسلحة والاستقلال فى نهاية المطاف، لذلك سعى مالك بن نبى إلى مواجهة الضياع بشىء آخر غير المواعظ والخطاب الخلقى الصرف، بل إنه استبق الأمر، فلم ينتظر الاستقلال لكى يبشر بنظرياته، إذ أن مجموع ما كتبه، قبل نوفمبر ١٩٥٤ وأثناء حرب التحرير وبعد الاستقلال يشكل مذهباً متسقاً يساعد على الخروج من التخلف.

ويبدو أن مالك بن نبى قد تكهن منذ ١٩٤٨، بالخطر الذى يهدد الجزائر عندما تنتزع استقلالها، فقد صوّر فى كتابه «شروط النهضة» أمل الشعب الجزائرى فى الغد المشرق، وما سوف يعترض أفقه من مشاكل قد تصرفه عن المُثل العليا التى ظل يكافح من أجلها على مدى أجيال، ويحسن أن نستشهد بفقرات مما كتبه آنذاك، رغم طابعه الرومانسى، فهو يقول: «أيها الرفيق! هاهى ذى الساعة التى يتسلل فيها شعاع الفجر الباهت بين نجوم «الشرق» كل ما هو مقبل على الصحو قد بدأ ينتفض ويرتعش داخل خمول الكرى وأطماره.. قريباً يشرق الكوكب المثالى على كدحك الذى بدأ فى السهل، حيث لاتزال المدينة التى هجعت بالأمس.. نائمة!

ستحمل الأشعة الأولى للنهار

مـالك بن نبى





مهما كان تقييم المثقفين لمالك بن نبى، فالذى لاشك فيه أنه قدم عطاء فكرياً لم يكتف فيه برد الفعل ضد بعض الأطروحات التى كانت موضوع اهتمام الناس فى مجالات الاقتصاد والتاريخ، بل جاء بإسهامات معتبرة



الجديد، بعيداً جداً.. أبعد من خطاك.. ظل عمله المقدس فى السهل الذى تبذر.. وسيحمل النسيم الذى يهب الآن، البذار الذى تذروه يمينك أبعد من ظلك.. ابذر يا أخى الزارع فى الأخدود الذى يمتد بعيداً.. من أجل جيل قادم.

«.. وليرتفع نشيدك الطروب، كما ارتفع نشيد الأنبياء قديماً، عندما كانوا يغنون أسحاراً أخرى فى تلك الساعات الملائمة التى تولد الحضارات..» إلى أن يقول: «فهاهم قد أخذوا الآن ينصبون بباب المدينة التى بدأت تستعيد يقظتها، سرادق سوق الملاهى مع مسلياتها، لتلهية واحتجاز هؤلاء القادمين صوب خطاك»..

لقد أقاموا الجحوش والمنصات من أجل المشعوذين والبهلوانات، حتى يغطى عجيجهم على نبرات حذائك.. وقد أوقدوا المصابيح الخادعة، حتى يحجبوا بها النهار المقبل، ويلفوا شبحك بالقتام فى السهل حيث تسير..

لقد زينوا الوثن لكى يحقّروا الفكرة.. ولكن الكوكب المثالى يواصل سيره الذى لا ينثنى، وهو لا محالة سيضىء قريباً انتصار الفكرة وذُل الأوثان، كما تم ذلك بالأمس.. فى الكعبة.

وكأنى بمالك بن نبى، وهو يتحدث، عام ١٩٤٨، عن «المصابيح الخادعة» ليحجبوا بها النهار، أو عندما يذكر «سوق الملاهى»، يتنبأ بـ«الجزائر الجزائرية» التى تحدث عنها الجنرال ديجول بعد ذلك باثنتى عشرة سنة.

وقد ذكّرنى هذا المقطع عن سوق الملاهى بما قاله مالك حداد. رحمه الله. ذات يوم من ربيع ١٩٦٣؛ كنا نتناول العشاء فى مطعم فاخر على شاطئ البحر، مالك حداد وعبدالقادر بين قاسى وأنا؛ وكان هناك شباب وكهول، يملأون حلبة الرقص على أنغام موسيقى غربية، تأمل مالك طويلاً فى الراقصات والراقصين، وقال: «هذه هى الجزائر الجزائرية التى كان يريدها الجنرال ديجول».

الحضارة ليست هى اكتساب منتجاتها:

إن الفكرة الأساسية التى تتضمنها كتابات بن نبى هى أن الإسلام، هو القادر على تحصين الشعوب ضد مخاطر الضياع، لكن خطابه ليس سلفياً ولا ماضوياً ولا وعظياً، فهو يربط الإسلام كقيم وأخلاق واجتهاد، بمتطلبات التنمية من جهة وبالروافد الغربية من جهة أخرى، إلا أنه إذ يسجل أهمية اللجوء إلى الفكر الغربى، يعمد إلى تحليل دقيق للنماذج المثقفة فى البلدان المتخلفة التى تكونت فى حضن الجامعات الغربية، فهو يلاحظ أن الطالب الذى يتوجه للدراسة فى أوروبا أو أمريكا، يحمل معه، غالباً، عقلية تحجب عنه الجوهر فلا يرى إلا أحد الشيئين: ما يتلقاه من علم مجرد أو الجانب المغرى من حياة الملاهى، وهو فى كلتا الحالتين لا يرى إلا الواقع الذى انتهت إليه الحضارة الغربية دون أن يكتشف روحها وتطورها ومسارها(٢) وهذا ما يفسر عجزه، فى نظر ابن نبى، عن تبين حركة الإبداع، إبداع القيم المعنوية والاجتماعية التى بها يرقى الرجل أو المرأة إلى مرتبة «الإنسان»، وهو مالا يمكن تحقيقه إلا عندما يتجاوز الجهد الثقافى لدى الإنسان حاجاته الفردية.

ومما يساعد أبناء البلدان المختلفة على الاندفاع فى هذا الاتجاه المسدود هو أن الحضارة الغربية لم تهتم بالغائية وقصرت جهدها على السببية، كل مالا يخضع للقياس، لا يعتبر من قبيل العلم، مسار الإنتاج فى أوروبا لا يحدد الشىء بالنسبة للإنسان، ولكنه يكيف الإنسان الآلة حسب الشىء المصنوع، وهذا يعنى أن أوروبا أتقنت ما امتلكته من تكنيك وأضاعت الخلق(٣).



وفى سياق تحليله لهذه الظاهرة، يصور بدقة المحيط الذى يكتشفه الطالب الجزائرى عندما يذهب للدراسة فى أوروبا، فهو يقول: «نظراً لنفسية المحيط العائلى للعصر ما بعد الموحدى الذى كان يعيش فيه الطالب، فإن هذا الأخير ينتقل، مع تحوله لأوروبا من المقدس إلى المدنس دون أن يمر بالفكر السياسى، فهو يقفز من «العلم» الإسلامى إلى التعليم العصرى دون أن يتوقف عند مفهوم الثقافة، يذهب الطالب المسلم إلى أوروبا واضعاً على عينيه حجاباً يمنعه من أن يتأمل الحضارة، فلا يبصر منها إلا الجانب المجرد أو التافه حسب استعداداته الخاصة للجد وهو لا يبصر المرأة الكادحة بل يرى تلك التى تصبغ أظافرها وشعرها وتدخن السيجار فى المقاهى، وهو لا يرى الصانع والفنان عندما ينكب على عمله من أجل تجسيم فكرة، هو لا يلاحظ الطاقات الخلاقة التى تُبدع قيماً معنوية واجتماعية تجعل الإنسان المتحضر متفوقاً على الإنسان البدائى، فى حين أن الثقافة تبدأ عندما يتجاوز الجهد الفكرى هدف الحاجة الفردية..»

ولن تكون لدى الطالب (المبهور) فرصة للتفطن لمظهر الحضارة السخى الذى يغذى مشاعر الإنسان المتحضر، ويزود عبقريته بالاندفاع الخلاق، لأن الأفكار الكبرى تنبعث من القلب إنه إذ يأتى من عالم باع آثاره ومخطوطه إلى السائح الأمريكى لن يتنبه إلى ما فى الحياة الأوروبية من عبادة سليمة للشىء القديم الذى يربط الماضى بالحاضر، إنه لن يرى الطفل يتعلم مغزى احترام الحياة عندما يداعب قطة أو يزرع وردة، ولا الفلاح عندما يتوقف عند نهاية الخط الذى يحرثه فى الأرض، ليحكم

على عمله مندمجًا فى الأرض التى هى خلاصة كل حضارة..». وهو لن يستخلص العبرة من جنون بعض العظماء مثل Bernard Polissy الذى أحرق آخر ما لديه من أثاث وأرضية منزله الخشبية ليستخرج من ذلك «الميناء» أو «الطلاء الخزفى» وبصفة عامة إن الطالب المسلم لم يجرب أوروبا، اكتفى بقراءتها أى أنه تعلم بدل أن يفهم.

نتيجة لذلك يصور مالك بن نبى، فى محاضرة ألقاها بالعاصمة الجزائرية عام ١٩٦٤، ما يترتب على نظرة الطلاب المسلمين إلى ظاهرة الحضارة الأوروبية، فيسجل «أن الزى الأوروبى وكذلك البوق والطنبور والهاتف والسيارة» اقتحم شتى بلدان العالم الإسلامى بصورة مفاجئة منذ خمسين سنة، ولكن مشاكل التخلف ظلت راسخة القدم داخل هذه البلدان، فقد أردنا بدل الاضطلاع بتشييد الحضارة أن نقوم بتكديس منتجاتها، ولم يكن عمل النهضة الإسلامية طوال السنوات الأخيرة، يمثل تشييدًا ولكن تكديسًا للعتاد.

وإذا كان يعتبر أن عملية البناء الحقيقى فى العالم الإسلامى ابتدأت سنة ١٩٥٢ فى مصر وعام ١٩٥٤ بالجزائر، فإنه يلاحظ أن روح التكديس ماتزال مستمرة البقاء، وهى قد تتخذ مظهرًا يبعث على السخرية، مثل وجود «أربعة أجهزة تكييف هوائى فى مقصورة أحد رؤساء المصالح، أو خمسة أجهزة هاتفية على مكتبه»، وهو إذ يضرب المثل باليابان يسجل أن مشكلة التجهيز مرتبطة بقضية الإنسان وبالأفكار كما يلاحظ أن اليابان بنى ذاته على قاعدة حضارية، وليس على قاعدة منتجاتها. وهذا ما يفسر نجاح اليابان فى الوقت الذى لم يحقق فيه العالم الإسلامى نصرًا حاسمًا على التخلف لأن نشاطه طبق فى عالم الأشياء والمنتجات بدل أن يطبق ضمن النسق البشرى ونسق الأفكار، وبعبارة أخرى أن بلدان العالم الإسلامى، ظلت على امتداد قرن من الزمان تطرح سؤالاً: كيف نصنع منتجات الحضارة بدل أن تسأل: كيف نصنع الحضارة.



وفعلاً فإن خطوات التصنيع الثقيل فى الجزائر بدأت بمشاريع واتفاقات تبرم مع جهات أجنبية تنص على تسليمنا المعمل، «المفتاح فى اليد» أى جاهزًا للإنتاج، دون تمكيننا من التقنيات التى تسمح لنا بأن نتولى الإنتاج بعد أن نكون قد فهمنا كيفيات صنع الحضارة.

على أن فهم الحضارة الغربية لا يكفى بالنسبة للبلدان المتخلفة فى نظر مالك بن نبى، لأن أوروبا إذا كانت قد امتلكت التكنيك وطوعت العلم فقد أضاعت الخلق كما سجل ذلك فى أكثر من موضع فى كتابه «وجهة الإسلام».

فهو يولى أهمية كبيرة للإبداع إذ يعتبر أن الأمر بالنسبة للعالم الإسلامى لا يتعلق بالفصل بين القيم، ولكن بالجمع بين العلم والضمير، بين الخلق والتكنيك، وبين الفيزياء وما وراء الطبيعة من أجل إقامة عالم حسب قوانين السببية ومتطلبات الغاية.

وقد حاول مالك بن نبى أن يفسر جمود الفكر الإسلامى فى المغرب العربى رغم جواره للعالم المسيحى واحتكاكه به، بأن هذا الحوار قد تم فى النطاق الاستعمارى الذى أدى إلى تزييف مغزى الفكر المسيحى فى نظر المسلمين: فالإسلام فى المجال المتوسطى لم يستفد من الفكر المسيحى، كما أن الفكر المسيحى لم يجبر إنسان ما بعد العهد الموحدى على تغيير نفسه.

على هذا الأساس يبدو الإسلام فى مجال البحر الأبيض المتوسط، وراثيًا من خلال الباشا وسيده السلطان العثمانى، كما يبدو قبليًا بدويًا على مستوى الأمير العربى، البربرى، ويبدو دوغماتيا منغلقًا تحت سلطة شيخ الزاوية، وهذا ما يدفع مالك بن نبى إلى أن يتوجه إلى المجال الآسيوى للإسلام، فى جاكرتا وباكستان والهند واليابان.

وتجدر الإشارة إلى أن العمود الفقرى فى تفكير ابن نبى هو الآية الكريمة ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

ويستخلص ابن نبى فى كتاباته بدءًا بـ «شروط النهضة الجزائرية»، إلى المحاضرات التى ألقاها بعد الاستقلال، أن خلاص العالم الإسلامى يتمثل فى تطويع تكنيك الغرب لروح الإسلام، وقد ساعد مالك بن نبى على التوجه إلى المجال الآسيوى ظهور كتابات وأفكار تتنبأ بأفول حضارة الغرب، مثل الفيلسوف شبينغلر الألمانى، والشاعر بول فاليرى الفرنسى، والأديب والقصصى رومان رولان، زيادة عن كتابات محمد إقبال ورابندرانات طاغور.

وقد بدأ مالك بن نبى ينشر أفكاره تلك فى أعقاب الحرب العالمية الثانية من خلال كتبه، وقد فكر فى تأسيس مجلة فكرية تتولى تعميم دعوته، يتولى تحريرها مع ابن ساعى مفكر جزائرى غير معروف، ترجم الفلسفة الألمانية وعاشر سارتر.

وهو فى جميع كتاباته سواء منها التى ظهرت فى الأربعينيات أو فى الستينيات أو فى السبعينيات، يولى أهمية خاصة للثقافة، لذلك كان دائم الإلحاح على أن الحضارة هى التى تصنع منتجاتها، وليست المنتجات هى التى تصنع الحضارة.

عدم فهم هذه الحقيقة هو الذى جعل بلداننا تتوقف عن أن تكون «سائرة فى طريق النمو» كما كان يطلق عليها فى عنفوان حركات التحرر وبدايات الانعتاق، فى مرحلة أولى، لتنطبق عليها، فى مرحلة لاحقة، صفة «البلدان السائرة فى طريق التخلف، أو نحو مزيد من التخلف».

بدل أن تعالج البلدان المستقلة حديثًا معادلة التقدم والتخلف بطريق «معادلة جبرية» (نسبة لعلم الجبر)، عالجتها بطريقة حسابية، الأولى تسمح بصياغة حل أو مشروع جملى قابل للتطبيق على مستوى المجتمع كله، والثانية تعالج كل حالة على حدة، وتكدس منتجات الحضارة دون أن تتمثل العوامل التى أبدعتها.

يترتب على ذلك غفلة الحكام فى البلدان الإسلامية عن حقيقة جوهرية، وهى أن العناصر الثلاث للحضارة، وهى الإنسان والتراب والزمن، «لا تمارس مفعولها ضمن حالات شتيتة، أى ضمن مخطط اقتصادى يجعل مسيرة التنمية مرتبطة بمعالجة كل حالة على حدة، لأن اكتساب الحضارة يستلزم تفعيل هذه العناصر الثلاثة ضمن تركيب متآلف.





يذهب الطالب المسلم إلى أوروبا واضعًا على عينيه حجابًا يمنعه من أن يتأمل الحضارة، فلا يبصر منها إلا الجانب المجرد أو التافه حسب استعداداته الخاصة للجد وهو لا يبصر المرأة الكادحة بل يرى تلك التى تصبغ أظافرها وشعرها وتدخن السيجار فى المقاهى





على أساس هذه القاعدة يرى مالك بن نبى أن جميع ألوان المخترعات التى تمثل مظاهر حضارة، لا يمكن تصورها إلا «ضمن الشروط العامة لحضارة معينة، وليس ضمن أبعاد عبقرية إنسان مفرد، ولا حتى ضمن بضع مئات من العباقرة «لأن أمثال، جاليليو وليونار دى فنشى، ومايكل أنجلو، ودانتى، ليسوا هم الذين صنعوا النهضة، ولكن شروط النهضة، إذ توفرت هى التى صنعتهم».

قابلية الاستعمار:

كان فكر بن نبى مرشحًا لأن يؤدى دورًا معتبرًا فى الجزائر بعد الاستقلال، لكن نظريته حول «قابلية الاستعمار» لم تفهم كما يجب، فالاتجاه الذى ظل سائدًا، منذ حروب الاحتلال، هو تحميل كل المسئولية للاستعمار، فى حين أن نظرية قابلية الاستعمار التى ينادى بها بن نبى، تمثل رؤية تاريخية تنطلق من تحليل دقيق لدورات التاريخ، وحركات المد والجزر فيه، عندما تتوقف حركة المد، أو مجهود الإبداع، عند شعب ما، لسبب أو لآخر، يصبح قابلاً للاستعمار لأنه إذ يتوقف عن التقدم ويخلد إلى الجمود، يتسبب فى وجود فراغ بفعل انعدام الإبداع وحركة الإبداع، والإنسانية مثل الطبيعة لا تتحمل الفراغ ولعل أحد القلائل الذين فهموا فكرة بن نبى هو الحبيب بورقيبة الذى لا يحمل كل المسئولية للاستعمار، وهو بذلك ينقص من قيمة انتصار الاستعمار، وليس من المبالغة القول إن سياسة المراحل التى كان يعمل بها بورقيبة هى الترجمة العملية للمذهب البورقيبى الذى يأخذ بنظرية قابلية الاستعمار، التى يتطلب التخلص منها تدرجًا فى الوعى وتدرجًا فى المسئولية.

إن نظرية قابلية الاستعمار إذ تسجل مسئولية البلد المتخلف فى العصر «ما بعد الموحدى» حسب مصطلح بن نبى من شأنها

أن تدفعه نحو اكتساب التقنيات التى مكنت البلد الأجنبى من استعمارنا، بذلك يكون البلد المستعمر (بفتح الميم) يتحمل مسئوليته للخروج من التخلف، كما يتحمل قسطًا من المسئولية عندما جلب على نفسه الاستعمار بفعل الفراغ الحضارى.

بهذه النظرية تنحل العقدة من الاستعمار المتولدة عن اعتباره شرًا كله لا خير فيه.

إلا أن فكرة مالك بن نبى هذه لم تفهم فى الجزائر، وبذلك أدت إلى تحجيم فكره وتهميش عطائه، فقد فهمت على أنها تبرير للاستعمار. ولا شك أن الفكر الماركسى. الذى كان موضة شائعة فى الستينيات. قد أدى دورًا أساسيًا فى محاربة فكر بن نبى، وتنفير جيل ما بعد الاستقلال منه، كما أنه لا شك فى أن الصراع الذى كان قائمًا على أشده بين المعسكر الرأسمالى الغربى والمعسكر الاشتراكى الشيوعى غذى الاتجاه نحو تهميش مؤلف «وجهة الإسلام» و«الظاهرة القرآنية»، إذ أن المعسكر الاشتراكى يستفيد من تجريم الغرب الاستعمارى وتحميله مسئولية كل المصائب التى أخذت بمخانق البلدان التى استعمرت.

يضاف لذلك أن طبيعة الظروف التى حفت باستقلال الجزائر ساعدت على خلط الأوراق وعززت دعاة تهميش فكر مالك بن نبى، كما همشت كل مجهود فكرى يبذل من أجل مواجهة التحديات الكبرى التى طرأت بعد وقف إطلاق النار، وتحديد المهام العاجلة المطلوب النهوض بها حتى تتجنب الجزائر انتكاسة خطيرة.



لقد انتهت جبهة التحرير التى فجرت الكفاح المسلح وقادته خلال سنوات صعبة فى بدايات المعركة، كتنظيم سياسى منذ أن اندمجت فى الحكومة المؤقتة التى أعلنت فى سبتمبر ١٩٥٨.

وإذا كانت الحكومة المؤقتة قد أصبحت عمليًا هى القيادة العليا لجبهة التحرير منذ ذلك التاريخ، فإن الصراع بين رجالاتها، بالإضافة إلى الظروف التى تسبب فيها إنشاء الخطوط المكهربة على الحدود الشرقية والغربية جعل سيطرة الحكومة المؤقتة تتلاشى تدريجيًا على القيادات المحلية داخل ولايات الكفاح فى الداخل، وما لبثت نفس الظروف مضافة إلى ملابسات أخرى أن أبرزت قيادة أركان جيش التحرير التى كان يرأسها هوارى بومدين كقوة صاعدة سرعان ما احتلت الميدان السياسى، وحسمت الصراع فى ١٩٦٢ على حساب الحكومة المؤقتة. انطلاقًا من ذلك حدث «نزاع لا عقلانى بين المؤسسات النظرية ووقائع الحقيقة لجزائر وجدت نفسها محرومة من سلطة سياسية تشمل الجميع»، حسب تعبير الأستاذ مصطفى



بلدان العالم الإسلامى، ظلت على امتداد قرن من الزمان تطرح سؤالا: كيف نصنع منتجات الحضارة؟ بدل أن تسأل: كيف نصنع الحضارة؟



الأشرف لأن «الحكومة المؤقتة التى عجزت عن حل مشاكلها الخطيرة فى الخارج، تصورت أن الفرحة الغامرة التى تهز الجماهير مع الإعلان الرسمى للاستقلال سوف تجعل تلك المشاكل التى استعصت على الحل شهورًا وسنوات، تنحل بقدرة قادر».

ويقدم مالك بن نبى تصويرًا لهذا الوضع بما يجعل تحليله يلتقى فى عدد من النقاط مع تحليل الأستاذ الأشرف.

فمالك بن نبى فى تحليله لقصور الحكومة المؤقتة عن صياغة أيديولوجية فى مستوى الكفاح الذى خاضه الشعب، يشرح رأيه فى هذا السياق مؤكدًا أن المسيرين الجزائريين لم يكونوا، خلال حرب التحرير، فى مستوى الأيديولوجية التى بلورها الشعب بنفسه، فالشعب الجزائرى إذ اعتمد فى كفاحه على قيمه الأخلاقية، أسبغ على نضاله طابعًا مقدسًا، لكن هذا التقديس أخذ يتدهور تدريجيًا بفعل ممارسات المسئولين عن قيادة الكفاح المسلح وخاصة عندما استناموا لرخو الحياة فى الخارج، فحال ذلك دون أن يتفطنوا للنتائج المدمرة التى تترتب على ذلك الانحطاط الذى ساد الجو الأخلاقى، لذا يقول مالك بن نبى فى سياق تقرير هذه الفكرة: «إن مسيرينا الذين لم يفكروا بالمعنى الدقيق للكلمة فى أى مشكلة من مشاكل الثورة، لا يمكنهم من باب أولى أن يفكروا فى المشاكل العامة التى كانت متوقعة فى الجزائر عقب الثورة، وبالتالى فهم أبعد ما يكونون عن الانشغال بوضع مشكلة «مفهومية» ما بعد الثورة.

ثم يلاحظ أن انقشاع الغشاوة التى كانت تحجب عن عيون الشعب، المشاكل التى كانت موجودة خلال حرب التحرير، من شأنه أن يدفع الناس إلى تسمية الأشياء والناس بأسمائهم «يجب أن يسمى القط قطًا، بحيث لا يجوز أن يوجد «مثقفون زايفون»، وأبطال مصطنعون ومشاكل مفتعلة، إذ يجب البدء أولاً بتصفية مشاكل الاستقلال الطوباوى أى الخيالى الذى تركت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية سطوته تنمو وتتفوق على بعض الأذهان فى بلادنا، حتى لقد أصبحنا نلاحظ فى أيامنا هذه وجود علائم قائمة قلبًا وقالبًا للتخاذل والتراخى فى بلادنا كما لو كان يتعين على الاستقلال أن يحل جميع مشاكلنا العمومية والخصوصية بطريقة آلية، بينما يجب علينا أن نفهم أن قطاعنا العمومى بالخصوص لايزال يحيا على ما تركه لنا المستعمر بعد رحيله، وعندما يستنفد هذا الرأسمال، فما عسانا نصنع إذا كانت الضرائب لا تدخل الخزينة وإذا أهمل الموظف أو المستخدم واجبه[٤]؟

ونستطيع أن نتصور مدى خيبة الآمال التى كان بن نبى يعلقها على الثورة الجزائرية التى يعتبرها بداية البناء الحقيقى فى العالم الإسلامى، لم تسبقها فى ذلك ثورة إلا ثورة ٢٣ يوليو، وبقدر ما كانت خيبة أمله فى ثورة الجزائر كبيرة، بقدر ما كان قاسيًا فى الحكم على رجالها.

فهو يحمل قادة الثورة المسلحة مسئولية عودة «الروح الفردية» من جديد ابتداء من وقف إطلاق النار، بعد أن خاض الشعب معركته بروح تضامنية وإيثار لم يسبق أن عرفته البلاد.

فهو يسجل ظهور سباق مسعور على الاستيلاء على الأملاك، والانقضاض على الوظائف التى تدر دخلاً دونما كبير عمل، لأن «أعضاء ا لحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية هم الذين أعطوا «المثل» وكانوا «القدوة» التى احتذاها الناس فى «هذا السباق المنهك المتلاف».

بل إنه يتهمهم بأنهم تجاهلوا ميثاق طرابلس الذى صادقوا عليه بعد وقف إطلاق النار، وراحوا يرتبون شئونهم الشخصية، ويركضون إلى قرية «بومرداس» للاستيلاء على ما يقدرون عليه من «سلطة دولة لم يكن مولدها سوى مجرد احتمال» أو هى ماتزال فى المهد لما تخرج بعد من قماطها، «دون أى اكتراث، بما قد يؤدى إليه هذا السلوك من خنق «الوليد الغض فى مهده» بعض الذين كانوا يرتدون لباس المحررين، انتشروا عندما شموا رائحة الوليمة أو الزردة فغادروا مراكز المقاومة فى الأدغال والجبال ليغتصبوا مثل «الذاب» ما يقدرون عليه.

إن أولئك «المحررين» الذين هبوا للاستيلاء على النفوذ لم تكن تشغل رؤوسهم سوى فكرة واحدة وهى «احتلال الجزائر من جديد» بقدر ما تنسحب القوات الفرنسية، «وذلك حتى لا تتاح للشعب الجزائرى أية إمكانية لمحاسبتهم على تسييرهم للبلاد»، عندما كانوا فى القاهرة أو فى تونس، لم تكن تشغلهم مشكلة الثورة «لتثار فى حدود التحرير ولكن فى حدود احتلال جديد».



بل إن جيش التحرير الوطنى نفسه، قد «انتابه هذا العمل المفكك من طرف الحكومة المؤقتة التى كان كل عضو فيها يريد أن يضمن لنفسه ثلة من هذا الجيش لاستخدامها فى اجتياح إقطاعية خاصة».

ولا شك أن الظواهر التى يصورها مالك بن نبى، ترجع أيضًا إلى انعدام الثقافة السياسية، إن لم نقل إنها ترجع إلى انعدام الثقافة، فالتعلم لا يعنى الثقافة والمدرسة وحدها لا تكفى لتزويد المتعلم بالثقافة العامة حتى لو كان متخرجًا من أرقى المعاهد المتخصصة.

والخلاصة أن المرور، ولو بسرعة، على كتابات مالك بن نبى يكشف عن وجود خيط ناظم ومنطق متماسك للخروج من التخلف، بحيث يشكل مجموعها مذهبًا كاملاً، وتجديدًا معتبرًا، وهى تقدم

فى الوقت نفسه منهجاً نقدياً يسمح بتقييم الماضى والحاضر والكشف عن عيوبهما، فهو مثلاً فى معالجته للتخلف وكيفية الخروج منه، لا يولى أهمية استثنائية للتصنيع ثقيلاً كان أو خفيفاً، ولا لرأس المال الأجنبى، لأن الاقتصاد فى نظره ليس فقط علماً، ولكنه على الخصوص وعى وسلوك واستعداد ذهنى، أى هو ثقافة، إذ أن الاقتصاد ليس خارجياً عن الإنسان بل هو جزء من مكوناته.

وهو عندما يتحدث عن العالم الإسلامى، ومكانته فى الاقتصاد العالمى، يلح على أن العالم الإسلامى لا يشكل كتلة اجتماعية منعزلة قادرة على أن تحقق نموها فى عالم منغلق، إن العالم الإسلامى يمثل عاملاً من عوامل المأساة الإنسانية، وشاهداً عليها فى نفس الوقت.

هذه الصفة المزدوجة تفرض عليه أن يكيف وجوده المادى والروحى مع مصائر الإنسانية كلها، ولكى يندمج العالم الإسلامى حقيقة بصورة فعالة فى التطور العالمى يجب عليه أن يعرف العالم، ويعرف العالم به، وأن يسعى لتقدير قيمه الخاصة، وجميع القيم التى يتشكل منها الميراث الإنسانى»، وهو فى كتابه «المسلم فى عالم الاقتصاد» يحذر بلدان العالم الثالث من الاعتماد على الاستثمارات المالية الأجنبية لتحقيق انطلاقها الاقتصادى، لأن ذلك يؤدى حتماً إلى تبعيتهم للأجنبى، ومن ثم يتعين عليها أن تعتمد على «الاستثمار الاجتماعى» حسب تعبيره أى أن مالك بن نبى يولى أهمية كبرى لحل المشاكل الاجتماعية داخلياً، إذ هو يحذر من الحلول التى تصوغها «نخبة لا تشعر بنبض شعبها، كما يدعو إلى اندماج اقتصاد البلدان الإسلامية فى الاقتصاد العالمى، وكأنه عرف أن الاتجاه العام يسير نحو العولمة.



وهو إذ يقدم الوصفة اللازمة للاستثمار الاجتماعى، يلح على ضرورة إعطاء الأولوية، فى مرحلة أولى، للواجبات على الحقوق، وذلك لن يتحقق دون تعبئة حقيقية، تتم لأداء مهمتها فى مرحلة معينة تحفز الشعب كله وتجنده من أجل قهر التخلف، باعتباره واجباً أقصى، ويترتب على ذلك التكفل بجميع احتياجات كل الفئات التى يتشكل منها المجتمع.

ومهما يكن من شىء فإن العطاء الفكرى الذى قدمه مالك بن نبى، عطاء ضخم، ثرى ومتنوع، وهو عطاء مازال يحتاج إلى تعريف، ومازال يصلح لمعالجة أهم مشاكلنا الخانقة وهى تلك التى تتصل بالثقافة.

لذلك نأسف لكون الإرث الفكرى الذى خلفه مالك بن نبى مازال مجهولاً، إن لم نقل إنه أهمل عمداً.

إن الميزة التى يختص بها هذا الرجل هى أنه وضع أصبعه على الثقافة بوصفها المدخل الأساسى لصنع الحضارة.



بقيت ملاحظة أخيرة جديرة بالتسجيل فى الخاتمة، وهى اهتمام مالك بن نبى ببناء الدولة وهو إذ أهدى كتابه «آفاق جزائرية» إلى الأمير عبد القادر، فإنه يكون قد شعر بضرورة ذلك ويبدو أن مالك بن نبى قد شعر فى السنوات الأخيرة من عمره، أنه تعرض للتهميش فعلاً، من النظام الجزائرى ومن قوى سياسة يسارية بالإضافة إلى عدد معتبر من المثقفين، ولعل هذا ما يفسر المرارة التى لاحظها عليه بعضهم، وقد ضاعف من مرارته تلك ما شاهده فى الأردن وبيروت من محن يتعرض لها الشعب الفلسطينى، فسجل تشاؤمه ويأسه من العالم العربى والإسلامى عندما كتب: «لم يسترجع العالم الإسلامى وعيه بعد، إنه يهرول انطلاقاً من كارثة من أجل الإعداد لكارثة أخرى قادمة».

بقيت ملاحظة أخرى، أخيرة، جديرة بالتسجيل، وهى هاجس بناء الدولة الذى كان يلح عليه، فهو لم يكتف بنقد تصرفات المسئولين الجزائريين، وهرولتهم لاقتسام مغانم دولة لم تقم بعد، بل إن إهداءه كتاب «آفاق جزائرية» إلى الأمير عبد القادر، تأكيد على أن بناء دولة حديثة أحد الشروط الأساسية للخروج من النفق، وعلى أن عدم التنكر للماضى شرط هو الآخر لتحقيق التراكم الذى لن تتحقق بدونه الحضارة ولن يحدث فى حالة جحوده أى تقدم.

«إلى البطل الأسطورى للملحمة الوطنية، الذى يجسد بشخصه، فى فترة فاجعة من تاريخنا، مصير وطن وثقافة، وحضارة».

فالأمير عبد القادر هو أول من فكر فى إقامة دولة على أسس عصرية، مستلهماً فى ذلك تجربة محمد على من جهة، وتجربة الثورة الفرنسية من جهة أخرى. ■

الهــوامش:

(١) دار النهضة، أسسها عبد القادر ميمونى غداة الحرب العالمية الثانية، قامت بدور معتبر فى التعريف بكتابات مالك بن نبى ومحمد الشريف الساحلى، كما أمنت للقارئ الجزائرى أهم إصدارات دور النشر فى باريس وبيروت والقاهرة.

(٢) مالك بن نبى: Vocation De L'Islam Le...... Paris, P٦٠

(٣) مالك بن نبى: آفاق جزائرية، مكتبة النهضة، طبعة ١٩٩١، ص ٦٢.

(٤) مالك بن نبى: Le Musulman Dans Le Monde De L'Economic منشورات البرهان، الجزائر، ١٩٩٦، ص ١١.



الأذكيـــاء

ســــلوك ذكـــى

رُوى عن العباس بن عبد المطلب أنه سُئل: أيما أكبر أنت أم رسول الله ﷺ؟ قال: رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدتُ قبله.

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال لبعض أهل المدينة: أنا أسن منك أم أنت؟ فقال له: لا أذكر ليلة زفت أمك المباركة على أبيك الطيب، وهذا الاحتراز مليح لأنه لم يقل أمك الطيبة.

وحكى لى محمد الضبى أنه حفّظ ابن المعتز وهو يؤدبه سورة (النازعات) وقال له: إذا سألك أمير المؤمنين أبوك فى أى شىء أنت؟ فقل له: فى السورة التى تلى «عبس» ولا تقل: أنا فى (النازعات). قال: فسأله أبوه. فى أى شىء أنت؟ قال: فى السورة التى تلى عبس. فقال: من علمك هذا؟ قال: مؤدبى. فأمر له بعشرة آلاف درهم.

وحدثنا عبد الواحد بن نصر المخزومى قال: أخبرنى من أثق به أنه خرج فى طريق الشام مسافراً يمشى وعليه مرقعة، وهو فى جماعة نحو الثلاثين رجلاً كلهم على هذه الصفة، فصحبنا فى بعض الطريق رجل شيخ حسن الهيئة ومعه حمار فاره يركبه، فخرج علينا نحو ثلاثين فارساً، فتفرقنا عليهم، فقال الشيخ: لا تفعلوا، فتركناهم، ونزل، فجلس وبين يديه سفرته، ففرشها وجلس يأكل، وأظلتنا الخيل، فلما رأوا الطعام دعاهم إليه، فجلسوا يأكلون، ثم حل رحلَهُ، وأخرج منه حلوى كثيرة، وتركها بين يدى الأعراب، فلما أكلوا وشبعوا جمدت أيديهم، وخدرت أرجلهم ولم يتحركوا، فقال لنا، إن الحُلوَ فيه بنج أعددته لمثل هذا، وقد تمكن منهم، وتمت الحيلة.





عندما كانت أسبانيا

الطاهر أحمد مكى

في الستينيات سئل أندريه مالرو الكاتب والمفكر والمناضل الفرنسي، ووزير الثقافة في حكومة الجنرال ديجول:
ماذا تسمى هذا العصر؟
أجاب: عصر الكذب!
. وكيف يمكن القضاء على الفساد والتلوث الذى يجتاح العالم؟
ردّ: بالعودة إلى الحضارة الإنسانية، وإيقاظ روح المقاومة فى الفرد، وإجلال فضيلة الشرف، وطرد التأثير الأمريكى من أوروبا والعالم!

ما كان تأثيراً أمريكيًا فى الستينيات تحول بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إلى وحش مفترس كاسر، رفع راية الحروب الصليبية من جديد، وبدأ يحشد وراءه أنصاره وجنوده، يلاحق كل ما هو عربى ومسلم تحت شعارات: محاربة الإرهاب ونشر الديمقراطية، ومعها تحول إلى هولاكو جديد!

كان يمكن ألا يجد من يدفعه، وقد أصبح القوة الأعظم والأوحد فى العالم، ولكن المعانى الكريمة التى دعا إليها مالرو بدأت تستيقظ فى فرنسا خاصة، واستجابت لها بعض الدول الأوروبية الأخرى على استحياء، واحتضنت باريس الدعوة، وجعلت من هذا العام مهرجانًا تدور فيه المحاضرات والندوات حول موضوع: «عندما كانت العربية لغة العلم، من القرن العاشر الميلادى إلى القرن الثالث عشر». وفى هذا رد حضارى هادئ على العنصرية الأمريكية المتشنجة.




فى المجال الأكاديمى يتفق الباحثون الأوروبيون ممن يحترمون موضوعية العلم، ومنهجية البحث، ويرتفعون بدراساتهم فوق مستوى العصبية أياً كان شكلها، على أن الحضارة العربية فى أوج ازدهارها، على امتداد القرن العاشر الميلادى، كانت وراء النهضة الأوروبية، ثم يختلفون حول الطريق الذى سلكته إلى بلادهم.

فالعالم الألمانى هانز بروتس يرى أن الحروب الصليبية كانت العامل الوحيد وراء نمو أوروبا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، ومنها انبثقت كل العوامل التى أدت إلى تكوين أوروبا الحديثة، أوروبا عصر النهضة والإصلاح الدينى، ثم يشير أيضاً إلى أن أسبانيا وصقلية كان لهما دور مهم فى نقل التراث العربى إلى أوروبا، ولكنه سرعان ما ينسى رأيه هذا، ويجعل من فلسطين المصدر الوحيد.

❝ ربما كانت هذه هى المحطة الثالثة «الفارقة» فى تاريخ ما بين الإسلام والغرب؛ ثقافة وحضارة وسياسة.. وحرب.

نذكر.. أو يذكر التاريخ، قبل ألف عام كاملة كيف تواجه الطرفان فى حرب دينية ضروس، لم ينهها غير حكمة، وعدل.. وقوة صلاح الدين.

ويذكر التاريخ أيضًا كيف تلاقحت قبلها حضارة الطرفين فى «الأندلس».

اليوم، يتباكى الكثيرون.. أو على الأقل يحنون ويحلمون بتلك الأيام البعيدة. ناسين، أو متغافلين أن لكل حالة - من قوة أو ضعف - اشتراطاتها. كما أن للتفاعل مع الآخر «قوانينه».

فلا الزمان.. هو الزمان. ولا صدام حسين - كما زعم أو حلم البعض - هو صلاح الدين. ❞

المحرر





من هذه الأرض «الأندلس» تعلم الأوروبيون جانبا كبيرا من الحضارة الراقية سواء كان ذلك إبداعا أندلسيا أصيلا أو عربيا مشرقيا وافدا



سبع سنوات فحسب كانت كافية لكى يحتل المسلمون كل شبه جزيرة إيبيريا (أسبانيا والبرتغال) وجنوب فرنسا، حيث توقف زحفهم فى أوائل ربيع عام ٧٣٢م قريباً من بواتييه بعد موقعة «بلاط الشهداء»



ولكن إرنست بيكر محرر مادة الحروب الصليبية فى كتاب «تراث الإسلام» الذى أصدرته جامعة أكسفورد فى الثلاثينيات من القرن الماضى يرى أن هذا الزعم باطل، لأن حركة المولّدين والمستعربين فى أسبانيا وصقلية كانت أكثر نفاذاً وأوسع محيطًا، وأبعد غوراً، ولو أن ذلك جاء متأخراً بعد أن حدث الاتصال بسبب الحروب الصليبية فعلاً، على نحو أو آخر. ويرى: «أن اللاتينيين فى سورية لم يستطيعوا أبداً أن ينفذوا إلى وهج الثقافة الإسلامية على نحو ما فعل المسيحيون فى غربى البحر الأبيض المتوسط أيام تألق حضارة قرطبة وكل أسبانيا الإسلامية».

وبعيداً عن هذا الصراع، وهو قومى سياسى فى أبعاده، يضع فى حسبانه الاعتراف بدور أسبانيا، إسلامية أو مسيحية، فى نهضة أوروبا أو إنكاره، يمكن القول إن الحروب الصليبية لعبت دوراً حاسمًا فى الجانب الدينى، فهبطت بهيبة البابوات الدينية، وهزت نفوذ طبقة الرهبان، وغذت الشك، ودفعت بطبقات كثيرة إلى التمرد على سلطان الكنيسة، ولم تكن تجرؤ على هذا من قبل.

وفى الجانب الاقتصادى جاءت معها بمساواة أكبر بين الطبقات على نحو لم تعرفه أوروبا من قبل، وأوجدت طبقة من الفلاحين الأحرار ومن الحرفيين، وازدهرت الصناعة، ونمت التجارة، وانتشرت النباتات والحاصلات العربية، وشاع استعمال العقاقير المشرقية والتوابل، وعرف الغربيون استخدام السكر فى الحلوى، وكانوا من قبل يستخدمون العسل، وأدخل الصليبيون العائدون إلى بلادهم عادة فرش البسط والسجاجيد على الأرض، واستخدام الفراش، واقتناء المجوهرات وأدوات الزينة والمساحيق، وأشياء أخرى كثيرة.

وفى مجال السياسة أدت الحروب الصليبية إلى قيام دول أوروبية ذات سلطة مركزية وإدارة منظمة وقضاء مستقل، وكان ذلك أمراً جديداً على أوروبا فى العصور الوسطى لا عهد لها به من قبل.

لكن الأندلس، أو أسبانيا الإسلامية إذا شئت، ذهبت بالنصيب الأوفر، فى تأكيد كل ما سبق فى عيون الأوروبيين وخصت وحدها تقريباً بكل ما يتصل بالأدب والثقافة والعلم، لأن انتشارها - إذ ذاك - يعتمد فى المقام الأول على الرواية الشفوية وعلى الدرس، ينهض به الشاعر الجوال، وتحمله الأغانى فى رحلتها من الجنوب إلى الشمال، أو أهل الشمال حين يتدفقون على الجانب العربى فى

تتكلم العربية وتدين بالإسلام

الجنوب طلاب علم، وهى أمور لكى تعطى ثمارها تتطلب القرب والتواصل والتعايش والتعاطف، وسهولة وسائل الانتقال وأمنها وتوفرها، وامتداد التلاقى واستمراره بين قطاعات عريضة فى المجتمعين. ومن هنا يمكن القول إن العناصر الثقافية التى تكونت منها الحياة العقلية الأوروبية فى مجالات الفكر والفلسفة والعلم والشعر والقصة فى القرن الحادى عشر الميلادى وما تلاه، وحتى فى الأدب الحديث، تعود فى جانب كبير منها إلى الحضارة الراقية التى توهجت عند جيرانهم الأسبان المسلمين، من هذه الأرض جاءتهم، وعلى أيدى أبنائها تعلموا، سواء كانت إبداعًا أندلسيًا أصيلاً، أو عربيًا مشرقيًا وافدًا.



ماذا وجد المسلمون على الأرض التى فتحوها؟ لنبدأ القصة من أولها.

فى مطلع القرن الخامس الميلادى عبرت مجموعة من القوط تبلغ ثلاثمائة ألف مقاتل جبال البرانس إلى أسبانيا، حطت على المقاطعات الأكثر غنى وازدحامًا واستولت عليها، ولأن تمثلهم للحضارة الرومانية كان واهنًا ظلوا بمنأى عن بقية السكان، حرموا على أنفسهم الزواج منهم، واحتفظوا بعقيدتهم «الإريانية» على حين يتخذ الأسبان الكاثوليكية دينًا، كما عمق النفور بين الفريقين، حتى إذا اعتنق الملك القوطى ريكاردو الكاثوليكية عام ٥٨٩م تغير الموقف شيئًا: بدأ رجال الدين يمارسون تأثيرًا واضحًا فى توجيه الدولة سياسيًا ودينيًا، كما بدأ القوط يكتسبون بعض العادات الرومانية التى كانت سائدة فى أسبانيا دون أن يفقدوا صلابتهم التى اتصفوا بها، شعبًا عسكريًا، وأمة محاربة، حريصين على امتيازاتهم حكامًا ونقائهم عنصرًا، أوفياء لرذائلهم وصلفهم، يحبون اللهو، ويعشقون النبيذ، ويتسمون بالعنف والقسوة، لم يتطرق إليهم الفساد الذى أتى على الإمبراطورية الرومانية، واحتفظوا بروحهم العسكرية حتى نهاية حكمهم، وهى صفات لا تكفى وحدها لخلق مجتمع متماسك، وبناء دولة قوية، ذلك أن الثورات والحروب بين النبلاء بعضهم البعض، وبينهم وبين الشعب أضعفتهم، فانهارت دولتهم كقلعة من ورق أمام الفتح الإسلامى.

لا نعرف شيئًا من ثقافة القوط، وربما لم تكن لهم ثقافة أصلاً، فنحن نجهل الكتابة التى كانت مستخدمة بينهم، ولم يصلنا نص مكتوب فى لغتهم القوطية. يتصل بأدبهم أو لغتهم أو ثقافتهم أو عقيدتهم قبل أن يعتنقوا الكاثوليكية، ويظن أن الملك القوطى الذى اعتنقها أمر بحرق الكتب المتصلة بها تقربًا إلى الكنيسة ورجالها، وربما فعل ذلك بضغط منهم، ولا تذكر لنا المصادر مؤرخًا أو مفكرًا أو أديبًا أو إنسانًا على حظ من ثقافة يعود إلى هذا العصر، باستثناء رجل دين واحد من القرن السادس الميلادى: سان إيسيدورو أسقف إشبيلية، فقد ترك موسوعة تتضمن شيئًا من المعارف التى كانت شائعة فى عصره، وسجل فيها بعض العادات والتقاليد التى كانت سائدة حينذاك.

سبع سنوات فحسب كانت كافية لكى يحتل المسلمون كل شبه جزيرة إيبيريا (أسبانيا والبرتغال) وجنوب فرنسا، حيث توقف زحفهم فى أوائل ربيع عام ٧٣٢م قريبًا من پواتييه بعد موقعة «بلاط الشهداء»، حيث التقى عبد الرحمن الغافقى مع شارل مارتل، وثبت هذا بجيشه فى مواجهة المسلمين الذين انسحبوا بعد أن استشهد قائدهم. وتعطى المصادر الأوروبية هذه المعركة أهمية كبرى، وتراها إحدى معارك التاريخ الحاسمة. ذكر جيبون فى كتابه الأشهر «سقوط الإمبراطورية الرومانية». وتبعه آخرون من الأوروبيين: «لو انتصر المسلمون فى ذلك اليوم لكنت ترى المساجد فى باريس ولندن مكان الكاتدرائيات القائمة الآن، ولكنت تسمع القرآن وتفسيره. ومنهم من رأى أن انتصار شارل مارتل وهزيمة المسلمين أخر قيام عصر النهضة فى أوروبا خمسة قرون.



كان عبد الرحمن الغافقى يأمل. قبل استشهاده. أن يتجه شرقًا ليلتقى مع جيش الخلافة القادم من دمشق على أبواب القسطنطينية، وهو حلم ذهب به استشهاده من جانب، وانهيار دولة بنى أمية فى المشرق من جانب آخر، ومعه انتقل مركز الثقل السياسى فى الإسلام من دمشق إلى بغداد. ومع ذلك لم يتوقف نشاط المسلمين فى جنوب فرنسا بعد معركة پواتييه، فاحتلوا مدينة أفينيون عام ٧٣٤م، وبعدها بتسع سنوات اقتحموا مدينة ليون، وظلت مدينة أربونة قاعدة لجيوشهم حتى عام ٧٥٩م.

كانت أسبانيا حين هبطها المسلمون تدين فى مجملها بالكاثوليكية، مع طوائف وثنية فى أطراف منها، ويتكلم أهلها لهجات عامية من اللاتينية سوف تأخذ اسم «الرومانثية» (الرومانية فى غير الأسبانية)، وهى لهجات غير مكتوبة، تختلف دلالة وأصواتًا من مقاطعة إلى أخرى. وبقيت اللاتينية فى أحط مستوياتها لغة يعرفها رجال الدين فحسب يؤدون بها الصلوات ويلقون المواعظ، ويدونون فيها متطلبات الحياة اليومية البسيطة.

وقد انتشر الإسلام فى سرعة لم تعهد من قبل فى أى قطر فتحه المسلمون، رغم أن الفاتحين لم يكرهوا أحدًا على تغيير دينه، وهى ظاهرة أذهلت المؤرخين الأوروبيين وردوها إلى أسباب سياسية واجتماعية ونفسية، منها أن الأسبانى العادى لم يكن متعمقًا فى مسيحيته، وأن ثمة فجوة هائلة وغائرة كانت تقوم بين الشعب وحكامه ورجال دينه، وأن أغلب السكان كانوا من رقيق الأرض، وإسلامهم يكسبهم الحرية فى الحال، ويصبحون كالآخرين على قدم المساواة، دون عوائق أو صعاب أو إجراءات.

ويرى علماء الاجتماع منهم أن الإسلام كان ذكيًا حين ترك الناس أحرارًا فيما يعتقدون، لأن هذه الحرية أماتت فى أعماقهم العناد وروح التحدى والمقاومة والحرص على معتقداتهم والتمسك بها وهو ما يحدث عندما يكرهون قسرًا على تغييرها. ويذكرون على ذلك شاهدًا أن قومس بن أنتيان كان نصرانيًا، وتولى ديوان الإنشاء للأمير عبد الرحمن الثانى، ٨٢٢ إلى ٨٥٢م، ويحدد ابن حيان المؤرخ مستواه فى العربية بأنه «كان قريع كل من ينتحل البلاغة فى عصره، ومع بلاغته وجودة رسائله بصيرًا بالحساب، عارفًا بمعانيه العويصة، مدققة فى الحسابات الصعبة» مسموع الكلمة عند الأمير، فتحدث إليه يومًا أن تكون إجازته الأسبوعية يوم الأحد بدل الجمعة له، وللعاملين معه من النصارى، فاستجاب له، وتقرر أن يكون يوم الأحد أجازة لكل العاملين فى ديوان الإنشاء، مهما كانت عقيدتهم، وكان ممن يعملون فيه عمر بن قومس، وابن أخيه عبد الله، وجاء رد الفعل بعد قليل أنه أسلم وأبناؤه وأقاربه، وحسن إسلامه وتصفه المصادر بأنه «السجاد العباد، حمامة مسجد قرطبة».

وكانت اللغة العربية تتبع الإسلام، ولكنها أبطأ منه حركة وأوسع انتشارًا، وقد أصبحت لغة كل سكان شبه الجزيرة، مسلمين ومسيحيين ويهودا، وأرسلت بكل اللغات واللهجات الأخرى التى كانت عليها إلى زوايا النسيان، حتى أننا لم نعد نعرف عن طبيعتها شيئًا، إلا قليلاً من المفردات احتفظت بها عامية أهل الأندلس. ولم يكتف النصارى بمعرفة اللغة العربية، وإنما تعمقوا فيها وأجادوها، ويذكر المستشرق الأسبانى خوان فرنيت أنهم كانوا يقرأون حماسة أبى تمام، وحماسة البحترى، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وكتب السير وقصص المغازى والحروب، والكتب الدينية الإسلامية، وفى كتاب الذخيرة لابن بسام أن السيد القنبيطور، وهو قائد نصرانى محارب من القرن الحادى عشر الميلادى «كان يجلس فيستمع إلى قصص العرب، ويعجب من بينها بسيرة المهلب بن أبى صفرة ويطرب لسماعها ويطرب».





أدار عامة النصارى ظهورهم للغة اللاتينية بكل مستوياتها، فاضطر رجال الدين إلى شرح الكتاب المقدس، وإلى التأليف باللغة العربية



لقد تعرب النصارى الذين آثروا الاحتفاظ بعقيدتهم الدينية لغة وعادات وثقافة وتقاليد، ولدينا وثيقة مهمة تحتفظ بها المصادر اللاتينية وتحدد أوج انتشار اللغة العربية، ففى عام ٨٥٤م شكا ألبارو أسقف قرطبة من ظاهرة انصراف النصارى عن اللاتينية أو الرومانثية وإقبالهم على العربية يقول: «من الذى يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين على دراسة الكتب المقدسة، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علمائها ممن كتبوا فى اللغة اللاتينية؟ من منهم يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرسل؟ إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبًا باللغة العربية، يبحثون عن كتبها ويقتنونها ويدرسونها فى شغف، ويعلقون عليها، ويتحدثون بها فى طلاقة، ويكتبون بها فى جمال وأناقة، ويقولون فيها الشعر فى رقة وبلاغة. يا للحزن! نصارى يجهلون لغتهم وقانونهم ولاتينيتهم، وينسون لغتهم نفسها، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلمًا عليه، وتستطيع أن تجد جمعًا لا يحصى يظهر تفوقه وتمكنه من اللغة العربية».

أدار عامة النصارى ظهورهم للغة اللاتينية بكل مستوياتها، فاضطر رجال الدين إلى شرح الكتاب المقدس، وإلى التأليف باللغة العربية، ووصلنا عدد من مخطوطات هذه الكتب، يوجد فى مكتبات الإسكوريال ومدريد والمتحف البريطانى. ولم يتخلوا عن العربية حتى حين رحلوا من الجانب الإسلامى إلى الجانب النصرانى فى الشمال، لأسباب اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، وظلوا يستخدمونها فى مدينة طليطلة عاصمتهم، فى وثائقهم، إلى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى، أى إلى ما بعد استيلائهم عليها بقرنين ونصف من الزمان وظل صداها قويًا إلى منتصف القرن السادس عشر الميلادى، فقد لام فرانسيسكو دى بيالوبو (١٤٨٠ . ١٥٦٠م) وهو طبيب من طليطلة، مواطنيه من سكانها أنهم يستخدمون اللغة العربية، مما يمس نقاء اللغة القشتالية (الأسبانية) ويشوه وضوحها. وحين أتحدث عن الحضارة العربية لا أشير إلى عرق أو دين، وإنما أعنى اللغة العربية، واستخدمها كل المسلمين فى العصور الوسطى، العرب والفرس والترك والبربر والأسبان، والتى شكلت وسيلة انتقال المعارف الأكثر تنوعًا من العصر القديم الكلاسى أو المشرقى إلى العالم الإسلامى، وقد جدد العلم الإسلامى صوغها، ورفدها على نحو حاسم بإسهامات وإضافات جديدة، جعلت منها فى كثير من الأحيان خلقًا جديدًا مبتكرًا.



بعد أربعة عقود من الفتح أصبح الأندلس، بوصول عبد الرحمن بن معاوية عام ٧٥٥م، دولة مستقلة، استقدمه أهلها أميرًا عليهم ليضع حدًا لخلافاتهم، وما إن وطئ أرضها حتى جعل غايته توحيد الدولة، وإيجاد سلطة مركزية، ونشر الأمن، وخلق صيغة قومية تجمع تحت رايتها كل من فى أسبانيا من عرب وبربر وقوط وأسبان، ثم اتجه إلى فنون السلم من بناء وعمران وتعليم، وبذر نواة حركة عقلية تعهدها خلفه من أبنائه وأحفاده، آتت ثمارها فيما بعد، وجعلت من أسبانيا الإسلامية أعظم مراكز الثقافة العالمية فى أوروبا حتى القرن الثالث عشر.

وفى هذه النهضة احتلت مدينة قرطبة بوصفها العاصمة المكانة الأولى والنموذج المحتذى، ولم يكن يساويها فى جلالها ورقيها إلا الإسكندرية فى القرن الأول الميلادى، وبغداد على أيام الرشيد والمأمون، وباريس فى القرن الثامن عشر. ويختلف المؤرخون المعاصرون فى عدد سكانها، بعضهم يتجاوز به المليون، ويهبط به آخرون إلى مائة ألف، وفى غيبة الوثائق الحاسمة كل شىء محتمل، ولكن الرقم الأخير غير محتمل، لأن قرطبة المعاصرة، وهى مجرد مدينة أسبانية تضم من السكان مائتى ألف نسمة ونيف، وكانت قرطبة العاصمة أوسع امتدادًا وأكثر أبنية، ومركزها عاصمة، كل ذلك يجعل منها أضعاف ما هى عليه الآن. وإذا استخدمنا الأرقام وما لدينا منها كاف لإلقاء ضوء على حجمها قلنا:

كان بها فى القرن العاشر الميلادى ٣٨٧٧ مسجدًا، و٢٨ ضاحية (= ربضا) و٩١١حمامًا، وطبقًا لإحصاء أمر به المنصور بن أبى عامر فى أواخر ذلك القرن كان فيها ٢١٣٠٧٧ دارًا يسكنها العامة و٦٠٣٠٠ بيت يسكنها الخاصة وكبار الموظفين، و٨٠٤٥٥ دكانًا، ولا يدخل فى هذه الأرقام البيوت المؤجرة ولا الحمامات ولا الفنادق، وسبعون دارًا للكتب.

وكانت قرطبة، شأنها فى ذلك شأن أى مدينة أندلسية كبرى، تضم خارج أسوارها حدائق واسعة مخضرة ذات خمائل، تستخدم لأغراض عديدة، ففى جانب منها يقام السوق الأسبوعى، وفى آخر مصلى لإقامة الصلوات فى الهواء الطلق، خاصة فى الأعياد والحفلات الدينية، وإلى جانبها طريق ممتد تحفه الأشجار العالية، ويتخذه المتنزهون والعشاق والمتبطلون ملتقى لهم.

وكان للطبقة العليا بيوت ريفية فاخرة، تقوم وسط جنان ممتدة، تسمى «مُنية»، وإذا كبرت جدًا واتسعت أخذت

اسم «حَيْر»، وهذه الحدائق رغم خصوصيتها تفتح فى المناسبات فى وجه الراغبين من عامة الشعب، وبعضها كان يفتح للمثقفين والأذكياء وأصحاب الذوق الرفيع فحسب، ومصطلح «مُنية» ليس عربيًا، وأحسب أنه هيروغليفى أو إغريقى، ولا يُستخدم إلا فى مصر والأندلس، مما يشى بأن المهندسين الذين كانوا يقومون على إنشاء هذه البيوت الريفية الجميلة كانوا مصريين، وكتب التاريخ نادراً ما تشير إليهم، وكان يطلق على المهندس اسم «عريف»، وانتقل المصطلح إلى الأسبانية بحروفه ومعناه المعمارى Alarife ويستخدم حتى يومنا هذا. ولا تعرف أسماء هؤلاء المهندسين، أو العرفاء على كثرتهم لأن كتب التاريخ نادراً ما تشير إليهم، وقلة منهم سجلوا أسماءهم على الأبنية التى خططوها، ومن هؤلاء اثنان مصريان: حسن بن جعفر الإسكندرانى وأخوه على، وأشرفا على ترخيم بعض قصور مدينة الزهراء التى أقامها عبد الرحمن الناصر فى ضاحية من قرطبة.

بعض هذه القصور كان به حدائق للحيوان، تضم نماذج من حيوانات المناطق البعيدة كالزرافات والنعام والجمال والطيور الناطقة. وفيما بعد سوف يقلدهم فى هذا ملوك أوروبا فى القرن الحادى عشر، مثل: هنرى الأول ملك إنجلترا، وفيدريكو الثانى ملك ألمانيا.

وتقيم كل أسرة داخل بيت مستقل عادة، والداخل لا صلة له بالشكل الخارجى، فهذا متواضع، لا يختلف فيه بيت عن آخر، فى شارع عام أو درب نافذ، أما الداخل فيعكس قدراً كبيراً من الترف والرفاهية، حسب الإمكانات الاقتصادية والمكانة الاجتماعية لمالكه. ويتوسط البيت صحن، مهما كان متواضعاً، أو سكانه فقراء، فيه بئر، وتتناثر فيه أشجار مظلة أو مثمرة، أشبه ما يكون بحديقة صغيرة تتزاحم فيها الزهور والرياحين وأشجار الفواكه أحياناً، وتضيق أو تتسع حسب قدرة صاحبها، وتخترقها قنوات تحمل الماء لرى الأشجار وأصحاب البيت، أو تغذية النوافير فى وسطها أو على جوانبها، وبعيداً عنها تمتد قنوات أخرى مغطاة، تحمل المياه القذرة إلى قناة فى عمق الشارع، تحملها إلى خارج المدينة.

ويخترق المدينة شارع رئيسى متسع يسمى «المحجة العظمى»، وانتقل هذا النظام إلى المدن الأسبانية فيما بعد كبيرة أو صغيرة مع ترجمته إلى اللغة الأسبانية فأصبح Gran Via، وعن هذا الشارع تتفرع الشوارع الأخرى والأزقة والدروب والشوارع مرصوفة، وتقوم على جانبيها الأشجار، وآثر أهل قرطبة أن تكون هذه أشجار برتقال، وهو تقليد لايزال قائماً حتى اليوم، فى الأحياء العتيقة على الأقل، ويحترم السكان هذه الثمار فلا يقطفونها إلا إذا كمل نضجها، وسقطت بنفسها، وتضاء الشوارع ليلاً، وهو ما لم تكن تتمتع بمثله لندن أو باريس حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ، وبعد ذلك بقرون كان الذى يجرؤ على الخروج من بيته فى يوم مطير يغوص فى الوحل إلى عقبيه، وبينما علماء قرطبة وسراتها يتمتعون بالحمامات الفاخرة، وتنعم العامة بأخرى عامة، كانت جامعة أكسفورد ترى الاستحمام عادة وثنية.

وتضاء البيوت بالشموع والقناديل، وتستخدم الثريات فى بيوت الأغنياء، وتتم التدفئة فى الشتاء عن طريق إجراء الماء الساخن عبر الحجرات فى أنابيب من الفخار، وهى الطريقة المستخدمة اليوم فى أسبانيا وكل أوروبا الغربية، وإن حلت الأنابيب المعدنية محل الفخارية، أما الفقراء فكانوا يستخدمون المواقد العادية، وفى الصيف يواجه الناس الحر برش الصحن جيداً بالماء أكثر من مرة فى اليوم.

ولم توجد فى الأندلس مشافٍ عامة، رغم علمهم بوجودها فى المشرق، فقد كان ابن عبدون الجبلى، وهو طبيب أندلسى، يعمل مديرمستشفى الفسطاط فى مصر. والتعليل عندى: قلة الأمراض لطيب الهواء، وجودة الغذاء، انعدام الوباء، ووفرة الأطباء الخصوصيين. ويزكى هذا الرأى وجود حى قائم بنفسه خارج المدينة يسمى «ربض المرضى» للذين يستعصى علاجهم أو يبطئ، أو مصابين بأمراض معدية، تقوم على رعايتهم جماعات متطوعة، إشرافاً وإنفاقاً وعلاجاً، مما تتلقاه من أهل الخير، أو مما يوقف عليه من مال أو أرض أو عقار. ويذكر ابن جلجل فى طبقاته أن أحمد بن يونس الحرانى أقام خزانة للطب (= صيدلية) فى قصر الخلافة، لم يكن قط مثلها، ورتب لها اثنى عشر صبياً، طباخين للأشربة، صانعين للمعاجين، واستأذن أمير المؤمنين أن يُصرف منها لمن احتاج من المساكين والمرضى، فأباح له ذلك.





كانت الثقافة العربية فى الأندلس تنهض، فى جوهرها، على دعامتين: دراسات إنسانية يأتى فى مقدمتها علوم الدين واللغة، ومكتسبات علمية ثمرة الترجمة التى ازدهرت فى المشرق فى العصر العباسى، ولم يخجل المسلمون قط بأنهم استفادوا من علم غيرهم، تلقوه وأضافوا إليه وطوروه ليكون فى صالحهم. ومع ذلك كان لابد أن يمضى قرن ونصف من الزمان حتى نقع على بذور حركة علمية جديرة بالتسجيل وذات مستوى، ولم يغب عن وعى الأندلسيين أن جيرانهم فى الشمال غارقون فى العجز السياسى والذهنى، وليس لديهم ما يقدمونه لهم. وفى البدء اعتمدوا على ما يترجم فى المشرق، ثم التفتوا إلى القليل الذى أصابوه من نصوص لاتينية فبدأوا يترجمونه على نحو غير منهجى، واتسم معظمه بأنه مُجتزأ ومجهول المؤلف والمترجم، وضاع جله، وما وصلنا منه إشارات إليه، أو فقرات متناثرة منه، مبعثرة فى مختلف المصادر، وتم لغايات عملية. فالطب الذى مارسه العرب الأوائل فى الأندلس كان عماده كتاباً منقولاً عن اللاتينية يُسمى «الفصول Aforismos». ومنذ القرن العاشر الميلادى أخذت الترجمة وضعاً أفضل حين وافى قسطنطين السابع إمبراطور بيزنطة (ت٩٥٩م) عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس بجملة من الهدايا، تقرباً وتودداً ولتحسين العلاقات بين الدولتين، وكان بينها كتابان، أحدهما باللغة اليونانية، والثانى باللاتينية.

تضاء البيوت بالشموع والقناديل، وتستخدم الثريات فى بيوت الأغنياء، وتتم التدفئة فى الشتاء عن طريق إجراء الماء الساخن عبر الحجرات فى أنابيب من الفخار

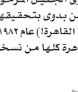
أما الكتاب الأول منهما فكتاب ديسقوريدس، ويضم عرضاً مصوراً للحشائش والنباتات التى تستخدم فى الطب، وتُرجم من قبل فى بغداد، ورغم أن حنين بن إسحاق شيخ المترجمين راجع الترجمة وصححها وأجازها، بقيت عشرات الأسماء لا يعرف لها مقابل فى العربية، فكانت تترك بأسمائها اليونانية مرسومة فى حروف عربية، فتجئ لا معنى لها، وهكذا وصل الأندلس، فازدادت صعوبة الفائدة منه، وكان إمبراطور بيزنطة قد أرفق مع الكتاب رسالة للخليفة: «إن هذا الكتاب لا يبلغ الفائدة منه إلا رجل يحسن العبارة باللسان اليونانى، ويعرف حقائق تلك الأدوية، فإن كان فى بلدك من يحسن ذلك فزتم بفائدته. وأما الثانى فعندك من يحسن اللاتينية، ويمكنهم أن ينقلوه إلى اللغة العربية.



ولم يكن بين نصارى الأندلس من يجيد اليونانية، فأرسل الناصر إلى الإمبراطور يسأله أن يبعث إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية ليعلمها بعض فتيات القصر من الصقالبة، فأرسل إليه الراهب نقولا، الذى وصل قرطبة عام ٩٥١م، وتألفت لجنة بإشرافه، تعكس فى تكوينها، ما كان سائداً فى هذه الحقبة من تاريخ الأندلس، من تسامح دينى وسياسى، فقد ضمت علماء من مختلف الأعراق والأديان، وكانت مهمتها إلى جانب ترجمة الكتاب إلى العربية تحديد أنواع النباتات وأسمائها ومكانها من الأندلس، وبقى القليل جداً مما لم يهتدوا إليه، ووثق الناس بالكتاب، وأخذ فى العربية أسماء متعددة: الأدوية المفردة، والمقالات الخمس، وكتاب الحشائش، وكان النقل يتم من اليونانية مباشرة، وأحياناً من هذه إلى اللاتينية ثم إلى العربية، وترك الكتاب أثراً حاسماً فى مجرى دراسات الطب والنبات فى الأندلس. وأخذ الراهب نقولا بما فى قرطبة من حضارة، ورفاهة عيش،

فاتخذها دار إقامة، ولم يعد إلى وطنه، وعلى أرضها لقى الله.

كان الكتاب الثانى باللاتينية، وهو فى تاريخ الروم، وعنوانه Historia Afarsus Paganos وترجمته الحرفية «تاريخ أعداء الوثنية» وألفه المؤرخ الأسبانى باولو أوروسيوس Paulo Orosios، وعاش فى أواخر القرن الرابع الميلادى وأوائل الخامس، وتمت ترجمته أيام الحكم الثانى بأمر منه، وقام بها قاضى النصارى حفص بن ألبار والأسقف ربيع بن زيد، وشارك فى الترجمة صياغة ومراجعة قاضى قرطبة قاسم بن أصبغ، وعُرف بتاريخ هرشيوش وأفاد منه عدد من المؤرخين العرب، كابن جلجل فى «طبقات الأطباء» وابن خلدون فى تاريخه، ولحسن الحظ وصلتنا الترجمة العربية فى مخطوطة فريدة تحتفظ بها جامعة كولومبيا فى نيويورك، وقام العالم المصرى الجليل المرحوم الدكتور عبد الرحمن بدوى بتحقيقها ونُشرت فى بيروت (لا القاهرة!) عام ١٩٨٢، وتخلو مكتبات القاهرة كلها من نسخة واحدة منها.



أقدم إنجاز علمى استرعى اهتمام المستشرقين الأوروبيين عامة، والأسبان خاصة، ما قدمه الأندلسيون فى حقل النبات، إذ كانت الزراعة من الدعائم المهمة التى ارتكز عليها الاقتصاد الأندلسى. فقد توفر لها كل المقومات التى تجعل منها عملاً ناجحًا: وفرة المياه، وخصوبة التربة، وتنوع المناخ، وأخذت العناية بها فى البدء شكلاً تطبيقيًا عمليًا، فأدخل المسلمون الوافدون طرق الزراعة التى كانت مستخدمة فى مصر والشام، حفروا القنوات، وغرسوا الكروم، واهتموا بالحدائق والبساتين، وجلبوا البذور والنباتات والفواكه التى كانت فى المشرق وتخلو منها أسبانيا، كالأرز والمشمش والخوخ والرمان والبرتقال وقصب السكر والنخل والقطن، وحسّنوا زراعة القمح والزيتون، وكان هذا الرقى الزراعى أحد مفاخر أسبانيا الإسلامية وإحدى النعم الخالدة التى أغدقها العرب على الأرض، ولاتزال الزراعة الأسبانية، والفلاحون فى الريف، يحتفظون بالكثير من تقاليد الفلاحة العربية، وكثير منها يحتفظ باسمه العربى متداولاً حتى يومنا هذا، من ذلك ـ مثلاً ـ كلمة سكر، وتظهر فى وثيقة أندلسية لأول مرة عام ٧١٤، أى بعد الفتح بسنوات ثلاث، ثم واصلت سيرها فى بقية العالم الغربى، وكلمة القطن، مع أنه كان معروفًا فى أوروبا من قديم، لم يصبح واسع الانتشار كثير الاستعمال إلا بعدما أدخل المسلمون زراعته فى أسبانيا، ومنها انتقل إلى إيطاليا وفرنسا والفلاندر وألمانيا وإنجلترا، وسلكت الطريق نفسه كلمات: السبانخ والباذنجان والتين الشوكى والبطيخ والليمون والزعفران والزيتون والزيت، وغيرها كثير.



دعت الحاجة إلى كفاءات متخصصة، ذات ثقافة متميزة، ومعرفة واسعة لمتطلبات الحدائق، غرسًا وسقيًا ونموًا، خاصة الحدائق الكبرى، ذات الشهرة الواسعة



هذه النباتات الجديدة احتاجت إلى وفرة فى المياه، فقام المسلمون بتنظيم أساليب الرى، لا فى السهول فحسب وإنما فى النجود أيضًا، ويتجلى ذلك واضحًا فى أقدم نموذج لها، وهو مدينة مدريد، وكانت فى أول أمرها حصنًا بسيطًا فوق جبل، أمر ببنائه الأمير محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ ـ ٨٨٦) وجرى إمداده بالماء بواسطة مجرى، وفيما بعد أضيفت اللاحقة اللاتينية etu، وتعنى الوفرة، إلى الكلمة العربية، وعرف بها المكان، فأصبحت Magretu ونطقها الأندلسيون على طريقتهم فى إبدال التاء طاء فكانت مجريط، وهو الاسم الذى أطلق على الحصن، ثم على المدينة من بعد وظل يستخدم فى مصوراتنا الجغرافية حتى الخمسينيات. ويعطى قلة من اللغويين الأسبان لتطور الكلمة منحى آخر، فيقولون أن كلمة مجرى العربية تعنى فى اللاتينية Matrica وأن اللاحقة اللاتينية أضيفت إلى هذه الكلمة فأصبحت فى العربية مجريط، وفى الرومانثية مدريد، والقوانين اللغوية إلى جانب التفسير الأول، وعلى أية حال كلا الاسمين يصدر عن الاشتقاق ذاته، ويعنى المكان نفسه.

مع كثرة الحدائق والتوسع فيها دعت الحاجة إلى كفاءات متخصصة، ذات ثقافة متميزة، ومعرفة واسعة لمتطلبات الحدائق، غرسًا وسقيًا ونموًا، خاصة الحدائق الكبرى، ذات الشهرة الواسعة فى قصور بنى عباد فى أشبيلية، وبنى ذى النون فى طليطلة، وبنى الأحمر فى غرناطة، ومن ثم بدأ التفكير فى التأليف والتنظير. وليس من قبيل الصدفة وحدها أن أغلبية علماء الفلاحة تنتمى إلى هذه المدن الثلاث، أو عاشوا فيها جانبًا من حياتهم. ولأن العلوم فى هذه المرحلة الباكرة من حياة العلم لم تكن عرفت الاستقلال، جاء التأليف فى علم النبات مختلطًا بعلم العقاقير، أو الصيدلة إذا شئت، وهذه مرتبطة بالطب، والمرء يعرف هذه الفروع الثلاثة، ثم يتميز فى جانب منها يغلب عليه معرفة أو تطبيقًا، ويشتهر به.

فى البدء، قبل التأليف فى الفلاحة، تمثل الأندلسيون ما ألّف المشارقة فيها، مثل كتاب «الفلاحة النبطية» لابن وحشية الكلدانى العراقى، وهو فى أصول الفلاحة والزراعة، ويقال أن أصول تأليفه تعود إلى ما قبل ميلاد المسيح، وأن ابن وحشية نقله عن لسان الكلدانيين إلى العربية، وأملاه على ابن الزيات عام ٩٣٠م . أو كتاب النبات لابن حنيفة الدينورى (ت ٨٩٥م)، وعُرف فى الأندلس فى منتصف القرن العاشر، وهو موسوعة من ستة أجزاء ضاع معظمها، إلا جزءين نشرهما المستشرق الألمانى برنهار لفن عامى ١٩٥٣ و١٩٧٤م، وجمع العالم الباكستانى محمد حميد الله ملتقطات من الكتاب عثر عليها فى المؤلفات الأخرى، ونشرها المعهد الفرنسى فى القاهرة ١٩٧٣، وظل الكتاب مرجعًا للمؤلفين العرب على مر العصور، وقد شرحه ابن أخت غانم (أبوعبدالله محمد) من علماء المرية فى القرن العاشر فى ستين مجلدًا، ولم يصلنا منها شىء فيما أعلم.

كانت مهنة الفلاحة تعرف ألوانًا من التخصص: الغرّاس وهو المتخصص فى غرس النبات، والشجّار ويعنى برعاية الأشجار، والعشّاب ويختص بالأعشاب ذات الفوائد الطبية، ولكل واحد كتب تهديه إلى أفضل الطرق فى مهنته. وهناك نباتيون خُلّص اتجهوا إلى البحث عن طبيعة النباتات وأصنافها وأوصافها وفوائدها، ومثل هذه المؤلفات أُدخل فى علم الصيدلة والعقاقير، ويطلق عليها اسم الأدوية المفردة، وقد يطلق على من يهتم بها اسم «صيدلانى».



وقد حفل الأندلس فى القرن العاشر الميلادى بأعداد كبيرة من النباتيين الأطباء يجمعون بين العلم بحقائق النبات، والتداوى بالأعشاب، فى ضوء المعارف القليلة التى تلقوها من العائدين من المشرق، أو قرأوها فيما حملوا من كتب ورسائل، أو ما تحصلوا عليه من خبرة عملية.

وقد تعمّق هذا التيار المشرقى وتأصل وقضى على أى أثر للتقاليد الأسبانية القديمة التى سبقت الإسلام. وحين أحس الأندلسى بذاته بدأ يدرس الطب على أرضه، يتلقاه الطلاب تحت إشراف طبيب متمكن، فإذا تقدمت معرفتهم صحبوه فى زياراته العادية للمرضى من عوّاده، أو يحضرون الفحوص التى يجريها فى منزله، حيث تعوّد الأطباء أن يستقبلوا المرضى الفقراء مجانًا، لأن أسبانيا الإسلامية لم تعرف المشافى الكبرى، كما هو الحال فى المشرق، إلا فى زمن متأخر، لأسباب ألمحنا إليها من قبل.

ولا يذكر المستشرق الفرنسى ليكلرك فى كتابه: «تاريخ الطب العربى» غير واحد منها فى أسبانيا الإسلامية كان قائمًا فى الجزيرة الخضراء، وأضيف أنا واحدًا آخر كان أوسع شهرة، وأكثر استعدادًا أقامته الدولة النصرية فى غرناطة فى القرن الرابع عشر الميلادى.

عمليًا تركت قلة المشافى والمرضى أثرها فى عدم تقدم الطب الأندلسى وازدهاره فى أيامه الأولى، على حين كانت المشافى فى المشرق متعددة وكبيرة، والمرضى كثيرون، وأمراضهم متنوعة، مما يتيح لطالب الطب أن يرى، وأن يمارس عمليًا فى أى وقت، ما درسه نظريًا فى الكتب، كان ذلك ينقص الطلاب فى أسبانيا الإسلامية، على ما هم عليه من ذكاء واهتمام، ومن ثم كانت تنقصهم فى

الأعصر الأولى الملاحظات والتجارب العلمية وقلتها.

لحسن الحظ لدينا وثيقة مهمة عن الطريقة التى كان يتم بها تدريس الطب فى مخطوطة فريدة تحتفظ بها مكتبة الأسكوريال، قريباً من مدريد، تحتوى بعض المذكرات التطبيقية، كتبها طالب يدعى محمد التميمى الطليطلى، ويرى ميخائيل غزيرى وهو راهب مارونى من حلب، عمل مترجماً فى خدمة الملك الأسبانى كارلوس الثالث (١٧١٦ . ١٧٨٨م)، وعهد إليه هذا بفهرسة المخطوطات العربية التى فى دير الإسكوريال لأول مرة، فقام بهذه المهمة، ولم يكتف برصدها، وإنما أرفق هذا بملاحظاته عليها، موضوعاً أو مؤلِّفاً. باللغة اللاتينية، يرى أن هذه المخطوطة مذكرة لامتحان عملى فى الطب، تعرض لنا الخطة التى كانت متبعة فى الدراسة العملية، فى معاهد الطب العليا فى الأندلس، ونستخلص منها أن الطريقة المعتادة كانت تتم على النحو التالى:

يفحص الطبيب المريض عندما يعرض عليه، ويسأله عن كل ما يعتقد أنه مفيد فى تحديد المرض ومعرفته، ثم يدعو الطالب لكى يفحصه أيضاً، وخلال تبادل الأسئلة والملاحظات بين الأستاذ والطالب تتم عملية الإعداد، وفى النهاية يكتب الطبيب العلاج. ويحدث كثيراً أن يسأل الأستاذ تفسيراً له، ولم يبخل عليه هذا بالجواب. ومع أننا لا نعرف شيئاً عن المناهج القديمة، فإن ذلك لا يقلل من قيمة المعلومات المثيرة التى تضمنتها هذه المخطوطة خاصة فيما يتصل بالدراسة العملية فى تلك الأيام.

ويفسر لنا نقص الوسائل المتاحة للدراسة العملية فى أسبانيا الإسلامية ظاهرة حرص بعض الأسر على توارث مهنة الطب، وأن يتخصص أفرادها فيه، لأن قلةً فحسب هى التى يتاح لها ما يتاح لابن الطبيب نفسه، من التدريب الجيد، والدراسة العملية المتواصلة، فهو يصحب والده دوماً، وقد شهرت الأندلس بهذا، وظلت الأسر تتوارث مهنة الطب أجيالاً عديدة، مثل أسرة يونس الحرانى، وبنو زهر، وابن الرومية وآخرين.

ويلفت النظر أن هذا التقليد ظل سارياً على نحو ما فى أسبانيا حتى الآن، فأسرة «براكير» فى برشلونة تتوارث مهنة طب العيون منذ القرن السادس عشر الميلادى، ونبهت فيه بلا حدود، واشتهرت على مستوى دولى.



أول طبيب أندلسى عظيم نلتقى به: أبوالقاسم الزهراوى (ت ١٠١٣) نسبة إلى مدينة الزهراء، ضاحية فى قرطبة كانت مقر الخليفة عبدالرحمن الناصر، وقواده وجنده والطبقة العليا من قومه، ويعرف عند الأوروبيين فى العصر الوسيط وما تلاه باسم Abulcasis، وكان أعظم جراح أندلسى، طار ذكره بين الشرق والغرب، وشغل وظيفة طبيب البلاط فى عهد الحكم الثانى، وتعتمد شهرته على كتابه المسمى: «التصريف لمن عجز عن التأليف»، أى معاونة من ليس له قدرة على استيعاب المؤلفات الضخمة، وهى موسوعة جاءت فى ثلاثين جزءاً، وقف قسماً منها على الطب، وثانياً على الصيدلة والأخير على الجراحة.

وكسر هذا الأخير على ثلاثة أبواب، تناول فى الأول منها العلاج بالكى، وفى الثانى العمليات بواسطة الشق والبضع، وأمراض العيون والأسنان، وتفتيت الحصوة داخل المثانة، والفتق وأمراض النساء. وعنى فى الثالث بأنواع الرضوض وتجبير ضروب الكسر والخلع.

وضمنه رسوماً قيِّمة لكثير من أدوات الجراحة، ونال هذا القسم أسمى درجات التقدير فى أوروبا المسيحية لم ينشر الكتاب كاملاً لا فى نصه العربى، ولا فى ترجمته اللاتينية، وإنما تُرجِمَ وطُبِعَ على مراحل.

وبينما كان الزهراوى يملأ الدنيا ويشغل الناس، طبيباً متميزاً فى قرطبة، كانت هناك أسرة بأكملها تتهيأ لتأخذ المكانة نفسها فى مدينة أندلسية أخرى، ورثت عاصمة الخلافة فى أمجادها، وأصبحت حاضرة الأندلس الأعلى ذكراً فى عهد الطوائف، والوحيدة فى عصرى المرابطين والموحدين، وأولئك هم: بنو زهر فى أشبيلية، وشغلوا مكاناً عظيماً فى عالم الطب على امتداد القرن الحادى عشر الميلادى والقرن الذى تلاه، وامتد نشاطها فى هذا المجال خمسة أجيال متعاقبة، عمل أغلبهم بالطب. وبعضهم جمع إلى جانبه الشعر والأدب والفلسفة.

ظل نشاط المسلمين فى أسبانيا حياً متوهجاً حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى، ثم انحطت قواه لعوامل أهمها هزيمة الموحدين فى معركة العقاب فى ١٦ يولية ١٢١٢، فقد كانت قاصمة الظهر، خسر المسلمون المعركة، وحصد الموت أبرياء المقاتلين والمتطوعة، وبلغ الشهداء عدداً لم تعرفه أى معركة أخرى فى تاريخ الإسلام، حتى إن السائر . كما يقول المؤرخون . كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجلاً، لأن زهرة الرجال راحت صرعى ذلك اليوم الأسيف، وبعدها أصبحت حدود الدولة مفتوحة أمام الغزاة من نصارى الشمال، وأدى افتقاد الأمن إلى مرحلة من التفتت والتناثر انتهت باستيلاء النصارى على كبريات المدن الأندلسية، وبدأ الأغنياء وملاك الأراضى وكبار المثقفين يرحلون إلى شمال أفريقيا أو المشرق، ومناطق أخرى أكثر أمناً، وأثناء سقوط هذه المدن أصدر ألفونسو الثانى ملك قشتالة أوامره بترجمة كل ما يجدونه من الكتب العربية التى تقع فى أيديهم إلى اللغة اللاتينية أو القشتالية.

حفل الأندلس فى القرن العاشر الميلادى بأعداد كبيرة من النباتيين الأطباء يجمعون بين العلم بحقائق النبات، والتداوى بالأعشاب

وعندما شهدت مملكة غرناطة، وكانت كل ما تبقى من الأندلس فى يد المسلمين استقراراً نسبياً انبعثت من جديد نهضة ثقافية ذات طابع أندلسى، غير أنه لا يمكن مقارنتها البتة بما كانت عليه النهضة فى الفترة التى امتدت من القرن العاشر حتى الثالث عشر الميلادى، ولم تعرف هذه النهضة الثانية أطباء عظماء محترفين، غير أن الموسوعيين من كبار أدبائها ومفكريها وسياسييها ألفوا فى الطب النظرى كتباً تعكس ثقافتهم الواسعة فى هذا المجال، وهى بالغة الفائدة فى إعطاء صورة دقيقة عن المستوى الصحى الذى بلغته الأندلس فى مجال الحياة الاجتماعية.

أعظم هؤلاء المثقفين طبياً وأشهرهم: لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ . ١٣٧٢م)، وكان شاعراً وناثراً ووشاحاً ووزيراً، وله مؤلفات ورسائل ومنظومات فى الطب يبلغ عددها ثلاثة عشر، وصل إلينا بعضها وضاع البعض الآخر.

وفى عام ١٣٤٥م اجتاح الطاعون (الكوليرا) فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وإنجلترا، ودمر مملكة غرناطة. فكتب ابن الخطيب رسالة «مقنعة السائل عن المرض الهائل» عرض فيها لأسباب المرض وأعراضه ووسائل اجتنابه، وأنها تتمثل فى الابتعاد عن المريض وعدم استخدام ثوبه أو آنيته أو سكنى محله أو مجاورته. وبينما هذا الموت يحصد أوروبا وقف أهلها حيارى أمامه، واعتبروه عملاً من أعمال الله لا يصح الاعتراض عليه، دافع ابن الخطيب عن نظرية العدوى ودعا إلى محاصرة المرض وعزل المرضى.

وفى الوقت نفسه، قام ابن خاتمة، وهو من المرية، وكان صديقاً لابن خطيب، وعانت مدينته من الوباء أهوالاً. فألف فيه: «تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد»، وفيها شدد على أهمية عزل المريض، ووصف حالة المدينة على أيامه، وقام دكتور مصرى هو طه دنانة بترجمته إلى اللغة الألمانية ونشره فى المجلة الطبية فى برلين عام ١٩٢٦م، وعن النص الألمانى قام الصيدلى خوسيه فرنانديث من مدينة المرية بترجمة الجانب الطبى فيه إلى اللغة الأسبانية، ونشره فى مجلة الحاضر الطبى التى تصدر فى غرناطة عام ١٩٥٨م.

وثمة مؤسستان طبيتان أخذهما الغرب اللاتينى عن أسبانيا الإسلامية: نظام المستشفيات، وامتحان الأطباء، قبل أن يؤذن لهم بمزاولة المهنة، وكان هذا الامتحان معروفاً فى أسبانيا منذ القرن الحادى عشر الميلادى، وبعد ذلك بمائتى عام انتقل منهما إلى بقية أنحاء أوروبا.



ثم غربت الشمس!■

بين "المداولة" و "المدافعة"

حلمي محمد القاعود

هل يعيد التاريخ نفسه؟

سؤال يطرح نفسه كثيراً، وخاصة في أوقات المحن والشدائد التي تمر بها الأمم والشعوب، وهناك من يجتهد في الإجابة، أو يسعى إلى إجابة قاطعة شافية، ويجيب بالنفي أو بالتقرير، ولكن نظرة هادئة إلى المفهوم الإسلامي لحركة التاريخ تفيد أن التاريخ بالنسبة للأمة الإسلامية عموماً وشعوبها خصوصاً، هو حركة إلى الأمام، مع أنه يعيش في الخلف. ووجوده في الذاكرة يعني أنه رؤية للمستقبل من حيث كونه عبرة وعظة. وقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع على فكرة «المداولة» في مقابل فكرة «المدافعة»، لتعطي كل منهما دلالة واقعية على ما يصح أن يسمى «حكم التاريخ». «فالمداولة» هي انتقال القوة والهيمنة والتأثير من قوم إلى قوم أو من أمة إلى أمة بفعل عناصر معينة وشروط خاصة، وهذا الانتقال ليس مؤبداً. ولكنه مرهون باستمرار تلك العناصر والشروط، فمن الممكن أن تتحول عناصر القوة والهيمنة والتأثير إلى الأمة الأخرى أو القوم السابقين إذا امتلكوا هذه العناصر وشروطها. ومن المفارقات أن قوله تعالى: «وتلك الأيام نداولها بين الناس» (آل عمران: ١٤٠) يأتي في سياق هزيمة المسلمين في أحد، وكأنه يشير إلى ضرورة الاعتبار واستيعاب الدرس التاريخي الذي يهيئ عادة للهزيمة أو الانتصار بشروط كل منهما، ثم إن المسألة، حين يتحقق الاعتبار والاستيعاب، تتحول إلى سعي حثيث نحو التصويب والمعالجة، مما يهيئ للانتصار من جديد.. إذ أن النواح واليأس والإحباط عند أقدام الهزيمة لن يجدي نفعاً، ولن يغير الواقع المهزوم، بل الذي يغيره هو «الاعتبار والاستيعاب»، وبذا يكون التاريخ حركة للأمام ورؤية للمستقبل، سواء أعاد نفسه أو لم يعدها..

في هذا الإطار يأتي ذكر السلطان الناصر لدين الله صلاح الدين يوسف بن أيوب محرر القدس من أيدي الصليبيين وموحد قلب الأمة الإسلامية، عقب هزيمة ساحقة مزقت بلاد الشام والعراق وغيرها إلى عشرات من الدول والإمارات، وأخضعتها لقوات الغزو الصليبية لعشرات السنين، منذ بداية أول حملة عام ١٠٩٥م.

البعض يهتف باسم «صلاح الدين» متصوراً أن التاريخ يعيد نفسه، وأن صلاح الدين سيظهر فجأة، ليحقق ما أنجزه صلاح الدين «الأول»، ويخلص الأمة من الهوان الذي تعيشه، والغاشية التي تحياها، ويريح الناس من العناء الذي استطال..

والبعض الآخر يسخر من الفكرة أو الهتاف، ويرى أن ذلك شبه مستحيل، فالتاريخ لا يعيد نفسه، وظهور صلاح الدين مرة أخرى، قضية عبثية. فقد كان ظهوره مسألة قدرية، لا دخل لأحد فيها، ثم إن الظروف التي كانت في عهد الحروب الصليبية غير الظروف التي تعيشها الأمة الآن تحت هدير صواريخ «كروز»، وهمس التكنولوجيا المتقدمة التي تؤثر على حركة الدبابات والطائرات والمدافع، وتمسح عيون الرادارات فلا ترى!

وأتصور أن كلا الفريقين يفتقر إلى بُعد غائب هو بعد «المدافعة» بالمفهوم الإسلامي «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» (البقرة: ٢٥١) . «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز» (الحج، ٤٠). هذه «المدافعة» ضرورة لاستمرار الحياة من ناحية (عدم فساد الأرض)، وضرورة لاستمرار ذكر الله، وإقرار الخلق بوجوده من خلال بقاء العباد يعبدونه في الصوامع والبيع والكنائس والمساجد إلى ما شاء الله، من ناحية أخرى،



«فالمدافعة إذاً حياة وعبادة، وهي وسيلة تحقيق «المداولة»، وبها تتم النصرة «ولينصرن الله من ينصره»، وهي كما نرى نصرة مؤكدة بأكثر من مؤكد، لأن نصرة الله لا تكون بالاستسلام وترك «المدافعة»، ولكنها أخذ بالأسباب والعوامل التي تجعل «المدافعة» فعالة، و«المداولة» أملاً قريب التحقيق.

كان حلمي أن أقرأ ما كتبه مؤرخو عصره الثقات وأقربهم إليه، وأن أرى انعكاس كتاباتهم على بعض المعاصرين وتحليلهم لشخصيته وانتصاره العظيم، فلعل هذه الكتابات تفتح الطريق أمام الأمة لترى نوراً في نهاية النفق المظلم، الذي دخلت إليه، وخاصة بعد سقوط بغداد مرة أخرى في أبريل ٢٠٠٣، وتوحش الاستعمار الصهيوني في فلسطين: قتلاً وحصاراً وتجريفاً واعتقالاً ورفضاً لكل محاولات المتحضرين في العالم إقناعه باحترام حقوق الإنسان الفلسطيني والعربي.. ثم وقوع الأمة جمعاء تحت قبضة الهيمنة الأمريكية عسكرياً وسياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً.

كان عليّ أن أقرأ ما كتبه «ابن شداد»، صديق صلاح الدين الأيوبي ورفيقه أينما ذهب، والشاهد على كلام الرجل وسلوكه وحربه ومعاهداته، ثم ما كتبه «العماد الأصفهاني» الذي سجل العمليات العسكرية لجيش صلاح الدين خطوة خطوة باهتمام ودقة بالغين وكان كاتباً للسلطان وقريباً منه، ثم ما خطه «عبد اللطيف حمزة» عن شخصية صلاح الدين وذراعه اليمنى «بهاء الدين قراقوش»، وصدى انتصار صلاح الدين في الأدب الغربي، ثم ما خطه «سعيد عبد الفتاح.. عاشور» عن الناصر صلاح الدين ومسيرته الحافلة، لاكتشف بعدئذ أن «صلاح الدين» أخذ بفكرة «المدافعة» كما ينبغي، وعمل لها بجد وإخلاص منذ شبابه حتى تولى سلطنة مصر وقيادتها، وكان على المستوى الشخصي والصعيد العام مثالاً للحاكم الذي يجب أن ينتصر، ويحقق فكرة «المداولة» التي جعلت منه عنواناً كبيراً في التاريخ الإسلامي، بل التاريخ الإنساني كله، حين حرر القدس العتيقة وصلى في المسجد الأقصى، وأرغم قوات الغزو على الرحيل بعد جهاد طويل.



ومن المؤكد أن فكرة «المدافعة» عند صلاح الدين، ما كانت لتتم لولا وجود استعداد طبيعي وشخصي في وجدانه، وأعماقه، وما بالنا برجل يموت ولم يخلف مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك مما تجب عليه الزكاة، ولم يترك في خزانته يوم وفاته سوى سبعة وأربعين درهماً، وجراماً واحداً من الذهب (= ستين جنيهاً مصرياً بسعر هذه الأيام إذا كان من عيار ٢٤ بدون مصنعية). هذا الرجل لم يمتلك في حياته ما يستوجب دفع الزكاة = الحد الأدنى للنصاب الشرعي للزكاة، أي ما يقرب من أربعمائة جنيه مصري بالسعر الحالي = هذا الرجل بلا شك لم يطلب الدنيا ولم يسع إليها من منطق مادي يهدف إلى الجمع والاكتناز، ولكنه سعى إلى طلب الدنيا من منظور إسلامي، يقدم الكرامة قبل المال، ويهتف بالحرية قبل الشراء، ويجعل رضا الله سابقاً على رضا الناس..

ولا ريب أن المؤرخين، وقد أجمعوا على تدينه وصلاحه، يرون في ذلك عنصراً من عناصر قوة الشخصية التي تجعل غايتها الأهداف العظمى للدين، فلا تنكص على

«... العـــدل أســاس الملـك»

عقبها، ولا تتردد فى البذل والتضحية، مهما كانت الظروف المحيطة غير مواتية، أو مهما كانت الإمكانات محدودة، فالرجل الذى يعيش لله ومن أجل الله، لا تعظم لديه تضحياته، ولا تخيفه أى عقبات.

تحدث عنه العماد الكاتب الأصفهانى، فقال:

«.. وكان لا يلبس إلا ما يحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها فى إسداء المعروف.

وكانت محاضره مصونه من الخطر، وخلواته مقدسة بالطهر، ومجالسه منزهة من الهزء والهزل، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل، وما سمعت له قط كلمة تسقط، ولا لفظة فظة تسخط.

يغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين. ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد. وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء، ومشاركة القضاة فى القضاء، أعلم منهم بالأحكام الشرعية، والأسباب المرضية، والأدلة المرعية..».

لقد كان يقضى الأشهر والسنوات فى ساحة القتال وهو صابر على مفارقة أولاده الصغار، راض ببعدهم عنه، وكان صابراً على مر العيش وخشونته، مع القدرة التامة على غير ذلك، احتساباً لله تعالى. وكان ابن شداد يتعجب من قيادته للجيوش وهو مريض، وقيامه بتنظيم الصفوف والقتال مع الجنود وهو يعانى الآلام، فيرد عليه صلاح الدين: إذا ركبت يزول عنى الألم!

إن شخصية تتحمل الألم وتصبر على خشونة العيش، هى من كرم الأخلاق بمكان كريم، وكثيراً ما كان يتقبل الإساءة فى صبر وحلم، ويعفو عن المسىء دون أن يسىء به الظن، وكان يحدث أحياناً أن بعض المستغيثين والمتظلمين يغلظون له فى القول، فيتقبل قولهم «بالبشر والقبول»، وكان الناس يتزاحمون عليه لعرض شكاواهم، وربما داسوا على أطراف ثيابه أو المرتبة التى يجلس عليها بأقدامهم، وهو لا يتأثر لذلك ولا ينفعل ولا يتضايق، بل يستمر فى النظر فى الشكاوى ويمضى فى قضاء الحاجات فى أناة وحلم.

يروى ابن شداد قصة كان شاهد عيان فيها، يستشهد بها على حلم صلاح الدين وعفوه، فيذكر أنه حدث فى أثناء الصراع بين ريتشارد وصلاح الدين حول يافا أواخر سنة ١١٩١م، أن عصى بعض العساكر صلاح الدين، ورفضوا تنفيذ أوامره، وأجابوه بكلام فيه خشونة، فتركهم صلاح الدين (كالمغضب)، حتى خيل لمن رآه أنه ربما قتل جماعة من العساكر فى ذلك اليوم لما أتوه من أعمال وأقوال. ولم يزل صلاح الدين سائراً حتى وصل إلى يازور وحوله الأمراء يرعدون خيفه، وكل منهم يعتقد أنه مسخوط عليه. حتى ابن شداد نفسه. مع عظم مكانته عند صلاح الدين يقول: «لم تحدثنى نفسى بالدخول عليه خيفة منى حتى استدعانى». فلما دخل ابن شداد على صلاح الدين طلب منه أن يجمع الأمراء ليشاركوه فى أكل فاكهة وصلته من دمشق. فحضر الأمراء وهم خائفون. فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور، وانصرفوا على عزم الرحيل للقتال، كأن لم يجر شىء أصلاً.

الصفات الشخصية لصلاح الدين، لا تنفصل عن أخلاقه فى الإدارة والسياسة والحكم والقيادة، وإذا كانت عبارة «العدل أساس الملك» جامعة مانعة فى بيان ضرورة العدل، لقيام الحضارة العظيمة أو بناء الدولة المحترمة، فإن صلاح الدين أقام بناء سلطنته فى مصر والشام وشمال العراق وغيرها على «العدل» فى أعم صوره وأخصها.

أراد الملك الظاهر غازى. ابن صلاح الدين. أن يستأذن أباه قبل رحيله إلى إمارته فى حلب وشمال الشام، فاختلى به صلاح الدين فى حضرة ابن شداد، وزوده ببعض النصائح والمبادئ التى ينبغى أن يسير عليها فى حكمه، وهى فى حد ذاتها تعبر تعبيراً صادقاً أميناً عن أسلوب صلاح الدين نفسه فى الحكم، وأفكاره عن طرق معاملة الرعية، ومبادئه فى رعاية شئون البلاد والعباد. قال صلاح الدين لابنه:

«أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم، فأنت أمينى وأمين الله عليهم. وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس. ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد. وحذار ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم»!.

أليست هذه الوصية تمثل ما يسمى بلغة عصرنا «العقد الاجتماعى» بين الحكومة والشعب، وفيها حفظ كرامة الناس ودمائهم والمصالحة الاجتماعية والشفافية والشورى ووحدة الشعب والقيادة على أسس التقوى والصحة الذى يؤسس لحكومة رشيدة فاضلة، استحقت أن تذهب «بالمدافعة» إلى «المداولة»، وأن تقيم نموذجاً أقرب إلى الخلافة الراشدة؟

إن الدولة الظالمة المفككة الوالغة فى دماء أبنائها وكرامتهم وحريتهم، لا تستطيع أن تتأهل «للمدافعة»، فضلاً عن أن تصل إلى «المداولة»..

يتحدث ابن شداد عن عدل صلاح الدين، فيقدم لذلك بالحديث عما رواه أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ. قال:

«الولى العادل ظل الله فى أرضه، فمن نصحه فى نفسه أو فى عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله، ومن خانه فى نفسه، أو فى عباد الله خذله الله يوم القيامة، يرفع للوالى العادل فى كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه».

وكان يرحمه الله. عادلاً. رءوفاً. رحيماً. ناصراً للضعيف على القوى.

وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد، من كبير وصغير، عجوز هرمة، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً.



على أنه كان فى جميع أزمانه. كما يقول ابن شداد. قابلاً لجميع ما يعرض عليه، كاشفاً لما ينتهى إليه من المظالم. وما استغاث به أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته. ولم تقف العدالة أمام وزير أو كبير، حتى صلاح الدين نفسه، وقف أمام القاضى فى ادعاء كاذب من أحد التجار ليثبت براءته، دون أن يثير ذلك حقده أو حنقه على المدعى ويروى ابن شداد فى ذلك حكاية طويلة ملخصها أن تاجراً يدعى «عمر الخلاطى» زعم أن السلطان «صلاح الدين» أخذ منه مملوكاً يدعى «سنقر» واستولى على ثروة هذا المملوك بدون وجه حق، وأظهر صلاح الدين حلماً كبيراً ورضى أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى أمام القاضى، وأحضر كل طرف ما لديه من الشهود والأدلة التى تثبت رأيه. واتضح فى النهاية كذب الرجل وبطلان ادعائه على صلاح الدين. وعندئذ رفض صلاح الدين أن يترك المدعى يخرج من عنده خائباً فأمر له بخلعة ومبلغ كبير من المال!..

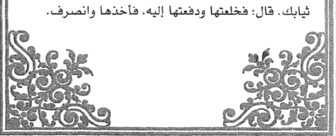
لقد أنشأ صلاح الدين ما يعرف فى عصرنا بالمؤسسات



الأذكيـاء

ذكـــاء لـــص

عن المبرد قال: حدثنى أحمد بن المعدل البصرى قال: كنت جالسًا عند عبد الملك بن عبد العزيز، فجاءه بعض جلسائه، فقال: أعجوبة، قال: ما هى؟ قال خرجت إلى حائطى (بستانى) بالغابة، فلما أن أصحرتُ وبعدت عن بيوت المدينة، تعرض لى رجل، فقال: اخلع ثيابك.فقلت: وما يدعونى إلى خلع ثيابى؟ قال: أنا أولى بها منك. قلت: ومن أين؟ قال: لأنى أخوك وأنا عريان وأنت مكس. قلت: فالمواساة؟ قال: كلا قد لبستها برهة، وأنا أريد أن ألبسها كما لبستها. قلت: فتعرينى وتبدى عورتى. قال: لا بأس بذلك قد روينا عن مالك أنه قال لا بأس للرجل أن يغتسل عريانًا. قلت: فيلقانى الناس فيرون عورتى؟ قال: لو كان الناس يرونك فى هذه الطريق ما عرضت لك فيها، فقلت: أراك ظريفًا، فدعنى حتى أمضى إلى حائطى وأنزع هذه الثياب، فأوجه بها إليك. قال: كلا أردت أن توجه إلى أربعة من عبيدك، فيحملونى إلى السلطان، فيحبسنى قلت: كلا. أحلف لك أيمانًا أنى أوفى لك بما وعدتك، ولا أسوءك. قال: كلا. إنا روينا عن مالك أنه قال: لا تلتزم الأيمان التى يحلف بها اللصوص. قلت: فأحلف أنى لا أحتال فى أيمانى هذه. قال: هذه يمين مركبة على اللصوص. قلت: فوالله لأوجهن إليك هذه الثياب طيبة بها نفسى، فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: تدرى فيم فكرت؟ قلت: لا: تصفحت أمر اللصوص فى عهد رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا، فلم أجد لصًا أخذ تسئمة، وأكره أن أبتدع فى الإسلام بدعة يكون علىَّ وزرها ووزر من عمل بها بعدى إلى يوم القيامة: اخلع ثيابك. قال: فخلعتها ودفعتها إليه، فأخذها وانصرف.



العــــدل أســـاس المـــلك

العامة تعليمية واجتماعية وصحية لتيسير حياة الناس وتسهيل أمورهم وحل مشكلاتهم ومعالجة مرضاهم فقد أنشأ العديد من المحاضر أو الكتاتيب وخصص لها المعلمين لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء، وخصص لهم جميعًا الجراية الكافية، كما أنشأ العديد من المدارس، وخصص لها المدرسين والأوقاف والأرزاق للإنفاق عليها وعلى طلبة العلم فيها.



وأسبغ صلاح الدين فضله ورعايته على الفقراء وأصحاب الحاجات عمومًا مثل الحجاج المغاربة والجالية المغربية التى وفدت على مصر، وفضلت البقاء بها بعد زوال دولة الفاطميين، ونبه على الموظفين المختصين أن ينفقوا عليهم من مال الدولة والأوقاف، وإن عجز عن الوفاء فليأخذوا من صلب ماله. ويروى بعض المغاربة لابن جبير أن السلطان صلاح الدين ترك لهم حرية واسعة بحيث لم يسمح لأحد بالتدخل فى خواص أمورهم وجعل أحكامهم لهم ولم يجعل يدًا لأحد عليهم.

لا ريب إذًا، أن «صلاح الدين الأيوبى، أقام ما يسمى فى عصرنا «بالمجتمع المدنى» على أحدث صورة ممكنة فى زمانه، فكسب تعاطف الناس ومحبتهم، واستطاع أن يبسط العدل وينشر الأمن، وجعل المواطن يستطيع أن يتحرك فى أرجاء البلاد آمنًا مطمئنًا، فقد كان. كما يصفه العماد الكاتب الأصبهانى:

«مشغوفًا فى سبيل الله بالإنفاق، موقوفًا عزمه فى الأعداء بإدناء الآجال، وفى أولياء الله بإجراء الأرزاق، وما عقد فى سبيل الله فرس أو جرح، إلا وعوض مالكه بمثله، وزاده من فضاء».

يقول عبداللطيف حمزة: «كان صلاح الدين نابغة فى الحروب، وكان فى الوقت نفسه قديسًا لا نظير له فى الغيرة على الدين. وكان ملكًا عادلاً ينصف الناس من نفسه، ويسوى فى القضاء بينه وبين أضعف رعيته».

بل كان صلاح الدين رجلاً يحارب أعداءه بأسلحة منها الخُلق والضمير. وهو سلاح غريب وطراز عجيب، ليت أن العالم كله قد تعلمه، أو ليت أن المدنية الحديثة أخذته عنه».

يذكر ابن شداد عند الحديث عن شجاعة صلاح الدين وحبه للجهاد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حيّة».

ثم يقول ابن شداد: ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان، قوى النفس، شديد البأس،عظيم الثبات، ولا يهوله أمر، ولقد رأيته. رحمه الله. مرابطًا فى مقابلة عُدة عظيمة من الفرنج، ونُجُدُهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل فى ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبًا على عكا وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قوة نفس.

لم يفعل مثل غيره من قادة زمانه وقبل زمانه، حين يقنع الواحد منهم بالجلوس فى عاصمته، ويقذف بالجيوش فى ساحة الحرب ليُقتل من رجاله من يُقتل ويُجرح منهم من يُجرح، فإذا أصابوا نصرًا فالشرف والفخر له، وإن حلت الهزيمة فالتبعة عليهم وحدهم لأنهم لم يثبتوا ولم يصمدوا للعدوّ!.. ولكن صلاح الدين، كان يتقدم جنده، ويسبقهم إلى ساحة القتال، ويقوم باستطلاع مواقع العدوّ، ويفكر مع أمرائه وجنوده فى كيفية تحقيق النصر بأفضل الوسائل والسبل.

لقد استطاع «صلاح الدين» أن يدخل بجدارة إلى مجال «المدافعة» بوساطة شخصيته البسيطة المتواضعة الزاهدة، وحبه للجهاد والشهادة، وعبقريته فى الإعداد والتخطيط، واختيار الرجال الصالحين لمساندته ومساعدته، و«بالمدافعة» حقق «المداولة» باستعادة القدس الشريف وطرد الصليبيين.. فهل يعيد التاريخ نفسه؟ سؤال، إجابته لم تتضح بعد. ■

إصـــــــدارات جـــــــديـــدة

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الإسلام ورهانات الديمقراطية

محمد محفوظ

الدار البيضاء: بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٣، ٢٠٨ صفحات



لوقت طويل، مثلت المفاضلة بين التنمية والديمقراطية عائقاً أمام تحقيق الأخيرة، فيما بقيت الأولى حلماً بعيد المنال، وظلت السلطة المستبدة تلوح بهذه المقارنة المتوهمة للإبقاء على وجودها وتكريس استبدادها، الذى كان فى الحقيقة معيقاً لطاقات أمتنا وقدراتها، والذى أبعدها عن معركتها الأساسية مع التخلف، وجر عليها الهزيمة تلو الأخرى أمام عدوها الصهيونى المغتصب.

المؤلف يرى أن الديمقراطية اليوم صارت مشروعاً قابلاً للتحقق أقرب من أى وقت مضى، فالعوامل والظروف إقليمياً ودولياً مواتية ومشجعة، ومهمة النخبة والساسة هى العمل على توظيف هذه العوامل والظروف، بما يمكن من توثيق أواصر القاعدة الاجتماعية والسياسية، ويفعل دور النخبة باتجاه توسيع المشاركة العامة، وتقوية مؤسسات المجتمع المدنى، والحد من استبداد السلطة وديكتاتوريتها.

وبرأى المؤلف، فإن تقدمنا لن يتحقق إلا بالجناحين معاً: الإسلام والديمقراطية، فهما ليسا نقيضين بحال، كما يحاول البعض أن يصور، برغم كل الالتباسات والتساؤلات التى تحيط بهذه العلاقة.

ثمة مصالحة ضرورية بين المجتمعات الإسلامية والديمقراطية، وفيها يتم التأكيد على عدد من النقاط منها: ضرورة بعث المضمون الحضارى للإسلام وتجاوز القراءات القشرية والسطحية للدين، واستدعاء القيم والمبادئ العليا فى الواقع الاجتماعى للمجتمعات العربية الإسلامية، بما يوفر ظروفاً ذاتية وموضوعية للانسجام مع متطلبات المشاركة والحرية والتداول السلمى للسلطة.

والكرامة الإنسانية هى بوابة الحرية، فالأمة التى تمتهن كرامة أبنائها ترتهن إرادتها، ويصير هذا الامتهان هو البوابة الكبرى لدخول الأمة جمعاء فى براثن التبعية.

ويؤكد المؤلف أيضاً على أهمية التواصل الثقافى والسياسى مع التجربة الإنسانية الحديثة، حتى يتسنى لنا استيعاب هذه التجربة وهضم دروسها والانفتاح على عوامل تطورها.

من ناحية ثالثة، فإن المصالحة مع الديمقراطية فى البيئة العربية والإسلامية، بحاجة إلى إرادة مستديمة، تساهم فى تفعيل الإمكانات الأهلية والمدنية لتعميق الخيار الديمقراطى.

■

القدس.. أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ

تحرير: توماس تومبسون. سلمى الخضراء الجيوسى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٣٨١ صفحة



لا يقدم كتاب العهد القديم تاريخاً يمكن الوثوق به لمدينة القدس أو «أورشليم»، فالمرويات التوراتية لا تقدم تاريخاً بقدر ما تقدم أدباً دينياً، فالقصة التوراتية عن أورشليم وثيقة الصلة بمجال اللاهوت أكثر من صلتها بمجال التاريخ.

والدراسات التى يضمها هذا الكتاب لمجموعة من الباحثين والمؤرخين الغربيين أساساً، تثبت صحة هذا الافتراض، وتشير بوجه خاص إلى ما قاله المفكر الفلسطينى الراحل إدوارد سعيد عن التغيرات التى فرضت على أورشليم وحولتها من مدينة متعددة الثقافات والديانات إلى مدينة يهودية تديرها سلطة إسرائيلية، ويخلص المؤلفون إلى أن تاريخ المدينة الغنى والمركب، الممتد عبر القرون من عصر البرونز إلى الفترة الإسلامية مروراً بالفترة الفارسية والهيلينستية والرومانية والبيزنطية، هو جزء من تاريخ فلسطين المتجانس والمتواصل، لكن معظم هذا التاريخ تم تهميشه فى الخطاب السياسى الإسرائيلى الذى يدعى الاستمرارية من عصر داود إلى الآن، والجهات التى تكرر فكرة الاستمرارية هذه منذ وثيقة إعلان استقلال إسرائيل إلى احتفالات أورشليم (٢٠٠٠) ومواقع الإنترنت الرسمية وغير الرسمية، لا تفسح مجالاً لأية ذاكرة أخرى، وتتجاهل الحقائق الحية لتاريخ المدينة الطويل، وينبه الكتاب إلى أهمية أن يستمر البحث التاريخى فى مساءلة الطريقة التى جرى بواسطتها بناء تاريخ المدينة، وتقديمه وتوظيفه فى الدعاوى السياسية الإسرائيلية.

■

دولة محمد على والغرب الاستحواذ والاستقلال

حسن الضيقة

الدار البيضاء: بيروت، المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٣، ٢٨٧ صفحة



انطوت الفترة الممتدة بين الغزو الفرنسى لمصر وسقوط تجربة محمد على، على محطة تاريخية مهمة شملت تطورات عدة غطت جوانب الصراع بين الدولة العثمانية وسياسات الدول الأوروبية، وبحسب المؤلف، فإن دورة الاجتماع العثمانى وفرت آليات للمواجهة ذات قدرات متطورة، عطلت السياسات الاستعمارية وتغلبت على واقع الاحتلال بينها وبين دول أوروبا.

ويرى المؤلف أن دورة الاجتماع العثمانى بما انطوت عليه من إمكانيات سياسية واقتصادية. استطاعت أن تزاوج بين آليتين تاريخيتين: الأولى هى ما انطوت عليه من مقاومات وثورات المجتمع الأهلى من سياسات مواجهة كان لها أثر مركزى فى إحداث تصدعات فى بنيان السياسات الاستعمارية وتغلبت على واقع الاحتلال بينها وبين دولة أوروبا.

ويرى المؤلف أن دورة الاجتماع العثمانى بما انطوت عليه من إمكانيات سياسية واقتصادية. استطاعت أن تزاوج بين آليتين تاريخيتين: الأول هى ما انطوت عليه من مقاومات وثورات المجتمع الأهلى من سياسات مواجهة كان لها أثر مركزى فى إحداث تصدعات فى بنيان السياسات الاستعمارية الفرنسية، فى كافة النواحى، لتجديد البنيان السياسى والاقتصادى للدولة العثمانية، وفى كلا المستويين أثبتت مسارات المواجهة فساد مقولة الركود الشرقى، التى مثلت دوماً «حجر الزاوية» فى بناء أنظمة معرفية وأيديولوجية مسوغة السياسات الاستعمارية الأوروبية. وبرغم النجاحات التى حققها مشروع محمد على، على هذا الصعيد، فإن مكمن الخلل التأسيسى فيه كان، كما يؤكد المؤلف، هو مرجعيته التشريعية والسياسية التى حكمت العلاقة الناشئة بالمدار المجتمعى العام، إذ ارتبطت هذه المرجعية بوضعية السلطة العثمانية فى قسمين رئيسيين، وعبر المتضادين: الاستحواذ والاستقلال، يدرس المؤلف العلاقة بين دولة محمد على والغرب.

■

فى الخطاب والمصطلح الصهيونى

عبد الوهاب المسيرى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٢٨٢ صفحة



لا تعبر قضية المصطلح إذا كان الأمر يتعلق بالخطاب الصهيونى بالذات عن دلالات بعينها، فغالباً ما يكون المصطلح والمفهوم الكامن وراءه معبران عن شيئين مختلفين، وربما متناقضين، فحديث الصهاينة عن «الحوار» و«التعايش» و«عملية السلام» و«الستة ملايين» و«حق العودة» و«الهولوكوست» وغيرها، ليس هو بالضبط ما يمكن فهمه من اللفظ، كما أن آلتهم الدعائية الضخمة تعمل دوماً على إنتاج واستحداث مصطلحات جديدة كى تواكب أغراضهم وطموحاتهم الاستعمارية التى لا تتوقف، وهناك مصطلحات يتم اجتزاؤها من سياقها كى تعبر عن معابد بذاتها تخدم الفكرة الصهيونية ولا شىء سواها، وهناك مصطلحات مبهمة قابلة دوماً لإعادة التفسير والتأويل، وهناك مصطلحات تعبر فى حقيقتها عن أمنيات، وأخرى تعبر عن القراءة الصهيونية للتاريخ وهكذا.

لهذا فإن المؤلف، وهو صاحب موسوعة اليهود والصهيونية الضخمة، والتى أنفق فى إعدادها ما يجاوز ربع القرن، يخضع جميع هذه المصطلحات لعملية تفكيك، ويعيدها إلى مادتها الأولى، باحثاً فى جذورها الأصلية فى التاريخ «الحقيقى» والحضارة الإنسانية على شمولها، وهى عملية، كما يرى، غير قابلة للتوقف، استناداً إلى ماكينة إنتاج الأكاذيب والافتراءات التى تبثها آلة الدعاية الصهيونية دون توقف.

■

الجنس الحائر
أزمة الذات فى الرواية العربية
عبدالله أبوهيف
بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣، ٣٦٧ صفحة



كانت الرواية العربية، التى بدأت فى التكون فى أواخر القرن التاسع عشر، هى الفن الحديث الأكثر تعبيراً عن تحديات الحداثة فى المجتمع العربى، وقد عكست بشكل واضح، أزمة الهوية وصراع الذات العربية فى مواجهة الآخر، فى فضح صراع حضارى ممتد منذ القرن التاسع عشر وإلى اليوم. ويصبح القول، بحسب المؤلف، أن تاريخ تكون الرواية العربية يكاد ينطبق على تاريخ البحث عن الهوية.

وإزاء هذه الحقيقة التى سعى المؤلف إلى إثباتها، يدرس عدداً من الأعمال لروائيين عرب منهم إبراهيم بشير (السودان)، إبراهيم نصرالله (فلسطين)، أحمد إبراهيم الفقيه (ليبيا)، إدمون شحادة (فلسطين)، أديب نحوى (سوريا)، إسماعيل فهد إسماعيل (العراق)، إلياس خورى (لبنان)، حنا مينا (سوريا)، صنع الله إبراهيم (مصر)، حنان الشيخ (فلسطين)، حيدر حيدر(سوريا)، الطاهر وطار (الجزائر)، صلاح الدين بوجاه (تونس)، فؤاد التكرلى (العراق) وآخرون غيرهم.

وانتهى المؤلف إلى أن الرواية صارت ديوان العرب وسجل حياتهم، وهى عبرت عبر تطورها خصوصاً فى العقود الثلاثة الأخيرة، عن تبدلات الخطاب القومى والأيديولوجى، وأن كثيراً من الروايات تحولت إلى شكل من أشكال البث، كما هوالحال فى بعض أعمال نبيل سليمان وصنع الله إبراهيم وسالم حميش وهاله البدرى، وأن الرواية ابتكرت أساليب عدة للسرد العربى فى إطار تنامى الوعى الذاتى وخلق جماليات عربية للرواية.

يشير المؤلف أيضاً إلى أن البطولة فى الروايات الحديثة لم تعد مقصورة على المثقفين دون فئات الشعب الأخرى، بل صار البطل فلاحاً كما فى رواية لنبيل سليمان أو عاملة كما فى رواية لصنع الله إبراهيم، وبعض الروائيين قدم نموذجاً لانتفاء البطولة أو رواية اللابطل كما فعل فؤاد التكرلى.

ويلاحظ المؤلف أيضاً بروز موضوع النسوية وتحقق الذات النسوية خصوصاً فى روايات حميدة نعنع وحنان الشيخ وسحر خليفة.

■

أمام المرآة
عبدالرحمن يوسف
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٤، ١٢١ صفحة



ديوان من الشعر العمودى فى زمن ساد فيه الشعر الحر وقصيدة النثر، وهو لا يحاكى الأقدمين من أساطين الشعر الموزون المقفى، وإنما يحفظ لمسيرته مجرى خاصاً، يؤكد فرادته ويعكس تجارب عصره ورؤاه المميزة. من أجواء الديوان، ومن قصيدة بعنوان «باب التاريخ»:

تتعالى فى الظلام الأسئلة
بين حرمان وتيه ووله
تقبل الأفكار نحوى دافقات
وخيالى فى دروب الهرولة
وفنون.. دفعتنى للمعالى
ورمتنى فى بحار المهزلة
عذبتنى بفراق ووصال
فأنا مقتول هجر وصلة

■

مداخل الانتقال إلى الديمقراطية فى البلدان العربية
تحرير: على خليفة الكوارى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣، ٢٧٧ صفحة



الكتاب هو حصيلة اللقاء الثانى عشر لمشروع دراسات الديمقراطية فى البلدان العربية الذى يتبناه المركز، ويضم حصيلة المناقشات والدراسات والتعقيبات التى جرت فى اللقاء، وفى القسم الثانى عرض للدراسات التى لم يتسن مناقشتها فى اللقاء.

والمشروع برمته ينطلق من فرضية أساسية، مفادها أن الشعوب العربية جميعها تعيش فى حالة من الضيعة بسبب الاستبداد السافر والتسلط لأنظمة الحكم فيها دون استثناء، فالدول العربية قد تختلف نسبياً فيما بينها من حيث حرية القول، لكنها جميعاً، تغيب عنها الممارسة الديمقراطية الحقة، وهو ما أدى إلى تخلف معدلات التنمية وتآكل الإرادة الوطنية وانكشاف الأمن القومى وتبديد الثروات العامة. وهو ما يجعل الحاجة إلى الانتقال للديمقراطية أكثر إلحاحاً من أى وقت مضى، والكتاب يشارك فيه مجموعة من الباحثين من دول عربية عدة منها: برهان غليون، إسماعيل الشطى، عبدالحسين شعبان ويوسف الشويرى.

■

التنظيم القضائى المصرى
محمد فتحى نجيب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٢٧٢ صفحة



بدأ النظام القضائى المصرى الحلقة الحديثة من تطوره مع نهاية القرن التاسع عشر، واستطاع خلال أكثر من مائة عام أن يؤدى رسالة العدالة، وأن يقفز من هذا المستوى إلى أداء دوره كقوة توازن قادرة على ضبط إيقاع السلطتين التنفيذية والتشريعية فى إطار ماتتطلبه العملية الديمقراطية.

والمستشار فتحى نجيب الذى كان، رحمه الله، مساعداً لوزير العدل ورئيساً للمحكمة الدستورية العليا، لا يكتفى بتقديم بحث وصفى للمعالم الرئيسية للنظام القضائى المصرى، لكنه يبرز العناصر الجوهرية لهذا النظام ودعائم حركته الأساسية، متبعاً منهجاً وصفياً متجرداً من الأحكام التقديرية، وهو يضيف فى هذه الطبعة الجديدة بعض الأحكام الصادرة عن المحكمة الدستورية العليا والتى كان لها أثرها فى المجتمع المصرى.

■

فيصل بن الحسين
مؤسس الحكم العربى فى سورية والعراق
هادى حسين عليوى
بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣، ٣٤٧ صفحة



عندما قامت الثورة العربية فى يونيو ١٩١٦ قاد فيصل بن الحسين الجيش العربى الذى تمكن من طرد القوات العثمانية من الحجاز والشام وإقامة الحكم العربى فى سورية بدءاً من سبتمبر ١٩١٨.

وقد كان فيصل هو رسول أبيه الشريف حسين إلى قادة الحركة العربية القومية فى الشام خلال عامى ١٩١٥ و١٩١٦، وبعد سقوط الحكم العربى فى سورية أواخر يوليو ١٩٢١، واحتلال القوات الفرنسية دمشق، غادر فيصل سورية متوجهاً إلى أوروبا، ليعرض القضية العربية أمام الدول الأوروبية وفى المحافل الدولية، وحينما فرضت ثورة ١٩٢٠ فى العراق على بريطانيا إعادة النظر فى حكمها المباشر للعراق، فتح الطريق أمام فيصل ليصبح أول ملك فى العراق فى العصر الحديث عام ١٩٢٣ بعد قيام المملكة العراقية، إلى أن توفى فى سبتمبر ١٩٣٣، وكان عمره آنذاك ٤٨ سنة، وقال وهوعلى فراش الموت: «أنا مرتاح، قمت بواجبى، خدمت الأمة بكل قواى، ليسير الشعب بعدى بقوة واتحاد».

وهذا الكتاب يؤرخ لسيرة فيصل بن الحسين، ويصحح كثيراً من الأخطاء واللغط واللبس الذى تناثر حول هذه السيرة.

■

الإبـــــادة
بارون كمرلينج
ترجمة: فاطمة نصر
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٣، ٢٤٢ صفحة



مؤلف الكتاب هو عالم اجتماع إسرائيلى، كرس معظم حياته الوظيفية لدراسة المجتمعين الإسرائيلى والفلسطينى، وقد كتب كثيراً محذراً من مخاطر الحكومة الإسرائيلية على السلام والأمن، ليس على إسرائيل فحسب وإنما على المنطقة كلها، وقد اتهم من قبل مناوئيه من اليهود المتعصبين بأنه يهودى كاره لذاته، لكنه يدافع عن مواقفه معلناً أن هدفه الوحيد هو «فتح أعين الخير ين الذين لم يبصروا بعد الأخطار الحقيقية التى تتهدد إسرائيل».

وبرأيه فإن إسرائيل أصبحت فى ظل إريل شارون أداة تدميرلذاتها ولبيئتها المحيطة بها، لأن سياستها الداخلية والخارجية موجهة لهدف واحد فقط هو الإبادة السياسية للشعب الفلسطينى، وهى العملية التى يمثل هدفها النهائى تحلل وجود الشعب الفلسطينى ككيان اجتماعى وسياسى واقتصادى شرعى، بالإضافة إلى التطهير العرقى على

الأرض المسماة أرض إسرائيل. وبحسب المؤلف فإن هذه السياسة ستعمل على تعفن النسيج الداخلى للمجتمع الإسرائيلى. وتقوض الأساس الأخلاقى للدولة اليهودية فى الشرق الأوسط، وستحدث إبادة سياسية مزدوجة للكيان الفلسطينى، وعلى المدى البعيد للكيان اليهودى، وعليه. يضيف المؤلف. فإن الحكومة الراهنة تمثل خطراً محدقاً باستقرار شعوب المنطقة جميعها وبقائها.

■

حكاية الحكايات وبناتها

أمانى العشماوى

رسوم: بهجت عثمان

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٨٠ صفحة



تبدأ حكاية الحكايات من التراث الأفريقى، وهى أم الحكايات التى تروى كيف جاءت الحكايات إلى الأرض وانتشرت فيها، وصارت ذاكرة الشعوب ومستودع تراثها، وهذه الحكايات تحفظ قيم الشعوب وتراثها الاجتماعى، ويرى الناس من خلالها أصداء الأحداث المهمة فى تاريخهم، وهى تصور روح الشعب ومعتقداته.

كما أن الحكايات وسيلة للتعارف بين الشعوب وتجسيد لآمالها وآلامها، والكتاب يضم بين دفتيه حكاية من إنجلترا «الخبز السار»، ومن ألمانيا «الأصدقاء المغنون»، ومن جاوه «البئر»، ومن اسكندنافيا «سائس الخيول»، ومن الهند «الفلاح والأميرة»، ومن فرنسا «الخيط السحرى»، ومن أفريقيا «ثمن الظلال»، ومن روسيا «الزوجة الثرثارة»، وغيرها.

■

ماذا أقول لكم؟

رجائى عطية

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ١٩٤ صفحة



فصول متفرقة، كتبها المؤلف فى أوقات متتالية، موضوعاتها شتى، يجمع بينها فحسب هموم الوطن وهموم الحياة، وهو فى كثير منها. إن لم نقل كلها. يقيس الأفكار والظواهر والسلوكيات على ما جاء بنص صريح فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية الشريفة. يتحدث مثلاً عن شيوع القبح فى حياتنا وعدم الإحساس بالجمال بل والتقاعس عن مقاومة القبح أصلاً، وكذلك حين يناقش التقاليد والأخلاق أو الفروق الواسعة. والتى تزداد اتساعاً. بين الأغنياء والفقراء، أو حتى فى السياسة وشجونها، عن العراق وفلسطين وكوارث العالم العربى والإسلامى تحت وطأة العولمة والسيطرة الأمريكية على مقدرات العالم، وتدخلها السافر فى شئون البلاد والعباد.

■

المسألة الهمجية

جميل عطية إبراهيم

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٣، ٢٣٨ صفحة

ينتمى المؤلف إلى جيل الستينيات الأدبى، ذاك الذى حفر طريقاً ومذاقاً فى الرواية المصرية المعاصرة، وقد تشارك مع رفاقه فى تأسيس مجلة «جاليرى ٦٨» التى بشرت بروائيين وشعراء ذوى حساسية مغايرة. وقد صدرت له من قبل مجموعات قصصية منها «الحداد يليق بالأصدقاء» و«أحاديث جانبية»، ومن رواياته «أصيلا» و«البحر ليس بملآن» و«النزول إلى البحر» و«ثلاثية ثورة يوليو ١٩٥٢» و«خزانة الكلام» و«أوراق سكندرية» و«نخلة على الحافة». وقد استفاد فى العديد من أعماله، وفى هذه الرواية على وجه الخصوص من عمله مراسلاً صحافياً لعدة صحف وقنوات تليفزيونية وإذاعية من سويسرا حيث يقيم بمدينة بازل منذ عقود.

وتدور هذه الرواية على خلفية اتفاقيات جنيف وتشكيل محاكم الحرب ومباحثات السلام فى البوسنة والهرسك ومذابح شارون وحصار العراق من ناحية، وعالم لوحة الدكتورة سلمى مرجان من ناحية ثانية، فيتأرجح القارئ على حافة سؤال عن عبثية الواقع وحقيقة الفن فى عالم يتمزق.

فى هذه الرواية، ينسج المؤلف لوحة موزاييك متداخلة تترك القارئ على حافة أسئلة عدة عن واقع مجنون يعيش فيه أشخاص يحاولون جادين إضاءة المساحات السوداء فى حياتنا.

■

العبودية فى أفريقيا

عايدة العزب موسى

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠٤، ٢٣٥ صفحة



فى عام ١٩١٨، نشر المستعمرون البريطانيون كتاباً عُرف باسم «الكتاب الأزرق». استهدفوا من وراء نشره فضح ما فعله الاستعمار الألمانى بالأفريقيين لإخضاعهم. كما يحلو لأنفسهم الاستحواذ على المستعمرات الألمانية فى أفريقيا بعد هزيمة الألمان فى الحرب العالمية الأولى. وبعد أن أدى الكتاب هدفه، وتم انتزاع المستعمرات الأفريقية من يد الألمان، اكتشفوا أن الكتاب لا يدين الألمان فقط، وإنما الاستعمار فى مجمله فأمروا بإعدامه.

وقد قرأت المؤلفة الكتاب «الممنوع»، وهالها عمليات السلب والنهب التى تعرضت لها القارة السمراء تحت يد المستعمر الذى يدعى الآن أنه أصل الحضارة والتقدم.. «وإذا كان المستعمر أراد ألا نقرأ كتابه، فقد أردت من كتابى أن نقرأ ماضينا وتراثنا».

والكتاب يضم فصولاً أربعة، يتناول الأول منها المستعمرين الأوائل، ويحكى قصة ترويض «العبيد» بما فيها من قسوة وسحق لآدمية البشر، وموضوعات عن الاستعمار البلجيكى، وحكم ليبولد الثانى ملك بلجيكا للكونغو ٢٣ سنة، هو الذى لم تطأ قدمه أبداً أرض الكونغو، وقد أزهقت فى فترة حكمه أرواح عشرة ملايين أفريقى، ثم البرتغال التى كانت أول من مارس تجارة الرقيق، وكذلك الهولنديين والإنجليز وغيرهم.

ويخصص الفصل الثانى لقضية تعويض القارة الأفريقية عما لحقها من أضرار وما أصابها من تخلف وتدهور بسبب عمليات النهب والابتزاز التى شهدتها طوال عقود الاستعمار، فضلاً عن التعويض عن الآثار النفسية والإنسانية الهائلة لملايين الأفارقة الذين كُبلوا بالأغلال وسيقوا إلى مزارع ومصانع أوروبا.

وتقدم فى الفصل ذاته الأساس القانونى للمطالبة بالتعويض وفقاً لما طرحه المحامى الشهير لورد أنتونى جيفورد عام ١٩٩٣.. أما الفصل الثالث، فخصصته لشخصيات كبيرة وزعامات عظيمة لعبت أدواراً مهمة فى مسيرة القارة السمراء وفى النضال ضد المستعمر.

ويضم الفصل الأخير مجموعة من الوثائق والوقائع عن ممالك ومنظمات وحضارات ظهرت فى أفريقيا ولم تحظ باهتمام الدارسين من قبل.

■

المحافظون الجدد
قراءة فى خرائط الفكر والحركة

أميمة عبد اللطيف

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣، ٨٧ صفحة



يرى مراقبون أن أفكار حركة المحافظين الجدد لا تعبر فقط عن الحزب الجمهورى، وإنما تعكس التيار العام السائد فى أمريكا، ويؤكد هؤلاء أنه بصرف النظر عمن سيكون الجالس فى البيت الأبيض بعد انتخابات نوفمبر ٢٠٠٤، ديمقراطياً كان أو جمهورياً، فإن تأثير هذه المجموعة سيظل قائماً.

ويهدف الكتاب إلى إلقاء الضوء على أهم الشخصيات التى تمسك بخيوط حركة المحافظين الجدد ومصادر تمويلهم، وطرائق ممارسة النفوذ الإعلامى والسياسى وآليات عمل مؤسساتهم. وهو يقدم أفكار هذه المجموعة وآراءها دون بحث أو تحليل، بوصفها وثائق موضوعية تؤكد توجهات هذه المجموعة، التى تعود جذورها إلى تقليد ابتعه الرئيس الأمريكى الأسبق جون كيندى أثناء سنوات حكمه، حين عين مجموعة من الأساتذة الجامعيين المنتمين ليسار الوسط فى مناصب الإدارة واستعان بهم فى رسم السياسات، وتم الاستفادة منهم بعد ثلاثة عقود فى إدارة ريجان، وهكذا يستفيد بوش الابن من تيار تمت صياغته وصناعته فى عقود سابقة.

■

حصاد السنين

عبد الكريم درويش

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٣، ٣١٤ صفحة



شغل المؤلف مواقع قيادية مهمة فى جهاز الأمن المصرى على مدى سنوات طوال، فقد كان رئيساً للمجلس الأعلى للشرطة ونائباً لوزير الداخلية ومديراً

لكلية الشرطة ورئيسا لأكاديمية الشرطة ورئيسا للجنة الأولمبية المصرية، وغيرها العديد من المناصب. وهو فى هذا الحصاد يجمع بين الشخصى والعام، وهما متلازمان بالضرورة طوال مسيرة بدأها ملازمًا فى جهاز الشرطة الذى وصل إلى أعلى مناصبه القيادية. ويحدثنا المؤلف عن بدايات تقدمه للالتحاق بكلية البوليس الملكية، ثم عمله فى عدة مواقع بمصر ودراساته فى أمريكا وفى أسكوتلنديارد. واقترابه من عالم السياسة بحكم المهنة. مركزًا على حوارات مهمة، منها حصار الإنجليز لمبنى قسم الشرطة بالإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢، والموقف المشرف لضباط الشرطة والأفراد فى تلك الأزمة، وهو اليوم الذى صار عيدا للشرطة بعد ذلك، ثم تحديد إقامة فؤاد باشا سراج الدين وزير الداخلية الأسبق فى بداية مارس ١٩٥٢، ومصاحبته للرئيس عبد الناصر من المنشية إلى مؤتمر عدم الانحياز فى باندونج ١٩٥٥، وغيرها من الأحداث التى كان فى بعضها شاهد عيان، وبعضها الآخر مشاركا أو صاحب مبادرة.

■

دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر

مهداة إلى المؤرخ يونان لبيب رزق
تحرير: لطيفة محمد سالم
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ٦٥٤ صفحة



هذا الكتاب طريقة مبتكرة ومفيدة للاحتفاء بالأشخاص الذين يمثلون قيمة ما، والذين أضافوا لميادين اهتمامهم وحقول عملهم. والكتاب الذى شارك فيه عدد كبير من المؤرخين من زملاء وتلاميذ المؤرخ يونان لبيب رزق، عُدّ بمثابة باقة ورد قدمها له المشاركون فى مناسبة بلوغه عامه السبعين، وهى دراسات لا تقتصر على مصر فحسب وإنما تشمل دراسات عن دول غربية وأوروبية. وهو مقسم إلى ثلاثة محاور أساسية: الأول فى تاريخ مصر، والثانى فى الفكر، والثالث فى تاريخ العرب.

من عناوين الدراسات: الصحافة المصرية والاتجاه العربى، المثقفون وأزمة مارس ١٩٥٤، تطور الحياة الفنية فى الإسكندرية، الأرمن وصناعة السجاد، الأحزاب المصرية وحركة التنوير، كوردستان العراق، والأصول التاريخية للحركة الصهيونية.

■

الغنصوية فى الإسلام

هانيس هالم
ترجمة: رائد الباشى
كولونيا: ألمانيا: منشورات الجمل، ٢٠٠٣، ٣٢٠ صفحة



لفظ غنوص من (Gmosis) فى اللغة اليونانية ومعناها المعرفة، وفى المسيحية فإن الغنوص الحق مرادف للعقيدة المسيحية.

والغنوصية تطلق على نزعة فلسفية معينة نشأت بتأثير الديانات اليهودية والبوذية والمجوسية والصينية وتهدف إلى إدراك كافة الأسرار الربانية، ثم انتشرت إلى مناطق متعددة من البحر المتوسط والشرق الأدنى، وهى مرتبطة بدرجة من درجات الغلو فى فهم الدين والمعتقد.

وفى الإسلام، ظهرت الغنوصية كظاهرة شيعية، والمؤلف هنا يتابع ظهور الغنوصية وتجلياتها فى ديار الإسلام ويتناول بعض فرقها بالشرح والتحليل ومنها: الكيسانيون أو الشيعة الأربعية والخرميون والهراطقة حول الإمام محمد الباقر والخطابيون والمخمسة والمفوضة والنصيريون وغيرهم.

■

دليل الموضوعات فى آيات القرآن الكريم

أسامة كامل أبو شقرا
بيروت: المؤلف، ٢٠٠١، ١٢٣٠ صفحة



يمثل هذا الكتاب إضافة مهمة للباحثين فى كتاب الله الكريم، ليس من خلال المفردات فحسب، وإنما عبر موضوعاته، وقد قام المؤلف بتصنيف الآيات فى كل موضوع حسب تسلسل ورودها فى القرآن الكريم كما جُمِع، لا حسب نزولها. وصنّف فصول الكتاب ضمن أبواب حسب ترابط موضوعاتها واندراجها تحت عنوان أساسى واحد، فمثلا إذا أراد الباحث معرفة الآيات التى بحثت أمور الزواج فيجدها فى فصل الأحوال الشخصية ضمن باب «القانون المدنى»، وهكذا، كذلك يخصص المؤلف فصولاً للأنبياء يجمع فى كل فصل منها الآيات التى ذكرت النبى فى سور القرآن الكريم كله.

يقع الكتاب فى عشرة أجزاء يتضمن كل جزء منها عدة أبواب وتحت كل باب عدة فصول.

من عناوين الأجزاء العشرة: أركان الإيمان، الفرائض، المحرمات والنواهى، أخلاقيات المسلم، أسس القوانين، الخلق والمخلوقات، أهل الكتاب، العلوم فى القرآن، بيت الله الحرام، وخير الدعاء ما جاء فى كتاب الله.

■

السودان وأهل السودان

يوسف الشريف
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٤٧٥ صفحة



تضيف الطبعة الجديدة من هذا الكتاب إلى «طبعته الأولى» التى صدرت قبل ٧ سنوات، تحليلا ورؤية لكثير من الأحداث التى جرت فى السودان والتى تتلاحق بطريقة تغرى بالمتابعة.

غير أن المؤلف لا يكتفى بالتعليق على الأحداث السياسية كاتفاق مشاكوس والمبادرة المصرية الليبية واحتمالات الصدام بين مصر والجبهة الإسلامية التى يتزعمها الترابى.

والعلاقة بين حكومة الخرطوم وحركة جون قرنق وغيرها من المسائل الشائكة.

إنما يتناول أيضا جماليات وفنون أهل السودان، فهو يرى السودانيين فى العمق أهل طيبة وفن وأنس ومغنى، فضلا عن قدراتهم غير المحدودة فى التحايل على الحياة وتجاوز مصاعبها بخفة الروح والابتسامة وابتداع فنون من القول والموسيقى وثيقة الصلة بتراث السودان شديد الثراء.

وقد خصص الباب الرابع من كتابه لجماليات وفنون أهل السودان، ويخصص الباب الثانى لعلاقته مع الدكتور حسن الترابى زعيم الجبهة الإسلامية، وهو الرجل القوى الذى كان له تأثير كبير على مجريات الأمور فى السودان فى السنوات الأخيرة، وقد امتد تأثيره هذا إلى خارج حدود السودان، فى الوطن العربى والعالم كله.

فى خمسة أبواب، سعى المؤلف أن يرى السودان من خلال الثقافة والمجتمع والشخصية السودانية، لا من خلال الانقلابات العسكرية التى يتلوها حكم مدنى ثم يتلوه انقلاب عسكرى، وهكذا فى دوامة أثرت كثيرا على مسيرة هذا البلد، الذى يتوق أهله إلى الحرية والديمقراطية والسلام.

ولذلك يجد القارئ للكتاب مقابلات جمعت المؤلف بالقادة والفاعليات السودانية من أمثال البشير والترابى وجون قرنق والميرغنى وغيرهم، لكنه أيضا سيجد لقاءات مع المطرب السودانى الكبير محمد وردى، والساخر على مدنى الشهير بشهفوفة، والمطرب عبدالكريم الكابلى والمطرب عثمان اليمانى، بالإضافة إلى عشرات الحكايات الأخرى التى نصادف فيها شخوصا فى أنشطة الحياة المختلفة.

■

السلام والحب والشفاء

بيرنى سيجل
ترجمة: عزت شعلان
دمشق: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٣٢٧ صفحة



للوهلة الأولى، لا يبدو أن ثمة علاقة بين صحة البدن، ومشاعر الحب والتفاؤل والأمل، أو على الأقل، ليست ثمة علاقة لازمة بين الطرفين. لكن مؤلف هذا الكتاب، وهو أستاذ للجراحة فى جامعة ييل بالولايات المتحدة وكان رئيسا للجمعية الأمريكية للطب الشامل عام ١٩٨٨ يؤكد أن العلاقة وثيقة بين الصحتين النفسية والبدنية.

وتقوم فلسفته فى العلاج على الإيمان بأثر العقل فى الجسم وبث روح الأمل والإرادة لدى مرضاه، كى يمكنهم من تجاوز محنة المرض، ويدعو إلى نشر الحب والإقبال على الحياة دون إهمال العلاج الطبى الحديث، وإلى التكامل بين الجوانب الجسمية والنفسية والروحية فى علاج المرض.

وإلى جانب شرحه المبسط الوافى لأفكاره، يقدم نماذج تطبيقية لهذه الأفكار، من خلال مرضى شفى بعضهم من أمراض جزم الأطباء باستحالة الشفاء منها، كالسرطان مثلا.

وقد فعلوا ذلك بقوة الإرادة وبالقدرة على مقاومة المرض والرغبة فى الحياة، إنها «فسيولوچيا التفاؤل» كما يسميها، تلك التى تحول بينه وبين المرض.

■

فى رحاب «خالد محمد خالد»

■ الدين عند خالد محمد خالد رحب وواسع وبهيج، يحل فيه الحب محل الخوف، والاقتناع بدلاً من القسر، يفعل هذا من خلال عباراته الأدبية وإحساسه الفنان.

قبل ذلك بكثير كنت قد التقيت بالأستاذ خالد لقاءً خاصاً جداً بين دفتى كتبه. كنت فى الرابعة عشرة عندما عشت وتدثرت بكتاباته الساطعة. تعلمت منها أن أعيش فى «ضمير المعرفة» كما يصفها. معظم ما تبقى من كراساتى القديمة كانت بها عبارات «خالد» المأثورة التى استقاها من مناهله الثابتة وأنهاره الغزيرة. لم أكن وحدى فى هذا كله.. كان معى جيل بأكمله بل أجيال تحفظ كلماته «من هنا نبدأ»، «هذا أو الطوفان»، و«الديمقراطية أبداً».. وغيرها. كان أمراً جللاً بقدر ما هو مضىء للنفس أن تقرأ لخالد ضد الكهانة ومع الدين الحقيقى كتاباته ستظل عالقة بنفوس قرائه تجدد فيها معنى الدين الخالد، مع حرية الإنسان التى تنبع من العبودية لله وحده، كان ثائراً ضد التقاليد الاجتماعية البالية وكان قريباً من الشاب فى حيرته، ومن الفتاة فى آمالها المكبوتة.. وقبل هذا كان مع الشعوب فى بحثها عن الاستقلال ومع العدالة الاجتماعية ومع الكرامة الإنسانية.. كان كله ضد الظلم والقهر.. وكان يفعل هذا بروحه لا بقلمه، آه كم كان صديقاً!

كان خالد محمد خالد هو صديقى الحقيقى الذى أخذ بيدى وأجاب على أسئلتى وكانت أى أزمة تسيطر علىّ سرعان ما أجد لها مخرجاً من كلماته.

بعد كتاباته الأولى المؤثرة مضت السنوات الطوال ولم أعرف أين اختفى الأستاذ خالد؟

احتجب عن القراء بعد وقفته الشامخة فى اللجنة التحضيرية أمام جمال عبد الناصر. وقفة أنقذت شرف الفكر المصرى كله.. وقف مساندا الديمقراطية شاجباً فكرة العزل السياسى مواجهاً ناصر وهو فى أوج سلطانه بكلمة «لا» لم يعتد الرئيس أن يسمعها. بعدها احتجب الأستاذ.

فجأة شاهدت كتاباً له بعنوان «إنسانيات محمد» التقطت الكتاب وأنا شبه مندهشة لتحول نوع الكتابة. كتبت فى جريدة الأحرار أتساءل: هل كاتب من هنا نبدأ يريد أن يبحث له عن مرفأ بعيداً عن الأعاصير بهذه الكتابة المأمونة عن الدين والأنبياء؟.. لكنى وجدته كما تركته.. ها هو أستاذى وصديقى بروحه وعقله وثوريته وحبه كل ما بدا فى الظاهر مختلفاً هو الموضوع.

كان العالم الذى يعيشه خالد يتسم بالبلّورية.. أحسستها من خلال تلك الجلسات الرائعة التى قل أن يجود الزمان بمثلها. مع ذلك فقد بدت عليه آثار الإجهاد من الرحلة الفكرية والنفسية الطويلة، ومن خلال محطات التوقف التى كان يلجأ لها مرة ليرفض وأخرى ليحمى نفسه أو يستريح.

أثرت الديكتاتورية الباطشة لثورة مصر العسكرية على مسار هذا المفكر الكبير وتوقف لسنوات طوال خاصة فى الفترة التى تلت موقفه فى مجابهة عبد الناصر.

قال لى ابنه أسامة خالد: «لقد عانى أبى مدة طويلة من الاكتئاب. توقف عن الكتابة ما يقرب من عشر سنوات.. بدأ الاكتئاب يزحف إليه فى أعقاب موقفه من عبد الناصر.. كان يتصور أنه بإمكانه أن يؤثر على عبد الناصر ويقنعه بالديمقراطية كما أقنعه فى مجالات أخرى وأثر عليه بشأن تحرير الفلاح والمساواة الاجتماعية التى طالب بها فى «مواطنون لا رعايا».. إلخ.

ذهب أبى ليقول كلمته لكنه لم يجد أحداً من أصدقائه بجانبه بل لقد أصيب بعضهم بالغيرة منه فصاروا يهاجمونه ويسفهونه.. هذا الموقف منه جعله يحس بالصدمة والوحدة.. لو أن عبد الناصر كان أودعه السجن لربما كان هذا أرحم من سجن العزلة بين الناس.. هذا نوع من التدمير النفسى الداخلى دون مواجهة».

عمد الأستاذ فى كتاباته الدينية إلى التركيز فى التعبير عن (قلبه الإسلامى) وقلب «خالد» ليس ككل قلب فما من أحد مثله يستطيع أن يحبب القارئ فيمن أحب. كان من الطبيعى أن تروج على أوسع نطاق كتبه الإسلامية الرائعة (إنسانيات محمد) و(خلفاء الرسول) و(رجال حول الرسول). وجدت هذه الكتب انتشاراً كبيراً على مستوى العالم العربى وخاصة فى المملكة العربية السعودية.

يقول أسامة خالد إن علاقة مفكرنا بالأسرة المالكة السعودية كانت حميمة يحيطها التبجيل والقرب، وقد لاحظت هذا بنفسى فى زيارات للأستاذ حيث كانت أسئلة الأمير طلال أو غيره عن الأستاذ فى حالات المرض ورعايته من كل النواحى فى هذا الشأن.

بالرغم من أن روح «خالد» الثائرة كانت تحلق بهذه الكتابات إلا أنها تختلف عن دوره الأول كرائد من رواد التنوير فى الفترة الأولى الشهيرة.. أيام من هنا نبدأ.

قام الأستاذ خالد بدوره الفكرى منفرداً غير متكئ على مؤسسة أو حزب. إذا تركنا الفكر إلى المنهج فسنجد اختلافاً فى منهجه الذى استخدمه فى المرحلة الأولى وبين هذا المنهج الوجدانى الذى يركز على الجمال فى العقيدة الإسلامية ونبيها ورجالها الأوائل.

تبعت كتب خالد الإسلامية مقالاً نشره فى الأخبار فى أغسطس ١٩٧٧ فيما يشبه البيان. أوضح رأيه فى مراجعة صريحة لأفكاره السابقة بشأن فصل الدين عن الدولة. كان عنوان مقالته (دين ودولة عبادة وخلافة).

يلاحظ بالمقارنة بروح كتاباته الأولى أن الأستاذ خالد لم يعد يركز على المشكلة الاجتماعية ومشاكل الفقر والغنى كما كان يفعل بتحديد كبير سابقاً.

صارت كتاباته عن هذه القضية تتسم بالندرة والعمومية المفرطة.

يرى د. شاكر النابلسى أن الأسباب التى ساقها خالد محمد خالد بشأن مراجعته الفكرية ليست هى الأفكار الحقيقية المقنعة ويقول فى هذا رأياً له قيمته: إنه لا يمكن الحكم على موقف خالد إلا من خلال التغيرات الفكرية والاجتماعية التى ألمت بالعالم العربى. فإن الإخوان المسلمين الذين وقف لهم خالد محمد خالد مناهضاً فى ١٩٥٠ قد عادوا فيما سمى بالجماعات الإسلامية، عادوا بعد أن اضطهدوا وشردوا وقد زادهم الاضطهاد قوة وصلت أوجها باغتيال السادات. يرى د. النابلسى أن هذا المد الدينى قد أخاف بعض المفكرين وعلى رأسهم خالد محمد خالد.

رأى «خالد» أن العودة إلى ربط الدين بالدولة وتطبيق الشريعة من شأنه أن يحد من العنف السياسى لذا طالب بتطبيق الشريعة الإسلامية فوراً. ساعد على ذلك أيضاً إفلاس وفشل الأحزاب السياسية العربية يميناً ويساراً فى إقامة الديمقراطية، فضلاً عن الهجمة الاستغرابية على العالم العربى والتى تمثلت سياسياً فى معاهدة كامب ديفيد وغزو لبنان، كل هذا جعل الحاجة تبدو ملحة إلى إسلام عصرى فى مواجهة الإسلام السلفى التقليدى.

تتميز كتابات «خالد» الإسلامية بتركيزه الشديد على معنى الرحمة فى الدين. كتبه تتألق فيها الأحاديث الشريفة التى تحنو على الإنسان «صاحب البؤس العظيم» كما كان يصفه «خالد». نقرأ معه قول النبى الكريم «إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرماً من سأل عن أشياء لم تكن محرمة عليهم فحرمت بسبب مسألته» أو أن الإمام أن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة.. إلخ.

اتسمت كتاباته بالجمال المعنوى والبهجة الجياشة والتفاؤل حتى فى أشد المواقف قسوة، وهى غبطة خاصة يتميز بها «خالد» فى حبه المترع للحياة بهجة كالطفولة لا تفارقه ومقدرته على استنباطها من موضع أو آخر من نفسه.

فى كتاباته يبتعد تماماً عن صلف العقاد الفكرى ويبتعد أيضاً عن النبرة الحزينة التى كثيراً ما كست كتابات د. زكى نجيب محمود رغم عقلانيته. ■

صفحات من كتاب:
نبضات القلب: شخصيات فى مصر
سهير اسكندر
القاهرة: دار المقطم، ٢٠٠٣، ١٤٢ص

The Majesty of Law:Reflections of a Supreme Court of Justice

(صاحب الجلالة القانون.. تأملات فى المحكمة العليا الأمريكية)

Sandra Day o'Conor

Random House, 352PP.,$ 25.95



يعتبر قاضى المحكمة العليا فى الولايات المتحدة أعلى منصب قضائى فى البلاد وهو ذروة الترقى لأى شخص يعمل بالقانون. وهناك كتب كثيرة عن عمل المحكمة العليا والسوابق التاريخية التى أرستها واختيار أعضائها من جانب الرئيس الأمريكى وغير ذلك من القضايا المهمة.

وتعتبر مؤلفة هذا الكتاب ساندرا داى أوكوفور أول سيدة أمريكية تصبح قاضية فى المحكمة العليا.

ولذلك يأتى كتابها بمثابة سرد لخبرة كبيرة عن عملها فى المحكمة، كما يتضمن الكتاب مقالات عن تاريخ المحكمة واقتراحات لإصلاحها.

The Kite Runner

(طفل الطائرة الورقية)

Khaled Hosseini

Bloomsbury, 2003,324PP.,

£ 12.99



تدور هذه القصة وهى الأولى لمؤلفها خالد حسينى فى العاصمة الأفغانية كابول خلال سبعينيات القرن العشرين عندما كانت كابول تعيش هادئة فى سلام قبل أن تدخل ومعها البلاد فى دوامة حروب وأزمات لازالت آثارها ممتدة حتى الآن.

راوى القصة طفل يدعى أمير يبلغ من العمر ١٢ عاماً ويعيش مع أسرته فى الجزء الغنى فى كابول، وقد توفيت والدته عند ولادته ولذلك فإن والده هو الذى تكفل بتربيته مع مساعده على. ويرتبط أمير بصداقة وطيدة مع حسان نجل على ويقوم الطفلان بتسلق الأشجار وقذف كلاب الجيران بالحجارة والطوب ومطاردة الطائرات الورقية.

وأمير فى هذه القصة ليس قارئًا فقط، بل هو مؤلف مبتدئ.

وبينما لا يعرف حسان القراءة أو الكتابة إلا أنه يحب الاستماع إلى أمير وهو يقرأ بصوت عال ويستطيع أن يكتشف أى محاولة من أمير لكى يؤلف قصة وهمية غير منطقية.

لكن كل شىء ينقلب رأسا على عقب مع الانقلاب على الملكية.

ورغم أن هذا الانقلاب لم يكن دمويًا إلا أن أصوات طلقات النيران التى كانت تنطلق فى شوارع كابول كانت تصم آذان أمير لأن الأطفال الأفغان الذين لم يكونوا يعرفون شيئًا سوى أصوات القنابل وطلقات النيران لم يولدوا بعد.

وخلال القصة يخوض أمير والأطفال من جيلين صراعًا مريرًا للتعرف على هويته، فعليه أن يقبل على سبيل المثال أن رفيقه حسان من الطبقات الاجتماعية الدنيا وعليه أن يعرف أكثر وأكثر عن والدته لكن والده لا يتكلم عنها سوى القليل.

وأفضل ما فى القصة وصف الأماكن والناس فى زمن نهاية البراءة فى أفغانستان حيث يقدم المؤلف تصويرًا رائعًا لبلد كان يوشك على الدخول فى طريق الفوضى والحرب.

Inventing Japan: From Empire to Economic Miracle 1853- 1964

(اكتشاف اليابان.. من الامبراطورية إلى المعجزة الاقتصادية ١٨٥٣ - ١٩٦٤)

Ian Buruma

London,Weidenfeld,2003,$12.99



يختار المؤلف، وهو باحث وكاتب ذائع الصيت معروف بدراساته العميقة لحظتين فى التاريخ اليابانى لكى يبدأ وينتهى من كتابه.

الأولى: «صدمة التعرف المباشر على الغرب» عام ١٨٥٣ عندما شق الغرب طريقه إلى اليابان.

والثانية: عام ١٩٦٤ عندما نظمت طوكيو دورة الألعاب الأوليمبية لتحفر بذلك مكانها فى التاريخ الحديث.

ويقول المؤلف فى عبارة مختصرة لكنها بالغة الدلالة تكاد تفسر مسيرة التاريخ اليابانى فى تلك الفترة الطويلة.. لقد تصرفت اليابان بشيزوفرينية، وربما بعنف أحيانًا فى محاولتها الحفاظ على شرقيتها وقيمها، وفى الوقت نفسه تقبل القيم الغربية.

ويقدم إيان بورما مسحًا وتحليلاً لهذه المسيرة مع تعليقات عميقة تفسر أسباب التحول الكبير. وفى نفس الوقت الحفاظ على الأصالة. لقد خرجت اليابان منهارة من الحرب العالمية الثانية لكنها بدأت تقف على قدميها من جديد.

ولم يكن ذلك الإنتاج عملا شاقا ورغبة غير مسبوقة فى إثبات مدى قدرة اليابانيين وأهليتهم لكى يحتلوا مواقعهم المناسبة على الساحة العالمية، لكنه أيضًا كان استكمالاً لمسيرة طويلة من التحديث بدأت فى القرن التاسع عشر مع عصر الإمبراطور «ميجى».

وحانت لحظة ظهور الحقيقة على الملأ مع انطلاق دورة الألعاب الأوليمبية فى طوكيو عام ١٩٦٤ ليفاجأ العالم بقوة اقتصادية جديدة تنضم إلى قوى العالم الكبرى الأخرى.

Michael Jackson: The Magic and the Madness

(مايكل جاكسون.. السحر والجنون)

J Randy Taraborrelli

Sidgmick, 2003, £ 18.99



قبل أسابيع انشغل الرأى العام الأمريكى وربما العالم بالاتهام الذى وُجّه إلى نجم الغناء الأمريكى مايكل جاكسون وهو ممارسة غير أخلاقية مع أحد الأطفال.

وأصبح الخبر أو الاتهام لعدة أيام على صدر نشرات التليفزيون الأمريكية فى أوقات الذروة، وكذلك فى البرامج والجرائد والمجلات.

وهذا الكتاب لا يرد على التساؤل: هل فعل جاكسون ذلك أم لا؟

لكن يغوص فى أعماق شخصية نجم البوب من كافة الجهات ويعود إلى أيام الطفولة ويتحدث بالتفصيل عن مايكل جاكسون وأسرته وآماله وآلامه والإحباطات التى تعرض لها وكذلك النجاحات التى أبهرت العالم وجعلت منه واحداً من أغنى الفنانين على مدى التاريخ مما أهله لكى يعيش حياة أسطورية حتى بالمقاييس الأمريكية.

إن المؤلف يترك القارئ لكى يفكر ويتأمل فى سيرة حياة جاكسون خاصة مرحلة الطفولة التى كان الأب قاسياً فيها على أولاده وجعلهم يعملون منذ الصغر ومنهم بالطبع مايكل جاكسون..

هل أثرت هذه الطفولة البائسة على الشاب مايكل جاكسون والرجل فيما بعد؟ بالطبع هناك تأثير كبير أبرزه حب مايكل جاكسون غير الطبيعى للرفاهية وحياة القصور وامتلاك الطائرات.

ولكن هل كان لذلك تأثير على ممارساته الأخلاقية؟

إن هذا ما يجب تركه لجهات التحقيق فى الولايات المتحدة.

Shout.. The True Story of the Beatles

(صيحة.. القصة الحقيقية للبيتلز)

Philip Norman

Sidgmick, 2003, £ 12.99

هل بقى شىء لم يتم الكشف عنه بالنسبة لفرقة البيتلز البريطانية التى ظهرت فى ستينيات القرن العشرين ملأت الدنيا وشغلت الناس.

إن المؤلف على دراية غير عادية بحياة أفراد الفرقة ولذلك فهو يتحدث من جديد عن موت جورج هاريسون وزواج بول مكارتنى من جديد.

وحالات الإعجاب المتجددة بالبيتلز مع ظهور فرقة فنية جديدة مثل «أويسيس» الواحة وغيرها.

إن المؤلف مازال يصر على أن البيتلز هى أعظم قصة حب فى القرن العشرين.

ورغم خلافه مع بعض أفراد الفرقة خاصة مكارتنى إلا أنه قام بشكل رائع بتوفيق حياة الفرقة وتأثيرها الكبير، خاصة فى سنوات الستينيات وبداية السبعينيات.

ثم الانقسام الكبير بين أفرادها، الأمر الذى أنهى بسرعة قصة الحب تلك لتصبح مجرد ذكرى.

America Unbound: The Bush Revolution in Foreign Policy
(ثورة بوش فى السياسة الخارجية)
Ivo Daalder and James M. Lindsay
Brookings Institution Press, 245PP., $ 22.95



يخصص المؤلفان كتابهما للدفاع عن الرئيس الأمريكى جورج بوش وبشكل خاص سياسته الخارجية وهى مجال الدراسة فى هذا الكتاب.

إن النظرة للرئيس بوش الابن هى أنه شخص أحمق عنيد ليس لديه أفكار حقيقية، وهذه النظرة موجودة فى خارج الولايات المتحدة أكثر منها فى الداخل.

إلا أن المؤلفين يقولان إن هذه النظرة غير صحيحة وعارية عن الحقيقة.

ويشير المؤلفان وهما من الباحثين الأمريكيين فى مجال السياسة الخارجية إن بوش شخص لديه رؤيته الخاصة وأفكاره التى يريد تنفيذها.

إنه يرى نفسه كما لو كان رئيسًا تنفيذيًا لمشروع ضخم يستهدف تحقيق أهدافه، وعلى هـذا الأساس يتصرف بوش.

ويتناول الكتاب رؤية بوش للعالم وهى كما يقول المؤلفان رؤية واضحة وغرضها إيجاد الموقع المناسب لأمريكا فى عالم اليوم باعتبارها القوة العظمى الوحيدة حاليًا.. الموقع الذى يجعلها قائدة بشكل يتناسب مع إمكاناتها وقدراتها.

■

The Last Escape
(الهروب الأخير)
John Nichol and Tony Rennel
London, Penguin, £ 7.99



يحكى الكتاب قصة آلاف الجنود من أسرى الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية والذين وقعوا فى مصيدة النازى وجرى سجنهم فى معسكراته خلال عامى ١٩٤٤ و١٩٤٥، حيث تعرضوا لجرائم بشعة انتهت بموت كثيرين منهم.

ومن خلال التعرف على ذكريات الذين نجوا من هذه المعسكرات. يرسم المؤلفان صورة نابضة بالحياة عن لحظة شديدة القتامة فى تاريخ البشرية. ويصوران كيف تم إجبار الأسرى على السير فى «مسيرات الموت» التى كانت تمتد لمئات الأميال، وذلك لإبعادهم عن أيادى قوات الحلفاء المنتصرة التى كانت تتقدم صوب هزيمة ألمانيا النازية..

ويتناول الكتاب قصصًا مليئة بالشجاعة والمغامرة حاول خلالها بعض السجناء الهروب من واقعهم الأليم من خلال تدبير مؤامرات للهروب أو حفر أنفاق طويلة تحت الأرض للهرب وهو ما كانت السينما الأمريكية تحديدًا قد سجلته.

هناك أيضًا جنود عاديون وطيارون وقعوا فى براثن الأسر وحاولوا قدر إمكاناتهم التخلص من عبء الأسر لكنهم فشلوا وهم ليس أقل شجاعة وقدرة من الآخرين.

■

Dude, Where's My Country?
(أين بلدى؟)
Michael Moore
Warner Books, 2003, 272PP., $24.95



بعد مشهده المثير أثناء تسلمه جائزة «الأوسكار» عن فيلمه التسجيلى، ثم النجاح المدوى لكتابه «رجال بيض أغبياء»، يواصل مايكل مور حملته السياسية ضد إدارة بوش من خلال كتابه الثانى «أين بلدى؟».

يستخدم مور لغة بسيطة، ومباشرة فى تقديم نقده اللاذع لإدارة بوش والمحافظين فى أمريكا. كما تتمتع كتبه بخفة ظل كاريكاتورية مما جعل كتابه الأول يتصدر قائمة الأفضل مبيعًا لعدة أسابيع. فى هذا الكتاب يشير مور إلى ويزلى كلارك باعتباره المرشح الديمقراطى الأفضل، ويمدحه كثيرًا معلنًا تأييده له فى حملته الرئاسية القادمة.

■

Seven Myths of the Spanish Conquest
(سبع خرافات حول الغزو الإسبانى)
Matthew Restall
Oxford UP, 2003, 218PP., $28.00



يتحدى هذا الكتاب التاريخ الشائع عن الغزو الإسبانى للعالم الجديد أو القارتين الأمريكيتين الذى يعتقد المؤلف أنه مبنى على مجموعة من الخرافات. فمثلاً ليس صحيحًا . حسب ما يقول ماثيو رستال . أن مجموعة صغيرة من الإسبان هزمت إمبراطوريات بأكملها من السكان الأصليين فى وقت قصير، كما أنه ليس صحيحًا أن السكان الأصليين اعتقدوا أن الإسبان آلهة جدد وعبدوهم، فهذه المقولات روجها المؤرخون الإسبان تعظيمًا لأنفسهم. ويحاول رستال فى مراجعته التاريخية إثبات أن ما حدث بالفعل كان أقرب للحرب الأهلية بين السكان الأصليين أنفسهم، فالجيش الإسبانى صغير الحجم عاونه مجموعات كبيرة من الهنود والأفارقة المنتمين لقبائل وممالك مختلفة من أجل تصفية حسابات داخلية بينهم وبين بعضهم البعض.

■

The Victorian House: Domestic Life from Childbirth to Deathbed
(منزل فيكتورى.. الحياة العائلية من الطفولة حتى الوفاة)
Judith Flanders
Harper Collins, 2003, £ 20.00

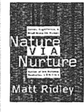


لا يتذكر كثيرون عن العصر الفيكتورى الذى شهدته بريطانيا خلال القرن التاسع عشر حينما كانت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس سوى طرازه المعمارى سواء فى شكل المنازل أو القصور وغير ذلك. لكن أهم ما فى العصر الفيكتورى علاوة على قيمه الاستعمارية والتوسعية أن مبادئ وقيم ذلك العصر أثرت تأثيرًا مباشرًا على الحياة فى شتى مجالاتها فى بريطانيا وبشكل أكثر تحديدًا فى النواة الصغيرة وهى الأسرة. فالأمر لم يكن هيكلاً معماريًا فقط بقدر ما كان بنية هذا الهيكل وسلوكيات القائمين عليه أو الخاضعين له.

ومؤلفة الكتاب جوديث فلاندرز تأخذ قارئها فى رحلة عبر الزمان والمكان فهى تعود إلى أجواء القرن التاسع عشر لكنها تتجول داخل منزل فيكتورى من حجرة النوم إلى دورة المياه إلى حجرة تربية الأطفال إلى المطبخ وغرف الطعام والمعيشة. وهى تستكشف كل صغيرة وكبيرة فى هذا المنزل الذى مازالت الآلاف منه موجودة فى المدن البريطانية. وتوضح كيف اختلف استخدام هذه المنازل حاليًا عما كان عليه الأمر فى بداية بنائها فى القرن التاسع عشر. ولا تكتفى المؤلفة بذلك بل تتحدث عن طريقة معاملة الخدم فى هذه المنازل، فالمنزل الفيكتورى كان يعكس نمط حياة شعب إمبراطورى يستحوذ على مساحات كبيرة من العالم آنذاك. وظهر ذلك فى فخامة هذه البيوت وعظمتها، بل إن المؤلفة تحدثت فى الكتاب عن أوراق الحمام التى كانت مستخدمة فى ذلك الزمن. وعن العلاقات الأسرية وكيف أثرت القيم الفيكتورية المحافظة اجتماعيًا على العلاقات الأسرية وكذلك نمط التعاملات بين الأسر والقيود التى كانت تفرضها الأسر على العلاقات بين الرجل والمرأة. وكان هذا النظام الاجتماعى يجد دعمًا له من السلوك المحافظ للملكة فيكتوريا التى كانت رمزًا واسمًا له.

■

Nature Via Nurture: Genes, Experience, and What Makes Us Human
(الطبيعة عبر التنشئة: الجينات والخبرات وما يجعلنا بشرًا)
Matt Ridley
Harper Collins, 2003, 325PP., $25.95



هل الطبيعة المتمثلة فى الجينات هى المسئولة عن تحديد خصال البشر وصفاتهم، أم أن البيئة المتمثلة فى التنشئة هى العامل الأهم؟

ظل هذا السؤال موضوعًا لجدل علمى واسع دام أكثر من مائة عام، وانقسم العلماء إزاءه إلى فريقين. ولكن فى فبراير من عام ٢٠٠١ أعلنت لجنة الجينوم أن الشفرة الجينية للإنسان لا تحتوى سوى على ٣٠.٠٠٠ جين. وليس ١٠٠.٠٠٠ جين كما كان يظن العلماء.

وقد أدى هذا الاكتشاف بالعلماء إلى

مراجعة رأيهم القائل بأن كل ما يتعلق بالبشر موجود فى الجينات حيث أن عدد الجينات اتضح أنه أقل بكثير من عدد الخصال الإنسانية. يقول مات ريدلى (مؤلف كتاب «الجينوم») فى كتابه هذا أن هذا الجدل ما هو إلا خرافة، حيث إن التنشئة تعتمد على الجينات، وأن الجينات تحتاج إلى التنشئة. والجينات تعد نتائج للإرادة الإنسانية كما هى مسببات لها. وفى النهاية ينحاز مات ريدلى للاعتقاد بأن الإنسان يتمتع بإرادة حرة، تحفزها الغريزة والثقافة. المؤلف يعالج هذه القضية العلمية المثيرة بأسلوب بسيط وشائق يسهل للقارئ غير المتخصص استيعابه.

■

What Ever you Say I Am: The Life and Times of Eminem

(حياة إمينيم وزمنه)

Anthony Bozza

Crown, 2003, 278PP., $ 23.00



فى عام ١٩٩٩، التقى الصحفى أنتونى بوزا مع المغنى الجديد آنذاك «مارشال ماثرز» أو «إمينيم» من أجل مقابلة صحفية لمجلة «رولنج ستونز» الموسيقية. وعندما ظهرت صورة إمينيم على غلاف هذه المجلة لأول مرة بفضل هذه المقابلة، كان ذلك بمثابة بداية الشهرة الصاروخية التى انطلقت بها نجومية إمينيم فيما بعد. ففى غضون عامين أصبح إمينيم الأيقونة الجديدة فى الثقافة الشعبية الأمريكية.

ليس هذا فحسب، فإلى جانب شعبيته وجماهيريته بين الشباب، فقد نال إمينيم أيضاً جوائز النقاد متمثلة فى حصوله على جائزة «جرامى» عدة مرات متتاليات، بالإضافة إلى جائزة «أوسكار».

وقد لفت إمينيم الأنظار لكونه أول أمريكى أبيض يقتحم موسيقى «الهيب هوب» و«الراب» التى كانت حكراً على الأمريكيين السود، كذلك لفت الأنظار بتصريحاته المعادية للشواذ وللمرأة، وبلغته البذيئة.

يحلل الكتاب شهرة إمينيم ومواقفه الهوجاء من خلال طفولته البائسة فى مدينة ديترويت المليئة بالتوترات العرقية، وعلاقته بأمه وزوجته السابقة.

■

Brick Lane

(ممر الطوب)

Monica Ali

Simon & Schusher, 2003, $ 25.00




حازت تلك الرواية الأولى للمؤلفة البنغالية «مونيكا على» استحسان النقاد فى بريطانيا والولايات المتحدة، كما رشحت لنيل جائزة «بوكر» لعام ٢٠٠٣م.

تروى الرواية حكاية أختين من بنجلاديش، الأولى جميلة والثانية عادية المظهر. وفى حين تختار «حسنية» الجميلة مصيرها وتتزوج ممن تحب، تضطر الثانية «نازنين» إلى زواج تقليدى يدفعها للسفر إلى لندن حيث يقيم العريس الأكبر سناً. تتوالى أحداث الرواية من خلال الخطابات التى تتبادلها الأختان، ويتضح من خلال تطور حياة كل منهما صعوبة الفصل بين حرية الإرادة والاختيار من ناحية وحكم الظروف والقدرية من ناحية أخرى. فالزواج التقليدى الباهت أفرز مع السنين نوعا من الحب والالتزام والمسئولية، حتى وإن لم يكتمل أبداً إلى النعيم الزوجى، وتهدد فى مرة بحب رجل أصغر سناً من نفس المجتمع الآسيوى فى لندن. والزيجة التى تمت عن اختيار حر وحب جارف تهدمت بعد أن آلت إلى العنف الجسدى. ثم تأتى السنوات ببنات «نازنين» المراهقات المولودات فى انجلترا بأحلام أخرى ومعارك جديدة ولكن فى نفس حلبة الصراع الأزلى بين الإرادة والقدر.

■

La Prostitution Coloniale Algerie, Tunisie, Maroc 1830-1962

الدعارة الاستعمارية: الجزائر وتونس والمغرب من ١٨٣٠ إلى ١٩٦٢)

De Christelle Taraud

Payot, 496P., £ 25.00



فى دراسة حول الدعارة الاستعمارية، تتناول كريستل تارو بالتحليل تحول الشرق الذى طالما داعب خيال الغربيين إلى بؤرة انحلال ومصير عاهرات المغرب العربى بين عالمهم الأصلى والنموذج الأجنبى المضاد.

نظمت مهنة الدعارة فى بداية القرن التاسع عشر لتتمتع لاحقاً بثقلها وانتشارها. ولم يكن هذا النظام الفرنسى الذى يستوجب تسجيل العاهرات وإخضاعهن للفحص الطبى والنفى بصفة جزئية إلا نتيجة منطقية لمعايير جنسية فرضها سريان اللاهوت الأخلاقى منذ القرن الخامس عشر. وتقدم لنا كريستل تارو فى كتابها «الدعارة الاستعمارية» تحليلاً بالغ الدقة لآليات الدعارة فى المغرب العربى إبان الاستعمار. وتعتبر دراستها امتداداً للدراسات السابقة التى تناولت تنظيم المهنة. ففى نحو عام ١٨٣٠، كان الرحالة الغربيون ينخرطون فى البحث عن الملذات الجسدية فى شرق كان يرمز بالنسبة إليهم إلى الفردوس الذى تسكنه حوريات منعزلات يانعات. واكتشفوا، بكثير من الدهشة والافتتان، كرم الضيافة الجنسية الممارس فى بعض الدور والملذات التى تقدمها إليهم خليلات الخيم ورهافة العوالم فى المدينة، مما دفعهم إلى اعتبار هذا المسلك أشكالاً بذيئة للبيع والشراء.

بيد أن الإفراط فى وضع القوانين واللوائح المفروضة من جانب المستعمر قد قلب الأوضاع رأساً على عقب حيث فرض الفرنسيون فى شمال أفريقيا العزل والتهميش على الفتيات. ففى الوقت الذى سادت فيه العاصمة موجة من الرفض إزاء إقامة الأحياء المشبوهة عمدت الإدارة إلى إنشائها فى المدن الرئيسية فى المغرب العربى وعليه أصبح حى بوسبير فى الدار البيضاء مقصداً إجبارياً لأكثر السائحين تعجلاً إلا أن النظام الفرنسى قد دفع إلى تكوين شبكة معقدة من البيوت السرية.

تحدد كريستل تارو الأسلوب الذى وصمت بسببه الفتيات. وهن الخاضعات فى آن واحد لسلطة الرجل ولهيمنة الاستعمار، بسبب خرقهن المزدوج للقوانين. فلقد أصبحن محل احتقار ليس فقط باسم القيم الأوروبية بل أيضاً من جانب الوسط الذى ترجع إليه أصولهن. فلقد انتهكن الأوامر القرآنية بل والقاعدة السائدة. على مر العقود، شهدت العوالم والراقصات تدهوراً فى أوضاعهن.

إلا أن هؤلاء المغربيات قد أبدعن ثقافة فرعية ثرية. فهذه الكائنات المهجنة و«الشخصيات الفاصلة» والمسلمات اللائى خلعن حجابهن واللائى أحياناً ما يكشفن عن صدورهن أو سررهن، الموشومات واللائى يرتدين الملابس الأوروبية رغم وضعهن لزينة ولعطور شرقية قد أصبحن «ممثلات معبرات عن تركيبة غير مسبوقة». فهن يشغلن مركزاً وسطاً يسمح لهن بالعمل بين النظام والفوضى، بين المعتاد والمنحرف، بين المطابق للشائع والتجديد. فهن يحملن مرجعيات لعالمهن الأصلى مع دمجهن فيها لعدد من عناصر النمط الأجنبى المضاد.

ويتعين علينا فى هذا الصدد مضاهاة مجموعة الصور الفوتوغرافية للفتيات المغربيات مع مجموعة الفتيات نصف العاريات المقدمات كبرهان دامغ على تلك الفرضية. وتوحى النظرة الحزينة والعميقة، الاستفزازية أحياناً والمستسلمة غالباً، للفتيات المغربيات بمدى المقاومة الصماء التى تعلن عنها أولئك النساء المهضومة كرامتهن.

■

Living It Up: America's Love Affair with Luxury

(الحياة الرغدة: أمريكا والغرام بالترف)

James B.Twitchell

Simon & Schuster, 2003, 320PP. $ 14.00



يحلل عالم الاجتماع الأمريكى جيمز توتيشل العادات الاستهلاكية فى المجتمع الأمريكى فى الحاضر والماضى القريب، خاصة فيما يتعلق بالسلع الترفيهية غير الضرورية. ويؤكد توتيشل فى دراسته أن «الرفاهية لم تعد حكراً على الأغنياء»، فشراء السلع الترفيهية مثل السيارات المرسيدس والملابس ذات الماركات الشهيرة لا تتطلب أن يكون المرء مليونيراً. وأصبح هناك أفراد كثيرون من الطبقات الوسطى يرتادون الأندية الصحية ويستمتعون من آن لآخر بشراء سلعة ثمينة خارج حدود ميزانياتهم وإمكانياتهم المادية الحقيقية. يفسر توتيشل هذا الأمر من عدة نواح منها الإعلانات والسينما والتليفزيون و«ديانة الاستهلاك» التى أصبحت منتشرة بين الأمريكيين، بحيث أصبح شراء بعض الكماليات نوعا من البحث عن هوية وليس لاحتياج عملى. فالناس تشعر بالتقارب بين بعضها البعض ليس بالمشاركة فى نفس الأفكار والاتجاهات السياسية والمعتقدات الدينية، فقط وإنما بالمشاركة فيما يستهلكونه من سلع. ويقول توتيشل أن الميل نحو الاستهلاك بهذا الشكل، هو نوع من الطمع الإنسانى فى رغد العيش الذى يصيب كل البشر، وهو نفسه وقع تحت هذا التأثير أثناء إعداده للدراسة فى أحد المحال الكبرى، بعد أن لمح رباط عنق من تصميم أحد بيوت الأزياء الشهيرة!

■

أســـــــئلة المحـــــاكمـــــة

من القبو.. إلى القبر.

ربما لو كان هذا مصير صدام، كما كان مصير ابنيه وحفيده، لتجنب «مرمزوه» مشهد الإذلال التليفزيونى: ذا اللحية الكثة والشعر الأشعث. ولتجنب الكثيرون. على اختلافهم. أسئلة المحاكمة.

على أى، فالطاغية (المهيب) قد خرج ـ أو بالأحرى أخرجوه ـ إلى حيث لا نعلم. كما كانت عادته دائماً.

ومرة أخرى ـ كما هى العادة أيضاً ـ سنغرق فى طوفان من المعلومات ـ أو بالأحرى ـ البيانات التى ستتضمنها تقارير يومية. وربما كل ساعة ـ يكتبها عشرات المحققين والاختصاصيين فى كل شيء. بدءاً من أسلحة الدمار الشامل، وحتى السيكولوچيا. والذين وفدوا من كل صوب وكل اختصاص لمراقبة «فأر فى القفص». والتعبير المهين الشامت لـUSA Today فى تقرير لها عن أسلوب التحقيق مع صدام ذكرت فيه أن مهمة البعض ستركز على «مراقبة طريقة نومه»! وصدّرته بتصريح لرامسفيلد قال فيه أن خبراء وكالة الاستخبارات المركزية يعرفون المعلومات التى نريدها هنا فى الولايات المتحدة.. مؤكداً على أن قرار إحالة التحقيق إلى CIA استغرق ثلاث دقائق، وأن الدقيقتين الأوليين «كانتا لشرب القهوة..».

أياً ما كان الأمر، فقبل أن يأتى اليوم الذى تطلب فيه إحدى لجان الكونجرس ـ لأسباب انتخابية أو دعائية ـ الاطلاع على البيانات الخاصة بالتحقيق مع المطلوب رقم واحد: الرئيس السابق لجمهورية العراق، يبدو أن اللحية.. والقبو.. والمشهد الهوليودى للرئيس الأسير على شاشتى الـLCD فى المؤتمر الصحفى الشهير ستحقن مزيداً من الوقود فى آلة الأساطير الدعائية الأمريكية التى بدأت فعلاً فى الدوران. لتحكى ـ بالتشويق اللازم ـ تفاصيل لن تثبت أبداً عن الأسير المحتجز فى مكان لم يُعلن رسمياً أبداً. هل مازلتم تذكرون الروايات الخرافية، بالرسوم التوضيحية الملونة، عن سراديب ومدن كاملة تحت الأرض، لا تؤثر فيها القنابل الذرية؟! وهل تذكرون ما شاع طويلاً عن تقنيات فضائية لدى الأمريكيين، بإمكانها تصوير ماركة الملابس الداخلية لصدام. وهل تعرفون بعد ذلك معنى أن الرجل لم يسقط إلا بعد وشاية (متوقعة) وبمصادفة أن تعثرت قدم جندى الفرقة الرابعة بسجادة مهترئة فى أحد أركان المزرعة؟!

يبدو أنه رغم التقنيات، والحاسبات، والأقمار الصناعية، ومجسات ترى ما تحت الأرض.. «أو سلماً فى السماء»، يبقى الفعل الإنسانى.. وتبقى المصادفة.



هل خدروه لحظة الاعتقال؟

نختلف طبعاً ـ وسنختلف ـ فى الإجابة على هذا السؤال.

ولكننا نتفق قطعاً ـ وإن حاولنا أن نتناسى أو ننكر ـ على حقيقة أننا لعقود خدرناه. كما فعلنا من قبل ـ ومازلنا ـ مع غيره. يتساوى فى ذلك: الهاتفون فى الأزقة والشوارع، و«مواطنون» يقنعون بما يجود عليهم به الحاكم من حصيلة بيع النفط، ومسؤولون يضعون صورته فى كل ركن وزاوية، وسياسيون يستبدلون أحزابهم ـ كما الجوارب ـ مهرولين إلى «حزب الرئيس»، وبرلمانيون يوافقون ويرفضون «بالإشارة». ورجال أمن يحمون صناديق الاقتراع من اقتراب الناخبين «غير المرغوبين».. وإلى ذلك كثير.

تبدأ الظاهرة، أو تتفاقم. وتُعبق رائحةُ «المخدر» الجو، مُغيِّبةً، وجاثمةً على الأنفاس، حين تستحكم «التبعيةُ» بالجمهور، و«النرجسيةُ» بالقائد الذى يبدل أزياءه كل ساعة. يرتدى تارة عقالاً عربياً، وتارة يعتمر قبعة مكسيكية، ملوحاً ببندقيته فى الهواء. وحين يرتدى البزة العسكرية، يرتديها كل المدنيين! تملأ صوره وتماثيله كل مساحة البلاد، وألقابه كل معجمها. ووسط السحابات «الزرقاء» يكون طبيعياً أن لا يرى هو، كما لا يرى كل التابعين أو «المتبعين» السوس ينخر كل شيء.

هى المحاكمة.. إذن علينا أن نعترف. كلنا خدرنا صدام حسين. وكل صدام حسين. يتساوى فى ذلك قادة وزعماء عرب سكتوا عنه حيناً، وساعدوه أحياناً، أليس هو «حارس البوابة الشرقية»: القادر ـ بدماء أبنائه، وأموال جيرانه، وأسلحة الدمار الشامل «الأمريكية» ـ أن يمنع رياح التغيير اللافحة القادمة من الشرق «الخومينى» محملة بـ«لواقح» التمرد. ألم يخدره الأمريكان و«رامسفيلد» شخصياً بزيارته المساندة (مارس ١٩٨٤) إبان حرب الخليج الأولى كمبعوث خاص للرئيس رونالد ريجان. والتى أبلغ فيها الرئيس العراقى أن محاولات واشنطن عقد صلات طيبة مع النظام العراقى لن تتأثر بالانتقادات «العلنية» لاستخدام العراق أسلحة بيولوجية أو كيماوية (وثائق اللقاء كشفت عنها أخيراً «الواشنطن بوست» بعد أن حصلت عليها بناء على قانون حرية المعلومات من أرشيف مجلس الأمن القومى).

أياً ما كان الأمر، فربما كان بعض الذين «خدروه» من الجيران أو «الرفاق».. أو التجار. أو حتى القوى العظمى، كانوا يعملون ـ وتلك هى السياسة على أية حال ـ لمصلحتهم. إن على المدى القريب أو البعيد. ولكن ما عذرنا نحن عامة الناس ومثقفيهم؟ والذى لن يسأله أبداً أى المحققين. كما لن تتضمنه أبداً صحيفة الادعاء: ما الذى يجعل استبداداً بتلك الفظاعة يولد من أحشاء المجتمع العربى؟ وكيف يترسخ العجز والاستسلام لعقود، حتى يأتى الزلزال أجنبياً. ويصبح ترويج المعادلة/ المقايضة ممكناً: «إما الاستبداد أو الاحتلال»؟! كيف يؤله «الناسُ» «الناسَ». فقط لكونهم هناك «على المنصة» فيصبح رأيهم دائماً سديداً، وقراراتهم صائبة. فى ثقافة محفور فى تراثها: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

أسئلتنا الأهم.. ستغيب قطعاً عن المحاكمة.



وسواء حوكم صدام.. أم لم يحاكم.. فى بغداد أو فى غيرها. فالأمر هنا ـ شأن كل المحاكمات ـ تأتى أوراق ملفاته من «الماضى». أما ملامح «المستقبل» فتحددها بوضوح سلة أخبار لم يشأ عام ٢٠٠٣ أن يمضى دون أن يضعها على عتبة عام جديد:

١ ـ عشية جهود إنقاذ مصرية (حثيثة.. ومخلصة) توجت بزيارة هى الأولى لوزير خارجية مصر منذ أعوام ثلاثة، إسرائيل تجتاح غزة وجنين وطولكوم.. ورفح (الحدودية).

٢ ـ القمة المغاربية (لاحظ أنها قمة) أرجئت ـ حسب التعبير الرسمى ـ فى صباح اليوم ذاته المقرر لانعقادها!! ورئيس الأركان الإسرائيلى يقول: «لم يعد هناك شىء اسمه عالم عربى».

٣ ـ بناء على إصرار المندوب الأمريكى، وحتى لا يتضمن النص إشارة واضحة لإسرائيل، يسقط مجلس الأمن الدولى من بيان ترحيبه بتخلى ليبيا عن برامجها للتسلح عبارة «أن الإعلان الليبى يجب أن يكون نموذجاً تحتذى به الدول الأخرى، بما فى ذلك دول الشرق الأوسط».

٤ ـ شاؤول موفاز؛ وزير الدفاع الإسرائيلى (إيرانى الأصل) يعلن أن تل أبيب ستتخذ ما تراه ضرورياً للقضاء على قدرات إيران النووية.

٥ ـ بن لادن (الرمز) يهدد إيران (الرمز) بالويل والثبور وعظائم الأمور.

٦ ـ بعد أن نجحوا فى تشكيل «اللجنة العالمية لنصرة الحجاب» المسلمون يتنادون على الإنترنت لخوض «معركة الحجاب»!!

٧ ـ ولعله ـ فى ضوء ما سبق ـ الأكثرُ دلالةً على مفصلية اللحظة الفارقة بين عامين: القرارَ الليبى «الطبيعى جداً» بالتخلص من الصواريخ و«الأسلحة».. فرغم التأكيد رسمياً على أن القرار اتخذ «بإرادة حرة»، تبقى تصريحات كولين باول حول «الذكاء الليبى». وتبقى حقيقة «أن العصا لمن عصى» هى الترجمة العربية الدقيقة ـ لغوياً ـ لمبدأ بوش «المعلن».

وبالطبع يعرفُ كلُ من يعيش تحت الشمس أن للعصا حين يُلَوَّحُ بها فى الهواء ظلالاً أكيدةً على الأرض.

وحين يذهبُ كلُ الزبد، سيبقى «على الأرض» أيضاً ـ فى منطقتنا تلك وفى أيامنا تلك ـ سؤال واحد محفور: «من خرج فائزاً بعد كل ما جرى؟».

ورب أسئلة يغنيها الواقع عن إجابات.

أيمـــن الصيـــاد

كيف يفكر الزبائن

تأليف : جيرالد زالتمان



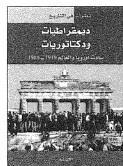
رغم كل ما يبذل في ابحاث السوق، تخفق 80٪ من هذه العروض في تحقيق اهدافها. فهل يعرف الزبائن حقاً ما يريدون؟ يحاول المؤلف حل هذا اللغز. فقد وجد ان الزبائن يعرفون حقاً ما يريدون، غير ان الوسائل التسويقية لا تدخل في عمق كاف يساعد الزبائن على تبين حاجاتهم ورغباتهم والتعبير عنها. في هذا الكتاب الذي يتجه إلى انفتاح العقل يشير المؤلف جيرالد زالتمان إلى ان 95٪ من عملية التفكير يتم في اللاوعي. فالكشف عن رغبات الزبائن الحقيقية يتطلب استيعاباً لـ «عقلية السوق» بغية الوصول إلى التفاعل بين افكار المسوقين والمستهلكين حيث يتم قرار الشراء. يعرض زالتمان في كتابه رؤى جوهرية معتمداً على ابحاث تمت في ميادين متنوعة؛ كابحاث في العقل، وعلم النفس، والتحليل الادبي، والعلم الإدراكي.

جيرالد زالتمان: استاذ التسويق في كلية هارڤارد للإدارة والاعمال وهو زميل في جامعة هارڤارد في بحوث السلوك، والعقل.

* ثمن النسخة المجلدة $14 * ثمن النسخة بالغلاف $11.50

ديمقراطيات وديكتاتوريات سادت أوروبا والعالم بين سنتي 1919 و 1989

تأليف : آلان ثُد



شهدت الفترة الواقعة بين سنة 1918 وسنة 1989 تغييرات اساسية في العلاقات الدولية، كان منها ظهور الولايات المتحدة الأمريكية قوة عظمى في العالم، واثر روسيا الشيوعية على الدبلوماسية الاوروبية والعالمية. يقدم لنا المؤلف آلان ثُد رؤيته للفترة التي تمخضت عنها الحرب العالمية الاولى، ومعاهدات السلام التي تلت نتيجة لها، والعوامل التي افضت إلى الحرب العالمية الثانية. ويَمحص في التطورات التي حدثت في الاتحاد السوفييتي. ثم تناول الحرب الباردة في اوروبا، وآسيا، وامريكة. كما قدّم لنا موجزاً لمناقشات تاريخية هامة احاطت بهذه الموضوعات.

* ثمن النسخة بالغلاف $13

قواعد التأثير في المستمعين

دفع الناس إلى العمل عبر مخاطبتهم

تأليف : نك مورغان

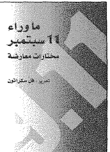


لعل الكلمات هي خير ما نملك من وسائل تدفع الناس إلى العمل. فالكلمات التي ننطق بها نستطيع ان نجعلها تغرس الإقدام في النفوس وان تؤجج المشاعر، كما نستطيع ان نوجهها لكي تطيح بالافكار البالية ولتنير آفاقاً جديدة. إنك لا تستطيع ان تحقق كل ذلك إلا إذا عرفت كيف ترتبط بجمهورك بصدق. يكشف مؤلف هذا الكتاب في كتابه الذي يمتاز بافكار عملية فائقة أسرار انجح الخطباء والمتحدثين والمحاضرين واعظمهم بلاغة، وهي أسرار لم يَدخر وسعاً في الحصول عليها. فإذا كنت تسعى إلى ان تحمل افكارك صداها المؤثر في مستمعيك فلا يسعك تجاهل الحكمة والقواعد التي تجدها في هذا الكتاب.

* ثمن النسخة المجلدة $11 * ثمن النسخة بالغلاف $8.30

ما وراء 11 سبتمبر

سكرانتون وآخرون (محررون)



لقد احدثت الصور المرعبة لارتطام الطائرات ببرجي مركز التجارة العالمي في نيويورك وانهيارهما اثراً لا يمحى من نفوس الذين شاهدوا بثّ هذه الصور المفجعة المتكرر.

إذ لم تفلت لحظة من لحظات الكارثة إلا وسجلتها عدسات الكاميرات بلقطاتها المركزة. لقد ولّد هذا قلقاً واضحاً حيث شعر الذين انغمسوا في تغطية الحدث، سواء أكانوا إعلاميين ام مشاهدين كأنهم يختلسون النظر لمشهد لا تطاق رؤيته. لقد استرعى حجم الكارثة الكبير انتباه العالم، وربما كانت هذه هي غاية المهمة الرهيبة، إذ لم تكن الاهداف عشوائية. فكان الحادي عشر من سبتمبر (ايلول) اليوم الذي «غيّر التاريخ»؛ فلن تكون الحياة بعده كما كانت قبله ابداً. إن صورة ذلك اليوم ستبقى حيّة في ذاكرة اليتامى والمنكوبين والذين نجوا من الحادث والذين انقذوهم ايضاً. فقد تغيّرت حياتهم وتبدّل مستقبلهم فجاة وعلى نحو دائم، كما تحطّمت آمالهم وخططهم.

ومع ذلك فإن عرض تلك اللحظات والساعات المصيرية الرهيبة على اوسع نطاق عالمي على انها «تغيير للعالم» يخفي وراءه حقائق العلاقات الدولية والمصالح القوميّة التي تعززها. ورغم همجيّة الهجمات هذه على الولايات المتحدة وقسوتها وإجرامها، فإنها لم تكن بلا سياق او قرينة. إذ جاءت حصيلة ظروف تاريخية ماديّة. ولا بد من استبعاد التفسيرات العرضيّة والساذجة، بغية فهم هذه الاحداث وحقيقتها. فالحقيقة التاريخية تقتضي الذهاب إلى ما بعد الاشمئزاز والإدانة والعقاب لمواجهة العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية المعقّدة بين الدول والمجتمعات الدولية وكذلك في الدولة الواحدة.

لا بد من فهم مصادر هذه الأعمال والتصدّي لها. ولا يعني السعي إلى تعليل الاحداث ابداً التنكر لتحديد المسؤولية. ولا ينبغي لنا ان نخون الموتى وان نخادع الاسر المنكوبة في متابعتنا للعدالة من خلال القوانين والمواثيق الدولية. لقد شكّلت احداث الحادي عشر من سبتمبر (ايلول) التاريخ المعاصر وستلقي ظلالاً ثقيلة على مقبل الايام. فإذا فشلنا في التقاط القرائن الماديّة والاجتماعيّة، وإذا استبعدنا الفروق العميقة ذات الصلة، في تفسير الاحداث، فإننا نتنكر لمعانيها ونهمل مغازيها واهميتها، ونفسر حقيقتها تفسيراً ربما يكون ظاهره معقول لكن باطنه يخفي مواطن خطر شديد ومخادع للناظر.

* ثمن النسخة بالغلاف $13.75



شركة الحوار الثقافي ش.م.م

بيروت، ص.ب. 6750 - 13 لبنان

هاتف: 802444-1-961+ • فاكس: 790718-1-961+

E-mail: info@interculturalbooks.com • http://www.interculturalbooks.com